سُنَّةُ اللّٰه

في عِقَابِ الأُمَمِ

في القرآن الكريم

تأليف

عبد السلام بن نصر الله الشريف

دار المعراج الدولية

للنشر

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ / ١٩٩٤م

دار المعراج الدولية للنشر

الرياض ١١٤٢١ - ص. ب ٨٥٨

تليفون: ٤٠٣٦٢٧٨

سُنَّةُ الله

في عِقَابِ الأُمَم

في القرآنِ الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق كل شيء وقدره تقديراً، والصلاة والسلام على رسولنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الفصل وبعد :

إن القلب منكسر حزين لما آلت إليه أحوال أمة الإسلام، والحزن يعظم ويزداد كلما تدبر بما أكرم الله به هذه الأمة من صفات ومميزات ثم تعرض عن أسباب قوتها وسؤدها وتلهث وراء شرائع وأهواء هي أوهى من بيت العنكبوت.

أليست هذه الأمة هي التي قال عنها تعالى : ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾؟! أليست شريعة الإسلام أكمل الشرائع للدنيا والآخرة؟ ﴿**هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾.

أليست هذه الأمة التي ستشهد على غيرها من الأمم؟ فعندما ينكر قوم نوح إبلاغه لهم يقال لنوح عليه السلام من يشهد لك؟ فيقول : محمد وأمته[1].

ومن الناحية التاريخية أليست هي الأمة التي سبقت رحمتها سيفها؟ وهي التي كان سيفها رحمة على العباد.

أليست هي الأمة التي عاش أبناؤها جنة الدنيا قبل جنة الآخرة؟!

---

(١) أنظر صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب : قول الله عز وجل ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾.

أحقاً أن التراب الذي ارتوى بدماء الأجداد ارتفعت فوقه رايات الإلحاد؟! أحقاً أن الأحفاد استبدلوا عزة الأجداد فصارت ذلاً وهواناً؟!

أحقاً أن الأحفاد صاروا يتلذذون بطعم الخيانة؟!

أحقاً أن القصور التي صدر منها قرار بعوث الجهاد واستجابة لحرّة، تصدر منها قرارات إباحة الحرائر للكلاب؟!

أحقاً أن الشاطئ الرملي الذي اختلط فيه دم الجد بماء البحر صارت تلعب عليه بنات الأحفاد عرايا بلا أدنى حياء؟!

أحقاً أن البيت الذي شيد للفضيلة صار مكاناً للبغاء؟! أو صار سجناً تقيد فيه أيد الشرفاء؟!

أحقاً أن الشريف صار غريباً منبوذاً في بلده وقومه؟!

أحقاً أن المرء صار يلعق الصبر قسراً كي يحصل على لقمة الكفاف، بعد أن وزع الخليفة الزكاة فلم يجد من يأخذها؟!

أحقاً أن السماء لم تعد تمطر إلا للدواب؟!

أحقاً أن الأسد تموت جوعاً، ولحم الضأن تأكله الكلاب؟!

أحقاً أن البنيان المرصوص تهدم فلم يعد هناك بناء؟!

أحقاً أن الوجوه الطيبة حملت على بعضها السلاح وسار الدم أنهاراً؟!

أكل ذلك حق؟! نعم، كل ذلك حق، بل أكثر من ذلك بكثير.

إن الكتابة والبحث عن مخططات أعداء هذا الدين أمر واجب في كل زمان ولكن الالتفات إلى دراسة أحوال المسلمين اليوم هو أمر أوجب. وما آلت إليه أحوال المسلمين اليوم تستحق الوقوف والبحث عند أسبابها.

والقرآن الكريم لم يعر قوة الكفار أي أهمية عندما قارنها بقوة المسلمين وهذا بدهي عند أرباب العقيدة الحقة، وهل يظن عاقل أن الخلق يغلبون الخالق؟! ﴿ألا إن حزب الله هم الغالبون﴾، ﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾. بل إن القرآن الكريم كان يقف عند حوادث حصلت داخل الصف الإسلامي وقوفاً طويلاً مثل معركة أحد عندما خالف الرماة أمر النبي عليه الصلاة والسلام، بل عندما اختلف أهل بدر على الغنائم أخبرهم سبحانه بأنه ما ينبغي لكم أن تختلفوا على مثل هذا ﴿قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾. لذلك لابد من دراسة الصف الإسلام اليوم دون خوف، لأن البناء لابد أن يكون نظيفاً حتى يقوم. من أجل ذلك توجهت إلى كتاب الله سبحانه لأرى ما هي أسباب عقاب الله للأمم؟ وكيف؟ وما نصيب المسلمين اليوم منها؟.

فقمت بتقسيم البحث إلى مقدمة وهي التي بين أيدينا، ثم تمهيد بينت فيه تعريف بعض المصطلحات الواردة في عنوان البحث الذي أسميته «سنة الله في عقاب الأمم في القرآن الكريم»، وذكرت بعض الملاحظات المتعلقة فيه.

ثم أردفت التمهيد بأربعة فصول وخاتمة.

أما الفصل الأول فهو: «السنة الإلهية» وقسمته إلى ثلاثة مباحث:

الأول منها: تحدثت فيه عن السنن الإلهية عامة وبينت قسميها، ممثلاً ببعض الآيات، ثم ذكرت خصائص ومميزات السنن الإنسانية.

والمبحث الثاني: تحدثت فيه عن سنة العقاب، وذكرت بعض الأدلة عليها من القرآن الكريم.

والمبحث الثالث: تكلمت فيه عن ضوابط سنة العقاب، مدللاً على كل ضابط من كتاب الله عز وجل.

أما الفصل الثاني وهو: أشكال العقاب في القرآن الكريم، فقد جزأته إلى ثلاثة مباحث كذلك:

المبحث الأول: تحدثت فيه عن العقاب الوارد بلفظ عام.

والمبحث الثاني: ذكرت فيه أشكال العقاب المعنوي في القرآن الكريم.

والمبحث الثالث: تحدثت فيه عن أشكال العقاب الحسي في القرآن الكريم.

أما الفصل الثالث فقد أسميته «أسباب العقاب الإلهي في القرآن الكريم»، تحدثت في هذا الفصل عن الأسباب المباشرة التي عاقب سبحانه الأمم بسببها وقد بلغت عندي ثلاثين سبباً.

ومنهجي في كتابة الفصلين السابقين ذكر شكل العقاب أو سببه كعنوان، ثم ذكر الآية الخاصة به، وغالباً ما يكون العنوان مستخلصاً من ألفاظ الآية، ثم أذكر المعاني اللغوية للمفردات التي أريد تفسيرها، ثم أبين المعاني الاصطلاحية، وأذكر بعضاً من لطائفها، ثم أبين أقوال المفسري فيها، ثم أوازن بين الأقوال. وهذا المنهج اتبعته في كل أشكال وأسباب العقاب إلا في بعض المواضع القليلة لعدم الحاجة، أو لصعوبة ترجيح بعض الأقوال على بعض. وإذا ذكرت أن فلاناً يرجح هذا ولم أورد خلافه فهو القول الذي أتبناه، وبعد الترجيح بين الأقوال أذكر بعض الفوائد، وهذا قليل.

أما الفصل الرابع فقد سميته «بسنة العقاب وواقع المسلمين المعاصر»، مهدت له بتوطئة، ثم ذكرت أهم مظاهر انحراف المسلمين عن منهج رب العالمين، رابطاً بين القديم والحديث لتلازمهما.

أما الخاتمة فقد ضمنتها النتائج الرئيسة التي استفدتها من البحث، وأوضحت فيها الطريق الذي يلزم المسلمين العودة إليه.

أما منهجي في إيراد الأحاديث النبوية فإني أعزوها إلى مصادرها الأصلية ولا أورد في هذا البحث إلاّ المقبول من الأحاديث، وعندما أقول في الهامش «المصدر نفسه» فأقصد معه الصفحة نفسها كذلك.

وأود التنويه إلى أن البحث محصور بسنة العقاب في الدنيا، فإن عقاب الآخرة يحتاج إلى بحث مستقل، وقد واجهتني صعوبة في البحث وهي قلة المراجع المتاحة في هذا الموضوع.

والله أسأل أن ينفع بهذا البحث ويجعله في ميزاني أعمالي **﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾**. كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى عمي محمد، الذي قام بالإشراف على طباعة هذه الرسالة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

عبد السلام بن نصر الله الشريف

٧ من شوال ١٤١٤هـ
١٩ من مارس ١٩٩٤م

** ** **

التمهيد

قبل الشروع في البحث لابد من توضيح وتحديد معاني الألفاظ الواردة في عنوان البحث؛ ليسهل على القارئ متابعة فصول هذا البحث، والذي يلزمنا بيانه في هذا الشأن هو معنى كل من: السنة، العقاب، الأمة، ونوع «أل» التعريفية في لفظة «الأمم».

تعريف السنة: قيل إن أصل اشتقاقها من الصقالة والملاسة من قولهم: سننته، أي: صقلته إذا مررت به على المسن، وأطلقت السنة على الوجه لملاسته. قال الشاعر:

تريك سنة وجه غير مقرفة

ملساء ليس بها خال ولا ندب[1]

وقيل: أصل السنة في قولهم: سن الإبل، إذا أحسن رعيها[2].

وقيل من قولهم سنّ أي: صور، والمسنون: المصور[3].

وسنّ: أوضح وبيّن، تقول: سن الله طريقاً، أي: بيّن طريقاً قويماً.

---

(١) انظر لسان العرب، محمد بن منظور (١٣/ ٢٢٤، ٢٢٥)، طبعة دار صادر، بيروت، دون تاريخ، وانظر القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (١٥٥٨)، طبع مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٢) انظر تفسير البحر المحيط، محمد يوسف أبو حيان (٣/ ٥٦)، طبع مكتبة النصر الحديثة، الرياض، دون تاريخ.

(٣) المصدر السابق.

والسنة: الطريقة، قال تعالى: ﴿**سنة الله في الذين خلوا من قبل**﴾[1].

وسنة الله: قد يقال لطريقة حكمته، وطريقة طاعته[2].

وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام: طريقته التي كان يتحراها[3].

وتطلق السنة على السيرة حسنة كانت أم قبيحة، ومن هذا قوله عليه الصلاة والسلام: «من سنّ في الإسلام سنة حسنة فعُمل بها بعده كُتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة فعُمل بها بعده كُتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء»[4].

وتطلق على ما يؤتم به، تقول سنّ فلان سنة إذا عمل عملاً اقتُدي به فيه، قال الشاعر:

من معشر سنت لهم آباؤهم

ولكل قوم سنة وإمامها[5]

وتطلق السنة على الأمة، قال الشاعر:

ما عاين الناس من فضل كفضلهم

ولا رأوا مثلهم في سالف السنن[6]

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٢.

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروآبادي (٣/ ٢٦٧)، المكتبة العلمية، بيروت، دون تاريخ.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم (٤/ ٢٠٦٠)، طبع دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، دون تاريخ.

(٥) انظر لسان العرب، ابن منظور (١٣/ ٢٢٤، ٢٢٥).

(٦) المصدر السابق.

مما سبق يتبين أن السنة تطلق على معان كثيرة مثل الوجه والرعي والصورة والأمة والطريقة والسيرة وغيرها، وسيتضح من تعريف السنة الاصطلاحي وجه الربط بين المعنى الاصطلاحي واللغوي.

السنة اصطلاحا: لم أجد في كتب القدماء ـ فيما اطلعت عليه ـ كمفردات الراغب والبصائر وغيرها، ولا في كتب التفسير تعريفاً شاملاً للسنن الإلهية كلها ولكني وجدت لدى بعض المحدثين ذلك، فقد عرّف السنة الإلهية أحد المعاصرين فقال عند مادة سنن: وسنة الله: . . . طريقته وما جرى من نظامه في خلقه[1].

أما علماء التفسير فقد عرّفوا سنة الله في عقاب الأمم وتعاقبها، وعلى كل حال إن ما ينطبق على سنة العقاب ينطبق على جميع السنن الإلهية مع الفرق في موضوع أو أفراد التعريف. لذا أورد الآن تعريفاً عاماً للسنن الإلهية، ثم أذكر تعريفات العلماء لسنن الاجتماع.

السنن الإلهية: هي القوانين التي جعل سبحانه كل شيء في هذا الكون يسير وفقها، وعبارة كل شيء تشمل الكون بما فيه من مادة ومعنى، ففي الجانب المادي الأفلاك والشموس مثلاً، قال تعالى: **﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾**[2] .

هذه الآية تبين أن نظام تعاقب الليل والنهار بواسطة الشمس والقمر يتم وفق قوانين ثابتة بحيث لا يتقدم شيء على شيء، وكل الكواكب في السماء

---

(١) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم، ص٢٥٤، طبع دار الفكر العربي، القاهرة، دون تاريخ.
(٢) سورة يس، الآية: ٤٠.

تسير وفق خط مرسوم محدد لا بتغير إلا بإذن خالقه[1] .

وهذه القوانين في كل شيء من هذا الكون من مياه وبحار وكنوز وثروات وحتى أجسام المخلوقات الحية كل شيء فيها يخضع لقانون أو قوانين، وهذا ما تقدم به العلم الحديث في مجال المادة حيث إن الإنسان اكتشف حتى الآن كثيراً من هذه القوانين واستفاد منها في مجال الدنيا[2] .

أما الجانب المعنوي أو الروحي من الحياة ففيه قوانين كذلك، فالحضارات والدول تنهض وتزول فجأة أو تضعف شيئاً فشيئاً حتى تزول، كل ذلك وفق قوانين وضعها رب العالمين وتسير الأمم عليها، وذلك من محض حكمته المطلقة عز وجل وعلمه بأحوال البشر .

وعلى الجانب الثاني كان يدور كلام المفسرين في تعريفاتهم للسنن، قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ: السنن: مثلات سير بها فيهم ـ أي الأمم السابقة التي عوقبت ـ وفيمن كذبوا به من أنبيائهم. أهـ[3] .

وقال الإمام النسفي: سنن: أي ما سنه الله تعالى في الأمم المكذبين من وقائعه[4] .

---

(١) انظر التفسير الكبير، الفخر الرازي (٢٦/ ٧٣ - ٧٧)، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تاريخ.

(٢) انظر مفاهيم ينبغي أن تصحح، محمد قطب، ص٣٤٦، طبع دار الشروق، بيروث، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٤/ ٩٩)، طبع شركة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.

(٤) تفسير القرآن الجليل المسمى «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»، أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي (١/ ٢٥٤)، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، دون تاريخ.

وقال الآلوسي: سنن: أي وقائع في الأمم المكذبة أجراها الله تعالى حسب عادته[1].

وقال صاحب المنار: السنن - من الله تعالى -: النظام الذي جرى عليه أحوال الأمم السابقة، وأن ما وقع لهم هو مطابق لتلك السنن التي لا تتحول ولا تتبدل. اهـ[2].

وعرفها بعض المعاصرين بقوله: السنن الإلهية: منهج الله في تسيير هذا الكون وعمارته وحكمه، وعادة الله في سير الحياة الإنسانية، وعادته في إثابة الطائعين وعقاب المخالفين طبق قضائه الأزلي على مقتضى حكمته وعدله. اهـ[3].

ومن كل ما سبق يتبين أن هناك ربطاً بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، حيث إن السنة **لغة**: الطريقة، **واصطلاحاً**: طريقته سبحانه في تسيير أمور هذا الكون بمقتضى حكمته وعدله.

تعريف العقاب:

عاقبة الشيء: آخره، والعقاب والمعاقبة: أن تجزي الرجل بما فعل سواءاً. والاسم العقوبة.

---

(١) انظر روح المعاني في نفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل محمود الآلوسي (٤/ ٦٥)، طبع دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
(٢) تفسير القرآن الحكيم الشهير بـ«تفسير المنار»، محمد رشيد رضا (٤/ ١٤١، ١٤٢) باختصار، طبع دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، دون تاريخ.
(٣) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، د. شريف الخطيب (١/ ٩)، مخطوط.

وعاقبه بذنب معاقبة وعقاباً أخذه به، والعقبى جزاء الأمر، وأعقبه جازاه، وتطلق على خلفاء الرجل فتقول: أعقب الرجل إذا مات وترك عقباً.

فالعقاب هو الجزاء على الفعل[1].

والعقوبة والمعاقبة والعقاب يخص بالعذاب، قال تعالى: ﴿**فحق عقاب**﴾[2]. والعقاب في القرآن: مجازاة المسيء على إساءته[3].

تعريف الأمم:

الأمم جمع أمة، وأصلها من الأم، وأم كل شيء أصله وعماده، والأمة بضم الهمزة أو فتحها بمعنى واحد.

وتطلق الأمة على الطريقة والدين. قال تعالى: ﴿**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين**﴾[4] أي كانوا على دين واحد[5]، قال الشاعر: وهل يستوي ذو أمة وكفور (أي ذو دين).

وتطلق الأمة على الجماعة الذين أرسل إليهم رسول، والجيل من كل حي، والجنس.

---

(١) انظر لسان العرب (١/ ٦١٩، وانظر مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي (٤٤٣)، طبع دار الدعوة، استامبول، تركيا، دون تاريخ.
(٢) سورة ص، الآية: ١٤، بصائر ذوي التمييز، الفيروز ابادي (٤/ ٨٢).
(٣) انظر التفسير اكبير، الرازي (٥/ ١٦٠).
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
(٥) انظر تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود الزمخشري (١/ ٣٥٥)، طبع شركة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م.

وتطلق على من هو على الحق مخالفاً لسائر الأديان، ومن هذا قوله تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمة﴾ . . . الآية[1] .

وتطلق الأمة على الحين من الزمن، ومنه قوله تعالى: ﴿وادكر بعد أمة﴾[2] أي: بعد حين، وكذلك منه قوله تعالى: ﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة﴾[3] أي إلى حين[4] .

والمراد بالأمم في عنوان البحث: الأمم السابقة التي ذكرها القرآن وقص أخبارها، وكيف كانت سنته تعالى فيهم.

و «الـ» في لفظ الأمم للعهد[5] .

وقد قيدت البحث في كتاب الله تعالى فقط؛ لأن السنة النبوية تحتوي على كثير من الآثار حول هذا الموضوع وتستحق أن يفرد بها بحث خاص.

** ** **

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٠ . (٢) سورة يوسف، الآية: ٤٥ . (٣) سورة هود، الآية: ٨ .

(٤) انظر لسان العرب (١٢/ ٢٣)، وانظر بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٢/ ٧٩).

(٥) والعهد في اللغة على ثلاثة أنواع هي: **الأول**: العهد الذكري، وفي هذا النوع يذكر الاسم منكراً، ثم يذكر معرفاً نحو قوله تعالى: ﴿. . . كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً﴾ (سورة المزمل، الآيتان: ١٥، ١٦)، وسمي العهد بالذكري؛ لأن المعهود ذُكر سابقاً. **والثاني**: العهد الذهني أو العلمي، والمعهود في هذا النوع يكون معلوماً قبل ذكره فيتوجه الذهن إليه عند ذكره، مثال ذلك: أذاهب إلى البيت؟ كل هتبت المحاضرة؟ فالبيت والمحاضرة شيئان معلومان سابقاً. **والثالث**: العهد الحضوري، وهذا النوع هو الذي يكون سببُ تعريف النكرة فيه حصول الأمر في وقت الكلام. من ذلك قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ (سورة المائدة، الآية: ٣)، وكقولك: البرد شديد الليلة، والمقصود باليوم في الآية وبالليلة في المثال شمولهما وقت الكلام. أما «أل» التي في لفظ الأمم فهي تسمى العهدية الذهنية أو العلمية؛ وذلك لأن الأمم المذكورة معروفة سابقاً في ذهن السامع أو القارئ، وهي الأمم التي مرت في التاريخ، وقد ذكر القرآن كثيراً منها.
انظر (أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك) أبو محمد عبد الله بن هشام الأنصاري المصري، وبهامشه (هداية السالك إلى تحقيق أوضح المسالك) محمد محيي الدين عبد الحميد (١/ ١٢٧)، طبع إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الخامسة، سنة ١٩٦٦م. وانظر النحو الوافي، عباس حسن (١/ ٤٢٤، ٤٢٥)، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السابعة، دون تاريخ.

الفصل الأول

السنن الإلهية

قمت ـ فيما سبق ـ بتعريف المصطلحات الواردة في عنوان البحث من حيث اللغة والاصطلاح ونبهت إلى ما اشتملت عليه جملة العنوان، وذلك كتمهيد للدخول في الحديث عن السنن الإلهية وهو موضوع الفصل الأول.

والفصل الأول: هو دراسة مجملة للسنن الإلهية بشكل عام كمدخل للبحث كله ثم دراسة لسنة العقاب من حيث مفهومها وأقسامها.

وسأقسم الفصل الأول إلى ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: مفهوم السنن الإلهية، وخصائص السنن الإنسانية.

المبحث الثاني: سنة العقاب، مفهومها، وأقسامها.

المبحث الثالث: ضوابط سنة العقاب.

المبحث الأول :

مفهوم السنن الإلهية

ذكرت فيما تقدم أن السنن الإلهية عبارة عن النظام الذي وضعه سبحانه ليسير الكون وفقه، والسنن الإلهية قسمان رئيسيان:

الأول: السنن الكونية، ويقصد بها النظام التي تسير وفقها الماديات كالكواكب، والشموس، والأمواه، وكل عنصر مادي من عناصر هذا الكون الفسيح.

الثاني: السنن الإنسانية أو سنن الاجتماع، وهي النظم المتعلقة بتغير أحوال الأمم وتبدلها تعلقاً بما تفعله هذه الأمم من خير أو شر، وإن هذه التبدلات مبنية على مقدار صلاح الأمة وفسادها، فالأمم التي تتمسك بشرع الله وتجعله لحياتها تسود وتعلو علي غيرها من الأمم الجاحدة، والعكس صحيح.

لقد وضع الله لكل منها قوانين وأنظمة تتبدل أحوال الأمم وفقها قوة أو ضعفاً، نهوضاً أو زوالاً، وهذه الأحوال المذكورة ملحوظة من خلال الواقع الذي حدث والذي يحدث، وفي قصص الغابرين عبرة، ولهذا الغرض خصّ تعالى جزءاً كبيراً من كتابه الكريم للحديث عن الأمم السابقة[1].

---

(١) انظر، حول التفسير الإسلامي للتاريخ، محمد قطب، ص١١٥، طبع المجموعة الإعلامية، جدة، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، وانظر، مفاهيم ينبغي أن تصحح، محمد قطب، فصل (مفهوم الحضارة وعمارة الأرض).

أما السنن الكونية فموضوعها العلوم الدنيوية والتي تبحث في المادة، كعلم الفلك، والأرض والحساب، والكيمياء، والطب، وغيرها. وفي هذا المجال وصلت البشرية إلى معرفة عظيمة فالمواد بخلقتها تعمل بمشيئة الله وفق قوانين، واكتشاف تلك القوانين هو اطلاع على كيفية الاستفادة من خصائص المواد وبالتالي تسخير المادة للمصلحة، فالصعود إلى الكواكب والصناعات الحديثة كلها من هذا الباب.

والأصل أن الله سبحانه هدى الإنسان إلى تسخير هذه المخلوقات لخدمته ولكنه كفر بنعمة ربه واستخدم هذه العلوم في كثير من المواطن لمصلحته الخاصة التي تقوم على ضرر الآخرين، وقد يكون الإنسان هنا فرد وحده، أو مجموعة من الأشخاص أو دولة سخرت إمكانياتها العلمية للسيطرة على مقدرات الآخرين، وعالمنا في العصر الحديث يعجّ بمثل هذه المظالم.

أما القسم الآخر من السنن وهو السنن الإنسانية فقد ركز عليها القرآن؛ لأن المبادئ والعقائد هي الأساس في حياة بني الإنسان، فمن تشبع قلبه بحب الخير وعمل الخير كان خيراً وبركة على بني الإنسان، ومن تقلب فؤاده بين أنواع الرذيلة فما يفرز للبشرية إلا شراً ووبالاً، لذلك أمر تعالى بتدبر سننه في الأمم، فقال تعالى: ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون**﴾[1].

لقد ورد لفظ السنة مفرداً وجمعاً في أحد عشر موضعاً من كتاب الله كلها تتحدث عن الأمم وسنن الله فيها ومن بين هذه المواضع تسعة تتحدث عن سنة العقاب.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١١١.

من هذه المواضع قوله تعالى: ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾[1] .

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: إن لله سنناً مطردة هي التي تحكم الحياة وهي التي تضبط أحوال الأمم وتبدلها بإذن الله سبحانه فما انطبق على الأمم القديمة سيتحقق نفسه في الظروف المشابهة في أي عصر من العصور، فما جرى للمكذبين سيجري مثله للمكذبين اليوم وفي أي يوم. أهـ[2] .

وذكر الإمام الرازي أن أكثر المفسرين على أن المراد بالسنن في هذه الآية سنن الهلاك والاستئصال بدليل قوله تعالى ﴿فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ فهؤلاء المكذبين لرسل الله أبيدوا وأهلكوا ولم يبق منهم أحد[3] .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلاّ أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قُبُلاً﴾[4] .

والمعنى: وما منع الكفرة من الإيمان بالبراهين الواضحات على صدق الرسالات إلاّ طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وُعدوا به، كما قال تعالى: ﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين﴾[5] .

وقال تعالى: ﴿اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٧.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (١/ ٤٧٩)، طبع دار الشروق، القاهرة، الطبعة العاشرة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
(٣) انظر، التفسير الكبير، الرازي (٩/ ١٢)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد القرطبي (٤/ ٢١٦)، طبع دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٥٥.
(٥) سورة الشعراء، الآية: ١٨٧.

ائتنا بعذاب أليم﴾[1] . . إلى غير ذلك من الآيات[2] .

وقال : **﴿إلاّ أن تأتيهم سنة الأولين﴾** أي سنتنا في الذين لا يؤمنون، الاستئصال[3] .

وسيأتي مزيد تفصيل لهذه الآيات وأمثالها في مبحث سنة العقاب .

تحدثت آنفاً عن السنن الربانية بشكل عام وبينت أنها تنقسم إلى قسمين عامين : السنن الكونية والسنن الإنسانية أو سنن الاجتماع ولما كانت سنة العقاب هي موضوع البحث فسأتحدث عن خصائص السنن الإنسانية باعتبار أن سنة العقاب واحدة منها :

وقبل ذلك أود التمهيد بالملاحظة التالية :

إن السنن الإنسانية تنقسم إلى قسمين رئيسين :

الأول: السنن العامة . **الثاني**: السنن الخاصة[4] .

والسنن العامة هي الأكثر، وتتميز بأنها تقع على البشر كافة دون تمييز بين مؤمن وكافر، فالكل فيها سواء . ومثال ذلك ودليله سنة الابتلاء بالعطاء . قال تعالى : **﴿كلاً نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً﴾**[5] .

---

(١) سورة الأنفال، الآية : ٣٢.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم، الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (٣/ ٩٦)، طبع دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

(٣) تفسير الخازن المسمى (لباب التأويل في معاني التنزيل)، علي بن محمد البغدادي الصوفي المعروف بالخازن (٣/ ٢٠٢)، طبعة دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ.

(٤) انظر حول التفسير الإسلامي للتاريخ، محمد قطب، ص٨٦، ٨٧.

(٥) سورة الإسراء، الآية : ٢٠.

هذه الآية تبين سنة عامة من سنن الله عز وجل في هذه الأرض، فالعطاء ممدود لكل البشر، والرزق ممدود للكافر والمؤمن، ويؤكد سبحانه أنه ممدود بقوله: ﴿**وما كان عطاء ربك محظوراً**﴾ أي: محبوساً[1] .

والمفسرون كالرازي والقرطبي على أن المراد من ﴿**هؤلاء وهؤلاء**﴾ المؤمنون والكافرون[2] ، أما هذا العطاء الدنيوي فالمقصود منه ابتلاء البشر مؤمنهم وكافرهم ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، قال تعالى: ﴿**إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً**﴾[3] .

وقال كذلك: ﴿**الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً**﴾[4] .

والآية الأولى تبين أن الله سبحانه خلق كل ما على وجه الأرض[5] ليبلو الناس أيهم أفضل عملاً[6] .

وفي الآية الثانية يبين سبحانه أن خلق الموت والحياة ابتلاء للبشر[7] .

ومجمل القول أن الله سبحانه ابتلى الناس كلهم بهذا العطاء الدنيوي سواء كان طعاماً أو لباساً أو غير ذلك، والغاية من هذا الابتلاء معرفة موقف الإنسان من زينة الأرض، فإن الملك له في القلوب أثر كبير، فمن الناس من يجرف أمامه فيصيبه الجشع والطمع، فيصبح عبداً لزينة الأرض فيتبع أحقر

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٠/ ٢٣٦).
(٢) انظر المصدر السابق، وانظر التفسير الكبير، الرازي (٢٠/ ١٨١).
(٣) سورة الكهف، الآية: ٧.
(٤) سورة املك، آية: ٢.
(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٠/ ٣٥٤).
(٦) انظر التفسير الكبير، الرازي (٣/ ٥٥، ٥٦).
(٧) انظر حول التفسير الإسلامي للتاريخ، محمد قطب، ص٨٦ وما بعدها.

السبل وأحطها لنيل مراده في الاستزادة منها، ومنهم من يعلو عليها وهي تأتي إليه فيبذلها في طرق الخير لا يهمه زادت أم نقصت، فهيَ عطاء الله ورزقه كُتب في السماء قدره.

وعلى هذا الشكل يمتحن الناس بزينة الأرض فكم من إنسان زلّت قدمه في أوحال الترف فراح يرتع في أماكن الفسق والفجور، وكم من إنسان زاده ملكه حرصاً وطمعاً حتى صار قلبه صلداً لا يتحرك لمعروف.

أما القسم الثاني ـ السنن الخاصة ـ وهي عبارة عن السنن التي تكون لطائفة خاصة، فقد تكون لكافرين فقط وقد تكون للمؤمنين فقط[1].

ومثال ذلك: سنة الابتلاء والتمحيص لصفوف المؤمنين وهذه سنة خاصة بالمؤمنين دون الكافرين، بمعنى أن الله سبحانه لا يمكّن للمؤمنين حتى يمحصهم فيميز الخبيث من الطيب، ولهذه السنة حكمة عظيمة وهي أن دولة الإيمان عندما تقوم تقوم على أسس راسخة وجذور عميقة، فتنشأ فتيّة قويّة وتمتد في الزمن، فأعمار دول الإيمان أطول بكثير من أعمار دول الكفر، ودليل ما ذكرته قوله تعالى: ﴿**ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب**﴾ . . . الآية[2].

هذه الآية دليل على سنة التمحيص قبل التمكين. وأكثر المفسرين ـ كما قال القرطبي[3] ـ على أن الخطاب في الآية للكفار والمنافقين الذين اخترقوا صفوف المسلمين، فإن الله سبحانه لم يجعل من اللائق بجلاله أن يترك

---

(١) انظر المصدر السابق.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٩.
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٤/ ٢٨٨، ٢٨٩).

صفوف أحبائه مخترقة من قبل هؤلاء، فقال: إنه لن يترك المؤمنين وفيهم أنتم أيها المنافقون، فلابد من محنة تميّز الصف وتمحصه ولابد من ظهور الصادق من الكاذب، أو قوي الإيمان من ضعيفه[1].

وأورد القرطبي قولاً آخر وذكر أنه قول أكثر أهل المعاني وهو: إن الخطاب في الآية للمؤمنين. والمعنى، يا أيها المؤمنين ما كان الله ليذر صفكم مشوهاً بتداخل المنافقين فيه، فلابد من محنة تُمَيَّزُ بها صفوفكم وتصفو من ذلك الدنس[2].

وفي تتمة الآية يقول تعالى: ﴿**وما كان الله ليطلعكم على الغيب**﴾ أي: يا معشر المؤمنين ما كان الله ليعرفكم بالمنافقين بأن يطلعكم على غيبه دون محنة يظهر بها لكم هؤلاء، ومن حيث الواقع فقد حدث هذا الأمر في تاريخ الإسلام، فإنه لم تقم دولة إسلامية خالصة إلا وامتحن رجالها الأوائل وتمايزت صفوفهم.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: أي لابد أن يعقد شيئاً من المحنة يظهر فيه وليه ويفضح به عدوه[3].

وفيما سبق تصحيح لمن قد يفهم من بعض المسلمين أن حب الله للمؤمنين يعني أن ينزل لهم النصر على طبق من ذهب بل لابد من التمحيص والآلام لإظهار المتلاعبين بهذا الدين، ولصقل نفوس المؤمنين وشحذها، فلا تقف أمامها قوة، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا.

وبعد هذه الملاحظة أشرع بالحديث عن خصائص السنن الإنسانية.

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٤/ ٢٨٨، ٢٨٩).
(٢) انظر المصدر السابق (٤/ ٢٨٩)، وانظر في ظلال القرآن، سيد قطب (١/ ٥٢٥).
(٣) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٤١).

خصائص السنن الإنسانية :

*** الخصيصة الأولى: ظهورها في حياة الأمم لا الأفراد :**

إن السنة إذا ظهرت في حياة فرد من البشر فهي ليست لازمة ولا مطردة في كل فرد؛ وذلك لأن حياة الفرد قصيرة قياساً إلى حياة الأمم ولهذا نجد أن القرآن تحدث عن نهايتين مختلفتين لصنفين كلاهما طَلَبَ الدنيا وزينتها، فقال تعالى في الصنف الأول: **﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلاّ النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾**[1] .

في هذه الآية يبين سبحانه أن من ابتغ بعمله الدنيا فهو يعطيه منها ما قسم له، ولكن مصيره في الآخرة إلى النار[2] .

واختلف في المراد بهذه الآية فقيل: الكفار[3] . وقيل: المؤمنون[4] . وقيل: المنافقون[5] . وقيل: هي عامة في كل من عمل عملاً يبتغي به دنيا مؤمناً كان أو كافراً أو سواهما[6] .

قال القرطبي: والصحيح العموم[7] ثم قال: ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة، وكذلك قوله تعالى: **﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في**

---

(١) سورة هود، الآيتان: ١٥، ١٦ .
(٢) انظر جامع البيان، الطبري (١٢/ ١١ - ١٤).
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٩/ ١٣، ١٤) وانظر التفسير الكبير، الرازي (١٧/ ١٩٨، ١٩٩).
(٤) وانظر المصدرين السابقين.
(٥) انظر التفسير الكبير، الرازي (١٧/ ١٩٨، ١٩٩).
(٦) انظر المصدر السابق، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٩/ ١٣، ١٤).
(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٩/ ١٣، ١٤).

حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها﴾[1] . ومطلقة كذلك في قوله تعالى : **﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها . .﴾**[2] هذه الآيات مطلقة ، قيّدتها الآية التي في سورة الإسراء وهي قوله تعالى : **﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾**[3] .

فقيدها سبحانه بمشيئته ، أي أن من أراد الدنيا أعطيناه منها ما نشاء ، فقيدت بالمشيئة الربانية هنا . والخلاصة في هذه الآيات أن من أراد الحياة الدنيا ومتاعها أعطاه الله ما شاء من ذلك . هذه نهاية الصنف الأول في هذه الدنيا ، ولننظر الآن إلى نتيجة صنف ثان . قال تعالى في قارون : **﴿فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين﴾**[4] . إذاً نهاية قارون خسف به وبداره ، وهذه نهاية مختلفة تماماً عن نهاية الصنف الأول .

والنتيجة التي نخرج بها أن نهايات الأفراد مختلفة وليس لها شيء محدد مطرد ، أما نهايات الأمم فلها سنة ثابتة ، قال تعالى : **﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾**[5] .

هذه الآية توضح أن كل قرية ـ أي أمة ـ لابد أن مصيرها إلى الهلاك أو العذاب . قال المفسرون : أما المؤمنة فبالموت وأما الكافرة فبالعذاب[6] .

---

(١) سورة الشورى ، الآية : ٢٠ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٥ .
(٣) سورة الإسراء ، الآية : ١٨ .
(٤) سور القصص ، الآية : ٨١ .
(٥) سورة الإسراء ، الآية : ٥٨ .
(٦) انظر تفسير القرآن العظيم ، ابن كثر (٣/ ٥١) ، وانظر التفسير الكبير ، الرازي (٢٠/ ٢٣٣) ، وانظر جامع لبيان ، الطبري (١٥/ ١٠٦) ، وانظر الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي (١٠/ ٢٨٠) .

وقيل المراد بالقرية في الآية قرى الكفار فلابد أن تكون عاقبتها أحد أمرين: إما الاستئصال كلية وهو المراد بالإهلاك، أو العذاب الشديد الذي هو دون الاستئصال من تسليط عدوهم عليهم واستباحة بيضتهم وفرض الجزية وغير ذلك[1]. والظاهر أن العموم مراد؛ لأن «إن» نافية، و«من» لاستغراق الجنس، والمعنى: وما من قرية من القرى ﴿إلا نحن مهلكوها..﴾[2].

وأيا من الوجهين مراد، فالقصد إن كل قرية كافرة ستعذب بشكل من الأشكال، وهذا ما أريد تقعيده من أن نهايات الأفراد مختلفة، أما نهايات الأمم الكافرة فواحدة، سنة مطردة وضعها سبحانه، فليعتبر أولوا الألباب.

يقول صاحب المنار: وما كل فرد يعاقب على ذنوبه في الدنيا، ولكن كل أمة تعاقب على ذنبها في الدنيا. أهـ[3].

ولتأكيد ثبات هذه القاعدة واطرادها في حياة الأمم قال تعالى في آخر الآية: ﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ أي في اللوح المحفوظ[4].

*** الخصيصة الثانية: السنن الإنسانية تعمل مجتمعة لا متفرقة:**

السنن الإنسانية تعمل متكاتفة ولا تعمل متفرقة، فسنة الابتلاء والتمكين والنصر والهزيمة والأخذ بالأسباب وغير ذلك من السنن، كلها تعمل متضافرة، ولتوضيح هذا الأمر نقول: إنه مما لاشك فيه أن المجتمعات

---

(١) انظر التفسير الكبير، الرازي (٢٠/ ٢٣٣).
(٢) انظر روح المعاني، الآلوسي (١٥/ ١٠).
(٣) تفسير المنار، رسيد رضا (١٢/ ٢٤٠) وانظر حول التفسير الإسلامي للتاريخ، محمد قطب ص٩١ وما بعدها.
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٠/ ٢٨٠)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (٢/ ٢٣٣).

الغربية الآن كفرت بأنعم الله كفراً لا يحتاج إلى دليل وسنة الله هي زوال مثل هذه الدول، ولكننا مع ذلك نلاحظ أن هذه الدول مازالت قوية تسيطر على مصائر الشعوب ـ بإذن ربها ـ وتتحكم في سياسات الدول وفيها من القوة ما يكفي لتدمير الأرض، فكيف يتفق هذا الواقع مع ما قُرر بأن الهلاك مصير كل أمة تكفر بالله؟

والجواب يكمن في عنوان هذه الخصيصة التي نحن بصددها، فالسنن الربانية تعمل مجتمعة، فدول الكفر أو معظمها عملت بسنة أخرى من سنن الله وهي التي جعلتها فتية حتى وقتنا الحاضر، وهي سنة الأخذ بأسباب القوة المادية والاستفادة من مكامن الأرض وقدرات الكون وهذه من سنن التمكين أما المسلمون فمتخلفون يعيشون على فتات ومخلفات الحضارات الأخرى.

وهذا لا يعني أن دول الغرب لا تسير نحو الزوال، بل الأمر هو السرعة في السقوط والزوال الذي لابد منه لها إن لم تعد إلى رشدها.

فالاضطراب النفسي والحيرة العقلية والفراغ الروحي والأمراض الجسدية ـ رغم تقدمها في العلم ـ هو دليل على أن عذاب الله حل بهم[1].

وخلاصة المراد إن دعامتي الأمة التي تريد النهوض هما:

١ - الإعداد الروحي وهو الأساس الأول، وهو يقوم على الصدق والإخلاص والتفاني، ثم على الفهم السليم لطبيعة هذا الدين العظيم.

٢ - الإعداد المادي: وهذا أساس آخر ولابد منه ويجب عدم الاستهانة به.

---

(١) للاستزادة انظر تفسير التاريخ علم إسلامي، د. عبد الحليم عويس ٢٦٦ وما بعدها، دار الصحوة، القاهرة، دون تاريخ.

* الخصيصة الثالثة : الثبات :

من خصائص السنن الإنسانية عدم التبدل، فهي ثابتة ومطردة. قال تعالى: ﴿**سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً**﴾[1] .

وقال كذلك: ﴿**فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً**﴾[2] .

وهاتان الآيتان تقرير لثبات السنن الإنسانية، والآية الثانية أشد تأكيداً، فقد خص سبحانه التبدل بنفي مستقل فقال تعالى: ﴿**فلن تجد لسنة الله تبديلاً**﴾ ثم خص التحويل بنفي مستقل فقال تعالى: ﴿**ولن تجد لسنة الله تحويلا**﴾ . وهذا تأكيد منه سبحانه على أن سننه في البشر لا تتبدل ولا تتغير.

وهنا ملاحظة مهمة وهي: إن السنن الإنسانية لا تتخلف ـ كما قلت ـ أما السنن الكونية فمع كونها ثابتة ولكنها قد تتخلف لحكمة أرادها عز وجل؛ وذلك لأن السنن الإنسانية تتعلق بأمر الله ودينه وترتبط بها مصائر الأمم، أما السنن التي يُسير عليها سبحانه المادة فقد ينقضها أحياناً، ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل قد تتخلف سنة كونية لتَطّرِدَ سنة إنسانية[3] . والدليل على ذلك حجب الشمس وحبسها عن سيرها من أجل يوشع عليه السلام[4] وهذا نقض لنظام سير الشمس وفق خلقتها، وهذا النقض والتخلف لإمضاء سنة إنسانية

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٢.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٣.
(٣) انظر السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، د. شريف الخطيب (١/ ٢٨)، مخطوط.
(٤) حديث حبس الشمس، أخرجه أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، باب قول النبي ﷺ: «أحلت لكم الغنائم.» (٤/ ١٠٤)، وفي رواية البخاري لم يذكر اسم «يوشع» عليه السلام، ولكن صرح ابن حجر العسقلاني في فتح الباري بشرح صحيح البخاري أن اسمه يوشع من روايات أخرى (٦/ ٢٢١)، طبع دار المعرفة بيروت، دون تاريخ.

ألا وهي نصر المؤمنين وهو يوشع عليه السلام، ومن ذلك إحياء الموتى على يد عيسى عليه السلام، ونطق الشجر والحجر لمحمد عليه الصلاة والسلام، وغير ذلك كثير وثابت في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

*** الخصيصة الرابعة: الشمول:**

الشمول من خصائص السنن الإنسانية، فهي لا تحابي أمة، فالكل أمامها سواء مادامت الشروط والمسببات تنطبق على أي أمة من الأمم مؤمنة كانت أم كافرة.

قال تعالى: **﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾**[١] .

اختلف المفسرون في المخاطبين بهذه الآية فقيل: المسلمون[٢] . وقيل: مشركو مكة[٣] . وقيل: أهل الكتاب خاصة[٤] . وقيل: هي عامة في كل من أذنب مسلماً كان أم كافراً[٥] .

وأما السوء المذكور فخصه البعض بالشرك. والوجه الصائب في ذلك ما دل عليه الحديث الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت: **﴿من يعمل سوء يجز به﴾** بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسددوا ففي ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها»[٦] .

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٣.
(٢) انظر جامع البيان، الطبري (٥/ ٢٨٨)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (١١/ ٥٢).
(٣) انظر المصدرين السابقين.
(٤) انظر جامع البيان، الطبري (٥/ ٢٨٨).
(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٩٦).
(٦) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة والآداب) (٤/ ١٩٩٣)، طبع دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، دون تاريخ.

هذا الحديث يؤيد من ذهب إلى أن المخاطبين في الآية عامة البشر، والسوء في الآية هو عموم الذنب، وذلك لأن الصحابة رضي الله عنهم فهموا أن الآية تشملهم وإلا لما بلغت منهم مبلغاً شديداً، وأما من قال أن السوء هو الشرك فإن الشرك لا يغفر بألم الشوكة مثلاً.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير**﴾[1].

في هذه الآية يزعم اليهود والنصارى أن لهم فضلاً على غيرهم، فيقول اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه، وكذلك يدعي النصارى، وقد أبطل سبحانه زعمهم بقوله: ﴿**قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق**﴾. فأنتم ممن خلقت من البشر، ومن أحسن أحسنت إليه ومن أساء عاقبته أو عفوت عنه وليس لكم مزية على غيركم[2].

ورجح الرازي أن المراد بالعذاب ـ في الآية ـ عذاب الدنيا كالمسخ الذي أصابهم مثلاً[3].

وجملة القول أن البشر أمام سنة الله سبحانه سواء لا محاباة لأحد ولا مداراة ومدار الأمر على العمل.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٨.
(٢) انظر جاع البان، الطبري (٦/ ١٦٤).
(٣) انظر التفسير الكبير، الرازي (١١/ ١٩٢، ١٩٣).

* الخصيصة الخامسة : الحكمة والعدل :

الحكمة والعدل صفتان من صفات الله عز وجل فلا يصدر عنه سبحانه إلاّ ما فيه العدل المطلق والحكمة المطلقة، فهو علام الغيوب يعلم ما يصلح، وما لا يصلح ولأن هذه السنن هي طريقته في تسيير شؤون خلقه، فلا شك أنها حكيمة وعادلة في حق من تسير عليهم.

أما الحكمة لغة: فأصلها مَنْعٌ يقصد به الإصلاح[(١)] . وأحْكَمَهُ أتقنه ومنعه عن الفساد[(٢)] . والحكمة من الله سبحانه: معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام والإتقان[(٣)] . وقد وردت الحكمة بالمعنى الاصطلاحي في عدة مواضع من القرآن الكريم قال تعالى: ﴿**فاعلموا أن الله عزيز حكيم**﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿. . . **وكان الله واسعاً حكيماً**﴾[(٥)]، والآيات في ذلك كثيرة.

وأما بالنسبة للعدل فهو لغة: المثل من الجنس، أو غير الجنس[(٦)].

والعدل ضد الجور، وهو المساواة في المكافأة إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ولذلك فاق الإحسان العدلَ؛ لأن الإحسان أن يقابل الخير بأكثر منه. وكان الشر مذموماً لأنه مقابلة الخير بأقل منه[(٧)].

والآيات في العدل كثيرة منها قوله تعالى: ﴿**ولا يظلم ربك أحداً**﴾[(٨)]، والظلم عكس العدل، وقال تعالى: ﴿**وما ربك بظلام للعبيد**﴾[(٩)] .

---

(١) أنظر القاموس المحيط، الفيروز آبادي (١٤١٥)، وانظر بصائر ذوي التمييز، له (٢/ ٤٩١).
(٢) انظر المصدرين السابقين.
(٣) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٢/ ٤٩٠).
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٠٩.
(٥) سورة النساء، الآية: ١٣٠.
(٦) انظر بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٤/ ٢٨، ٢٩).
(٧) انظر المصدر السابق.
(٨) سورة الكهف، الآية: ٤٩.
(٩) سورة فصلت، الآية: ٤٦.
وللاستزادة انظر السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، د. شريف الخطيب (١/ ٢٥ - ٣٦).

المبحث الثاني:

سنة العقاب: مفهومها، وأدلتها

تحدثت في المبحث السابق عن السنن الإلهية بتمهيد بينتُ فيه مفهومها ثم ركزتُ البحث في السنن الإنسانية عامة، وبينت خصائصها، وفي هذا المبحث أبيّن ـ بحول الله ـ مفهوم سنة العقاب التي هي إحدى السنن الإنسانية وهي صلب موضوع البحث، وهذا المبحث بمثابة مقدمة أو تمهيد للفصول القادمة.

سبق في التمهيد بيان معنى العقاب، وأن المقصود به مجازاة المسيء على إساءته بعذاب منه سبحانه وتعالى.

والعقاب في القرآن الكريم للأمم الجاحدة أو العاصية على نوعين:

الأول: عقاب الاستئصال: وهو ذهاب أمة برمتها بحيث يهلك أفرادها بعذاب ما ولا يبقى منهم أحد. كما حدث لقوم عاد وثمود وغيرهم، ولكن يبقى من هؤلاء الصالحون كما فعل سبحانه بلوط وبناته ونوح والذين آمنوا معه.

الثاني: عقاب دون الاستئصال: وهو العقاب الذي لا يؤدي إلى زوال الأمة كما حدث للعرب فإن اللّه لم يبدْهم جميعاً رغم وجود المشركين بينهم، وكذلك اليهود والنصارى فهؤلاء مازالوا حتى يومنا هذا.

ويجدر التنبيه إلى أنه قد يجتمع اعقابان في أمة واحدة بحيث يصيبها

أولاً عقاب دون الاستئصال ثم فستأصل. وقد جاء في القرآن الكريم ذكر لكلا النوعين.

أما عقاب الاستئصال فينزل بأولئك الذين لم تعد تنفع معهم الذكرى ولم يعتبروا بالعذاب. والأدلة على سنة العقاب كثيرة، تحدثت عن الأقوام السابقين وكيف كانت عاقبتهم. وقد أوردت بعض الأدلة سابقاً، وأورد بعضاً آخر هنا زيادة في البيان. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**وإن من قرية إلاّ نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أومعذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً**﴾[١].

وقد تقدم الحديث عن هذه الآية من قبل[٢] والذي يجدر ذكره من دلالتها هنا أمران:

الأول: إن الآية دليل على سنة العقاب.

الثاني: إنها دليل على التقسيم الذي ذكرته لسنة العقاب حيث قال تعالى: ﴿**مهلكوها**﴾ أي بعذاب الاستئصال، ثم قال: ﴿**أو معذبوها**﴾ وهذا هو العقاب دون الاستئصال[٣]. والنوع الثاني قد يكون بالأمراض أو بتسليط أمة على أمة وغير ذلك.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلاّ أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلاً**﴾[٤].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٨.
(٢) انظر ص ٢١ من هذا البحث ومابعدها.
(٣) انظر التفسير الكبير، الرازي (٢٠/ ٢٣٣)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٥١)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٠/ ٢٨٠).
(٤) سورة الكهف، الآية: ٥٥.

والمعنى: وما منع الناس من الإيمان بما جاءهم من الحق إلاّ مجيئهم سنتنا في أمثالهم من المكذبين لرسلنا أو يأتيهم العذاب عياناً[1]. وسنة الأولين العقاب.

وفسر الشوكاني السنة في الآية بعقاب الاستئصال[2]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**فهل ينظرون إلاّ سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلا**﴾[3].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: سنة الله في الأولين هنا العقوبة التي أنزلها سبحانه عليهم لتكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره. أهـ[4]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها**﴾[5]. وموضع الشاهد في هذه الآية قوله تعالى: ﴿**دمر الله عليهم**﴾ أي: أهلك أملاكهم من الأموال والبيوت وغيرها[6].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، وقد اقتصرت على ما أوردت منها خوف الإطالة.

---

(١) انظر جامع البيان، الطبري (١٥/ ٢٦٦).

(٢) انظر فتح القدير الجامع بين فن الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني (٣/ ٢٩٥)، طباعة دار افكر، بيروت، سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

(٤) تفسير اقرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٥٦٩).

(٥) سورة محمد، الآية: ١٠.

(٦) انظر التفسير الكبير، الرازي (٢٨/ ٥٠).

المبحث الثالث:

ضوابط سنة العقاب

تحدثت في المبحث السابق عن مفهوم سنة العقاب وأدلتها، ولكن - كما قلت - إن سنة العقاب فعل من أفعاله عز وجل، وكل أفعاله تتصف بالحكمة والعدل.

لذلك يلاحظ المستقرئ لعقوبات الأمم في القرآن الكريم أن هناك ضوابط للعقاب الرباني، هذه الضوابط هي التي تبين حكمة الله وعدله في عقابه للأمم وهذه الضوابط هي:

أولاً: العقاب بعد قيام الحجة:

إن الله سبحانه لا يعذب أمة حتى يأتيها نذير يعرض عليها شرع الله ويقيم عليها حجته، وبيان ذلك في قوله تعالى: ﴿**ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى**﴾[1]، يبين الله سبحانه في هذه الآية حجة المكذبين لو أنه أهلكهم دون رسول فيقول: ولو أنا أهلكناهم بعذاب قبل مجيء الرسول أو قبل إظهار الحجة من قبل الرسول لقالوا يوم القيامة: ربنا هلا أرسلت لنا رسولاً يظهر لنا الآيات فنؤمن بك[2].

---

(١) سورة طه، الآية: ١٣٤.

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١١/ ٢٦٤)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (٢٢/ ١٣٧، ١٣٨).

وفي تعيين المخاطبين في هذه الآية قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ: إنهم المشركون الذين يكذبون بآيات القرآن بحيث إنهم لو عذبوا دون نزول هذا القرآن لقالوا يوم القيامة ربنا هلا أنزلت إلينا حجة. أهـ[1]. وعلى كل حال فالمقصود أن الله سبحانه لا يعذب بالذنوب حتى يقيم حجته على عباده.

ومن قوله تعالى: ﴿**يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين . ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون**﴾[2] .

هاتان آياتان: الأولى منهما تبين أن الله سبحانه سيسأل الكفار من أصحاب جهنم يوم القيامة: ألم يأتكم رسل منكم أيها الجن والإنس يبينون لكم طريق الحق من الضلال ويحذرونكم من يوم القيامة؟ فيشهدون بصحة ذلك وبأنه قد قامت عليهم الحجة[3] .

وفي الآية الثانية يبين سبحانه سنته في إبلاغ البشر وإقامة الحجة عليهم فيقول: إن ربك هو صاحب العدل المطلق فحاشى أن يعذب أحداً ظلماً لم تبلغه الحجة عن طريق الرسل[4] .

وفي الظلم المذكور في الآية وجهان:

الأول: الظلم الذي أقاموا على فعله.

---

(١) انظر جامع البيان، الطبري (١٦/ ٢٣٨).
(٢) سورة الأنعام، الآيتان: ١٣٠، ١٣١.
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧/ ٨٦)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (١٣/ ١٩٤).
(٤) انظر التفسير الكبير، الرازي (١٣/ ١٩٧).

الثاني: هو ظلم من الله تعالى. ويكون التقدير هنا إن ربك لا يهلك القرى ظلماً، وفي قوله تعالى: ﴿**غافلون**﴾ أي لا يعلمون الحق من الباطل وذلك ببيان الحجج لهم[1].

ثانيا: العذاب لا يقع قبل الإمهال:

ومن ضوابط سنة العقاب أنه لا يقع حتى تعطى الأمة مهلة لتكون الحجة قائمة عليها بأبلغ وجه. قال تعالى: ﴿**ولقد أرسلنا إلى أمم قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون. فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون. فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين**﴾[2].

هذه الآيات تبن المنهج الرباني في الإمهال. فإن الله سبحانه يبين لهم وبطرق مختلفة براهينه ودلائل وجوده سبحانه، وأنه هو الإله الواحد الذي لا يعبد غيره، والمتمعن في الآيات يجد أن الله عز وجل عذبهم عذاباً لا يؤدي إلى زوالهم بالكلية، وذلك حتى يتنبهوا وتتفتح بصيرتهم على عظمة قدرة الله فيطلبوا منه الرحمة ﴿**لعلهم يتضرعون**﴾ فإذا لم يُجْد هذا الطريق معهم مدّ لهم سبحانه من رزقه حتى تبسط لهم الدنيا، فإن تابوا واعترفوا بفضله فبها، وإلاّ فإنهم يفرحون بما رزقهم الله ويظنون أن هذا علامة رضاء الله عليهم، وأن هذا الملك لا يزول، فإذا اطمأنوا إلى ذلك أخذهم بغتة فإذا هم بائسون متحيرون[3].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) سور الأنعام، الآيات: ٤٢ - ٤٥.

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٤٢٤، ٦٢٦)، وانظر في ظلال القرآن، سيد قطب (٢/ ١٠٨٨، ١٠٨٩).

و﴿**البأساء**﴾: المصائب في الأموال، والضراء: المصائب في الأبدان. قال القرطبي: هذا قول الأكثر[1].

ثالثا: العذاب لا يقع إلا بسبب الظلم:

من ضوابط سنة العقاب أن الله سبحانه لا يعذب بالاستئصال حتى ينتشر ظلم العباد للعباد فتضيع الحقوق ويتفشى الفساد. قال تعالى: ﴿**وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون**﴾[2].

هذه الآية قاعدة عظيمة في بيان أسباب العقاب. ففي تفسير الظلم في الآية وجهان:

الأول: الظلم، الشرك[3]. وعلى هذا الوجه كون التأويل: وما كان ربك ليهلك القرى بسبب شركهم إن كانوا مصلحين. قال الرازي: وهذا تفسير أهل السنة[4].

والمراد بقوله تعالى: ﴿**مصلحون**﴾ هو حفظ حقوق العباد فيما بين أنفسهم وهذا يبين أهمية حفظ حقوق العباد في قيام الأمم، وعلى تفسير الرازي وغيره قد تكون دول الغرب ومجتمعاتها تحتفظ بهذه القوة لما تحفظ من حقوق العباد في مجتمعاتها وهذا الأمر متواتر عن محاكمهم وما تعقده من أقضية.

قال القرطبي - رحمه الله -: دل هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب

---

(١) المصدرين السابقين.
(٢) سورة هود، الآية: ١١٧.
(٣) انظر جامع البيان، الطبري (١٢/ ١٤٠)، وانظر اتفسير الكبير، الرازي (١٨/ ٧٦)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٩/ ١١٤).
(٤) انظر التفسير الكبير، الرازي (١٨/ ٧٦).

الاستئصال في الدنيا من الشرك وإن كان عذاب الشرك في الآخرة أصعب. أهـ[1].

وقال الرازي: والمعنى أنه تعالى لا يهلك القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم. أهـ. والحاصل أن عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر، بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا أساؤوا في المعاملات وسعوا في الإيذاء والظلم. ولهذا قال الفقهاء: إن حقوق الله مبناها على المسامحة والمساهلة. وحقوق العباد مبناها على الضيق والشح. أهـ[2].

الوجه الثاني: الظلم في الآية عموم المعاصي[3]، وليس الشرك فقط كما في الوجه الأول.

رابعا: إذا حل العذاب ارتفعت التوبة:

ومن ضوابط سنة عقاب الاستئصال أنه إذا نزل العقاب فلا ينفع نفساً إيمانُها حينئذ. قال تعالى: ﴿**ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين . قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون**﴾[4].

وموضع الشاهد من الآية ينبني على تحديد المقصود من كلمة «الفتح» وللعلماء فيها وجوه:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٩/ ١١٤).
(٢) التفسير الكبير، الرازي (١٨/ ٧٦).
(٣) انظر المصدر السابق، وجامع البيان، الطبري (١٢/ ١٤٠).
(٤) سورة السجدة، الآيتان، ٢٨، ٢٩.

ـ قال الطبري: الفتح هنا الهلاك والعذاب[1] .

ـ وفسره ابن كثير بسخط الله وغضبه عليهم بزوال دولتهم[2] .

ـ وعلى هذه الأقوال فإن الفتح هنا عذاب في الدنيا، وعلى هذا يكون تفسير الآية: إن هؤلاء الكفار يقولون متى يوم العذاب الذي تعدوننا به؟ فيأمر سبحانه رسوله بأن يقول: قل إذا جاء يوم العقاب لا تنتفعون من الإيمان.

أما القرطبي فرجح أن الفتح هو العذاب يوم القيامة[3] .

وأورد صاحب أضواء البيان وجوهاً عدة في الآية ثم رجح بينها فقال: إن الفتح هنا هو الحكم بينهم في الدنيا بهلاك الكفار، وانتصر لهذا القول بقوله تعالى: **﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون﴾**[4] .

وكذلك بقوله تعالى: **﴿قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾**[5] .

وما رجحه صاحب أضواء البيان أولى بالقبول، فإن الآيات الأخرى تعضده.

---

(١) انظر جامع البيان، الطبري (٢١/ ١١٦).
(٢) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٤٧٣).
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٤/ ١١١).
(٤) سورة غافر، الآية: ٨٤.
(٥) سورة يونس، الآية: ٩١، انظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (٦/ ٥٠٧ ـ ٥٠٩)، طبع عالم الكتب، بيروت، دون تاريخ.

وجملة القول: إن لسنة العقاب ضوابط أربعة: أولها: إن العقاب لا يقع إلاّ بعد قيام حجة الله على خلقه بإرسال الرسل، ثانيها: إن الله يمهل المعاقبين ويقلب لهم البراهين عسى أن يتوبوا. ثالثها: إن العقاب لا يقع إلاّ بسبب الذنوب، وظلم العباد للعباد من أهم أسباب العقاب الرباني، رابعها: إذا جاء أمر الله بالعقاب واستئصال أمة فلن ينفعها إيمانها إن آمنت.

** ** **

الفصل الثاني

أشكال العقاب في القرآن الكريم

في هذا الفصل سأتحدث بحول الله عن أنواع العقاب الرباني الوارد في القرآن الكريم، ومن المعلوم أن العقاب له أشكال وأنواع أنزلها الله عز وجل على خلقه المعاندين. وقد حوى القرآن آيات كثيرة في أنواع العقاب، وقد قسمتها إلى أنواع ثلاثة جعلت كل نوع في مبحث.

المبحث الأول: في الآيات التي ذكرت العقاب عامة.

المبحث الثاني: في الآيات التي ذكرت العقاب المعنوي.

المبحث الثالث: في الآيات التي ذكرت العقاب الحسي.

المبحث الأول :

العقـاب بلفـظ عـام

في هذا المبحث أستعرض الآيات التي ذكرت العقاب بلفظ عام دون تحديد نوع العذاب، فالإهلاك؛ مثلاً لفظ عام تندرج تحته أنواع من العذاب، فقد يكون الإهلاك الخسف أو الريح أو الأمراض، وقديكون إهلاكاً معنوياً بالختم عل القلوب وحجبها عن الإيمان. ومثل هذه الألفاظ العامة وردت في عدة مواضع من القرآن الكريم. فأقول مستعيناً بالله وحده:

الأول : العذاب :

ورد هذا اللفظ في كثير من آيات القرآن الحكيم، ومن هذه المواضع قوله تعالى: ﴿**فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين**﴾[1] .

العذاب لغة: الإيجاع الشديد[2]. وقال آخر: العذاب: العقاب والنكال وكل ما يشق على النفس[3] .

واختلف في أصل اشتقاقه: فقيل من العاذب وهو الذي لا يأكل ولا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٦.
(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٤/ ٣٥).
(٣) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم ص٣٣٤، طبع دار الفكر العربي، القاهرة، دون تاريخ.

يشرب. فالتعذيب ـ من هذا الأصل ـ حمل الإنسان على الجوع والعطش والسهر.

وقيل: أصله من العذْب، عذبته إذا أزلت عذب حياته بالتنكيد والأمراض وغيره. وقيل: أصله من إكثار الضرب بعذبة السوط أي طرفها. فالتعذيب هنا الضرب. وقيل: من ماء عَذِب إذا كان فيه قذىً وكدر[1].

وفي تفسير العذاب في الآية قال العلماء:

العذاب في الدنيا القتل والسبي والذلة وأخذ الجزية[2].

وقال الرازي: العذاب الدنيوي المذكور في الآية على نوعين:

الأول: القتل والسبي. والثاني: الأمراض والعاهات[3].

وذكر الإمام الرازي بحثاً في النوع الثاني من العذاب وهو الأمراض بالعاهات: هل هذا النوع من العذاب من قبيل العقاب للكفار، أم من قبيل الابتلاء؟

وأورد أن للعلماء قولين في هذا: منهم من يقول بأنها من قبيل الابتلاء للكفار، ومنهم من يقول هي من قبيل العقاب.

ويستدل القائلون بأن هذا من قبيل الابتلاء بقوله تعالى: ﴿**ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة**﴾[4].

---

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٤/ ٣٥) بتصرف.

(٢) تفسير الخازن المسمى (لباب التأويل في معاني التنزيل) علي بن محمد البغدادي المعروف بالخازن (١/ ٢٤١)، وانظر جامع البيان، الطبري (٣/ ٢٠٦).

(٣) انظر التفسير الكبير، الرازي (٨/ ٧٢)، وانظر تفسير المنار، رشيد رضا (٣/ ٣١٨).

(٤) سورة النحل، الآية: ٦١.

وكذلك بقوله تعالى: ﴿**اليوم تجزى كل نفس بما كسبت**﴾[1]. فهاتان الآيتان تبينان أن العقاب في الآخرة لا في الدنيا، والإمام الرازي لا يؤيد القائلين بهذا ويستدل بأن مثل هذه الآيات عامة، والآيات التي ذكرت العقاب في الدنيا خاصة، والخاص مقدم على العام[2].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون**﴾[3].

للعلماء في المخاطبين بهذا الوعيد أقوال:

الأول: إنهم مشركو مكة، وهذا القول يساعده السياق، ففي الآية التي قبل هذا يقول عز من قائل: ﴿**قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون**﴾. وقال سبحانه بعدها: ﴿**وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل**﴾، وهذا القول مروي عن الحسن[4].

الثاني: المخاطبون هم المسلمون، واستدل من قال بهذا بالأحاديث الواردة عنه عليه الصلاة والسلام والتي منها ما أخرجه الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿**قل هو القادر**﴾ . . . الآية قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك ﴿**أو من تحت أرجلكم**﴾ قال: أعوذ بوجهك. ﴿**أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض**﴾ قال رسول الله ﷺ: «هذه أهون ـ أو ـ أيسر، ولم يلبسوا إيمانهم بظلم»[5].

---

(١) سورة غافر، الآية: ١٧.
(٢) انظر التفسير الكبير، الرازي (٨/ ٧٢).
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٦٥.
(٤) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ١٤٤).
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله، كتاب التفسير، سورة الأنعام، (٦/ ٧١).

وهذا الحديث دليل القائلين بأن المخاطبين هم المسلمون. وهذا القول مروي عن الحسن أيضاً[1].

الثالث: الخطاب عام[2].

أما الوجه الأول وهو أن المخاطبين هم الكفار، فسياق الآيات يؤيده، وبهذا قال غير واحد[3].

وأما القول الثاني وهو أنهم المسلمون، فهذا ضعيف لأن السياق ليس فيه خطاب للمسلمين، وأما الحديث الذي أورده البخاري فلا أرى أنه يخصص الآية بالمسلمين.

والأقرب هو الثالث، وهو كونه عاماً، وذلك جمعاً للأدلة، فسياق الآيات يدل على أن الخطاب للمشركين المعاصرين لرسول الله عليه الصلاة والسلام، والحديث يدل على أن النبي ﷺ فهم أن ما خوطب به المشركين ممكن الحصول للمسلمين كذلك. والواقع يؤيد ذلك، أما بالنسبة للكفار ففي قصص الأولين كفاية، وبالنسبة للمسلمين فتشيعهم وتفرقهم منذ مئات السنين فيه من الأدلة ما يؤيد عموم الآية. والله تعالى أعلم. أما العقوبات الواردة في هذه الآية فهي ثلاث: الأولى: العذاب. وقد ذكرت معناه، ولكنه في الآية محدد بقوله: ﴿**عذاباً من فوقكم**﴾ وفيه قولان:

١- ما كان من العلو كالرجم والصيحة وغيره[4].

---

(١) انظر الجامع لأحكام اقرآن، القرطبي (٧/ ٩).

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) انظر جامع البيان، الطبري (٧/ ٢١٩)، وانظر روح المعاني، الآلوسي (٧/ ١٨٠).

(٤) انظر جامع البيان، الطبري (٧/ ٢١٩، ٢٢٠)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧/ ٩، ١٠)، وانظر تفسير المنار، رشيد رضا (٧/ ٤٩٠ - ٤٩٦)، وانظر روح المعاني، الآلوسي (٧/ ١٨٠).

٢- أئمة السوء[١] .

وأولى القولين الأول وهو الرجم، أو الطوفان، أو ما أشبهه من العذاب الذي يأتي من فوق[٢] .

وحدد العذاب في الموضع الذي بعده بقوله تعالى: ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ وفيه قولان:

١- الخسف: وهذا منقول عن مجاهد وسعيد بن جبير والسدي وغيرهم وهو اختيار الطبري ـ رحمه الله ـ[٣] .

٢- خدم السوء. وهذا مروي عن ابن عباس وابن أبي حاتم وغيرهم[٤] .

- العقوبة الثانية: قوله تعالى: ﴿يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ . ألبس أي خلط، والمراد بذلك: يخلطكم أهواء مختلفة، وأحزاباً متفرقة[٥] . قال الفيروز آبادي: لبست عليك الأمر ألبسه ـ كضربته أضربه ـ أي خلطته قال ابن عرفة: لا تلبسوا الحق بالباطل[٦]، أي لا تخلطوه به. وقوله تعالى: ﴿أو يلبسكم شيعاً﴾ أي: يخلط أمركم خلط اضطراب لا خلط اتفاق. أهـ[٧] . والشيع جمع شيعة وهم كل قوم اجتمعوا على أمر[٨] .

---

(١) انظر جامع البيان، الطبري (٧/ ٢١٩، ٢٢٠) وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ١٤٤ - ١٤٨).
(٢) انظر جامع البيان، الطبري (٧/ ٢١٩، ٢٢٠) وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧/ ٩، ١٠)، انظر تفسير المنار، رشيد رضا (٧/ ٤٩٠ - ٤٩٦)، وانظرروح المعاني، الآلوسي (٧/ ١٨٠).
(٣) انظر المصادر السابقة.
(٤) انظر المصادر السابقة.
(٥) انظر جامع البيان، الطبري (٧/ ٢٢١)، وانظر روح المعاني، الآلوسي (٧/ ١٨٠).
(٦) سورة البقرة، الآية: ٤٢.
(٧) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٤/ ٤١٨).
(٨) روح المعاني، الآلوسي (٧/ ١٨٠).

وأما قوله تعالى: ﴿ونذيق بعضكم بأس بعض﴾ فعن ابن عباس قال: بالقتل والفتن[1].

وقبل أن أختم الحديث عن هذه الآية أود التذكير بأن هذه الآية، وإن أيدت القائلين بأنها عامة فإن عذاب الاستئصال منتف عن هذه الأمة لما ثبت من حديث رسول الله ﷺ. فقد أخرج مسلم في صحيحه عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهكلها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من أقطارها ـ أو قال: من بين أقطارها ـ حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً»[2].

من هذا الحديث نعلم أن الأمة المسلمة لن تهلك بالاستئصال.

الثاني: الإهلاك:

قال تعالى: ﴿**ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين**﴾[3].

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ١٤٤ - ١٤٨).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، (٤/ ٢٢١٥)، طبع دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، دون تاريخ.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٦.

في هذه الآية جاء لفظ الإهلاك. ومعناه لغة الموت[1] .

والهلاك يكون على أوجه:

الأول: فقدان الشيء وهو موجود عند غيرك. ومنه قوله تعالى: ﴿**هلك عني سلطانيه**﴾[2] .

الثاني: الإفساد، ومنه قوله تعالى: ﴿**ويهلك الحرث والنسل**﴾[3] .

الثالث: الموت. وهذا مطابق للمعنى اللغوي، ومنه قوله تعالى: ﴿**إن امرؤ هلك ليس له ولد**﴾[4] .

الرابع: إعدام الشيء نهائياً، وهذا هو الفناء. ومنه قوله تعالى: ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه**﴾[5] .

ويطلق الهلاك على العذاب والخوف والفقر، ومنه قوله تعالى: ﴿**وكم أهلكنا قبلهم من قرن**﴾[6] إذاً فالإهلاك لفظ عام يطلق على جميع ما سبق ذكره[7] والإهلاك يحتمل جميع أنواع العقاب وهو على ضربين[8] :

الأول: الاستئصال التام الكوارث والجوائح، كما حدث لقوم لوط

(١) لسان العرب، ابن منظور (١٠/٥٠٣).
(٢) سورة الحاقة، الآية: ٢٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠٥.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٧٦.
(٥) سورة القصص، الآية: ٨٨.
(٦) سورة مريم، الآية: ٧٤.
(٧) انظر بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٥/٣٣٨، ٣٣٩).
(٨) انظر تفسير المنار، رشيد رضا (٧/٣٠٧).

وفرعون وغيرهم. والمراد بالكوارث والجوائح هنا النوازل كالزلازل والصواعق والخسف وغيرها.

الثاني: زوال سلطان أمة بهيمنة أمة أخرى عيها، وذلك بذهاب دولة الأولى وزوال ملكها، كما حدث لمشركي مكة، فقد دالت دولتهم بعد أن كانوا أسياد الجزيرة العربية، فقاتلهم المسلمون حتى ذهبت دولتهم، وكذا حصل لليهود في المدينة لما قاتلهم رسول الله ﷺ وطردهم شر طردة، وهذا ما حدث لدولة الفرس والروم على أيدي المسلمين، وهذا النوع من العقاب وهو تسليط أمة على أخرى ذكر في قوله تعالى: ﴿**فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون**﴾[1]، و هذا وعيد للمشركين بأنه سيأتي عقاب ما فعلوه من استهزاء برسالته عز وجل وجحودها. وهذا ما حدث لهم يوم فتح مكة[2].

ومن ذلك قوله تعالى ﴿**وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون**﴾[3] والبيات من المبيت وهو وقت الليل. و﴿**قائلون**﴾ من القيلولة وهي الاستراحة وسط النهار[4].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون**﴾[5].

في هذه الآية يبين سبحانه أن الفساد الذي ظهر في البر والبحر هو بسبب

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥.
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٣٩١)، وانظر التفسير لكبير، الرازي (١٢/ ١٥٨).
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٤.
(٤) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٢٠٩، ٢٤٤، ٢٣٥).
(٥) سورة الروم، الآية: ٤١.

ما اقترفته أيدي الناس من المحرمات التي نهى الله عنها[1] .

وفي الآية مسائل :

الأولى : ذكر العلماء في معني الفساد قسمين رئيسين ، ثم فصلوا ذلك .

والقسمان الرئيسان في معنى الفساد هما :

١ - الفساد هنا هوجزاء المعاصي ، من قلة البركة والقحط وغيره ، وعلى هذا يكون معنى ﴿ليذيقهم﴾ أي ليجزيهم جزاء ما اقترفوه ، فقطع عليهم أسباب الدنيا .

٢ - الفساد هو المعاصي نفسها من القتل وتطفيف الكيل وأكل أموال الناس بالباطل وما أشبه ذلك .

قال الزمخشري : وعلى هذا تكون اللام في قوله تعالى ﴿ليذيقهم﴾ مجاز على معنى أن ظهور الشرور بسبب مما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم إرادة الرجوع . فكأنهم إنما أفسدوا وتسببوا لفشو المعاصي في الأرض لأجل ذلك . أهـ[2] .

وأما العقوبات التفيصيلة في أقوال العلماء فيمكن إجمالها فيما يأتي :

ـ قيل تعاطي وارتكاب المحرمات والذنوب عامة[3] .

---

(١) انظر جامع البيان، الطبري (٢١/ ٤٩).
(٢) الكشافق، الزمخشري (٣/ ٢٢٤).
(٣) انظر جامع البيان، الطبري (٢١/ ٤٩)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٤/ ٤٠).

- وقيل الشرك. وهذا مروي عن السدي[1].

- وقيل القتل والنهب حيث بدأ القتل بقتل قابيل أخاه هابيل، هذا في البر، وفي البحر يأخذ السفن غصباً، وهذا مروي عن مجاهد[2].

قال القرطبي رحمه الله: وكلها أقوال متقاربة تدور حول فعل المعاصي[3].

وأما من اعتبر الفساد هو العقوبة نفسها فلهم أقوال أيضاً هي:

- قيل انقطاع المطر الذي يعقبه القحط.

- وقيل ذهاب البركة. وهذا مروي عن ابن عباس. قال النحاس: وهو أحسن ما قيل في الآية.

وما قاله ابن عباس رضي الله عنه هو الذي أميل إليه؛ لأن ذهاب البركة عام يشمل القلة في الخير كله، والضيق في العيش، وضعف الأمل، وما إلى ذلك.

وأما المراد بالبر والبحر ففيه وجوه:

- قيل البر: هو الفيافي والقفار، والبحر: هو المدن والقرى والأمصار[4].

- وقيل البر: هو القرى التي على ضفاف الأنهار والبحر: هو الأمصار، وهذا مروي عن ابن عباس، وذلك أن العرب تسمي الأمصار بحاراً[5].

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٤/ ٤٠).
(٢) انظر المصدر السابق، وانظر جامع البيان، الطبري (٢١/ ٩).
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٤/ ٤٠).
(٤) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٤٤٤، ٤٤٥).
(٥) انظر المصدر السابقة، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٤/ ٤١).

ـ وقيل: البر والبحر المعروفان[1] .

قال الإمام ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن الله تعالى ذكره أخبر أن الفساد قد ظهر في البر والبحر، والبر عند العرب في الأرض القفار والبحر بحران: بحر مالح، وبحر عذب، فهما جميعاً عندهم بحر، ولم يخصص جل ثناؤه الخبر عن ظهور ذلك في بحر دون بحر، فذلك على ما وقع عليه اسم بحر، عذباً كان أو ملحاً. وإذ كان ذلك كذلك دخل القرى التي على الأنهار والبحار. أهـ[2] .

الثالث: الحيق:

قال تعالى: ﴿**ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون**﴾[3] .

الحيق: ما حاق بالإنسان من مكر أو سوء عمل يعمله فينزل ذلك به، تقول أحاق الله بهم مكرهم، وأصله من حاق بالشيء إذا أحاط به.

وقال الزجاج: ﴿**وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون**﴾[4] أي: أحاط بهم العذاب الذي هو جزاء ما كانوا يستهزءون[5] .

وقال الرازي: الحيق أن يرتد المكر على صاحبه[6] .

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٤/ ٤١).
(٢) جامع البيان، الطبري (٢١/ ٥٠).
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠.
(٤) سورة هود، الآية: ٨.
(٥) انظر لسان العرب، ابن منظور (١٠/ ٧١)، وانظر معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد بن إسماعيل إبراهيم ص١٤٣.
(٦) التفسير الكبير، الرازي (١٢/ ١١٣).

يقول صاحب المنار: إن عقوبة المستهزئين من الأمم السابقة كان الإهلاك بالاستئصال للجميع، ولكن الله رحم أهل مكة فأخذ المستهزئين منهم فقط، وهم الذين قتلوا يوم أحد وعددهم قليل لا يتجاوزون العشرة، وفي هذا قال تعالى: ﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾[1] وقتل هؤلاء يوم أحد دفع عقوبة الاستئصال عن البقية من أهل مكة[2].

الرابع: أخذ القرى:

قال تعالى: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾[3].
أي وكما أخذ هذه القرى التي كانت كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم يأخذ جميع القرى الظالمة[4].

والأخذ: حوز الشيء وتحصيله وهو على ضربين:

الأول: بالتناول نحو قوله تعالى: ﴿معاذ الله أن نأخذ إلا من قد وجدنا متاعنا عنده﴾[5].

الثاني: بالقهر والآية هنا من هذا النوع، وكذلك آيات أخرى في القرآن مثل: ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾[6]. والأخذ في هذا الموضع بمعنى العذاب والعقوبة[7].

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٩٥.
(٢) تفسير المنار، رشيد رضا (٧/ ٣٢٠، ٣٢١).
(٣) سورة هود، آية: ١٠٢.
(٤) انظر اجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٩/ ٩٥، ٩٦)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٤٧٥)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (١٨/ ٥٧، ٥٨).
(٥) سورة يوسف، الآية: ٧٩.
(٦) سورة هود، الآية: ٦٧. وانظر بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٢/ ٥٧).
(٧) المصدر السابق (٢/ ١٠٤).

الخامس : القارعة :

قال تعالى : ﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أوتحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد﴾[١] .

جاء اللفظ في هذه الآية ﴿قارعة﴾ وهي من القرع، وهو لغة الضرب، ومنه قرع الباب[٢] .

والقارعة : المصيبة والداهية من شدائد الدهر التي تقرع الناس بأهوالها .

وقد سمى القرآن يوم القيامة بها لما فيه من شدائد وأهوال[٣] .

وقد فسر العلماء القارعة في هذا الموضع بالقتل والأسر أو الجدب والنوازل كالصواعق والأمطار والحجارة. وعن ابن عباس وعكرمة : القارعة، الطلائع والسرايا التي كان ينفذها رسول الله ﷺ[٤] .

ومن تعدد الأقوال في القارعة، وكذا من المعنى الاصطلاحي واللغوي لها، تبين أن القارعة لفظ عام يشمل كل عقاب ينزل بأمة .

وأما قوله تعالى : ﴿ولا يزال الذين كفروا﴾ فلم أجد فيما رجعت أحداً أوّلها بغير مشركي مكة .

---

(١) سورة الرعد، الآية : ٣١.
(٢) انظر القاموس المحيط، الفيروز آبادي ٩٦٨، وانظر بصائر ذوي التمييز له (٤/ ٢٥٨)، وانظر معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم ص٤٢٢، ٤٢٣، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٩/ ٣٢١).
(٣) انظر المصادر السابقة.
(٤) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٥٣٤، ٥٣٥)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٩/ ٣٢١).

وفي عود الضمير في قوله تعالى: ﴿أو تحل قريباً من دارهم﴾ قولان للمفسرين:

الأول: أنه يعود على القارعة والمعنى تنزل القارعة بساحتهم أو حولهم.

الثاني: أنه يعود إلى الرسول عليه الصلاة والسلام. والمعنى أو تحل أنت يا محمد في مكان قريب منهم، كما فعل عندما هاجر إلي يثرب ـ المدينة ـ عليه الصلاة والسلام.

وفي المراد بوعد الله في قوله تعالى: ﴿حتى يأتي وعد الله﴾ قولان:

ـ فعن مجاهد وقتادة: هو فتح مكة. وعن الحسن هو يوم القيامة[1].

السادس: إتيان البنيان من القواعد:

قال تعالى: **﴿قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾**[2].

ومعنى الآية: قد مكر من قبل هؤلاء المشركين ـ مشركي مكة ـ أقوام فأذهب الله ما بنوه ودمره عليهم.

وفي المراد بقوله: ﴿الذين من قبلهم﴾ أقوال:

الأول: قيل النمرود المذكور في محاجة إبراهيم عليه السلام، فقد تحدى النمرود الله سبحانه، وأراد أن يطلع عليه عز وجل فبنى بنياناً عظيماً وصعد فوقه، فدمره الله عليه من أساسه بزلازل وخسوف[3].

---

(١) انظر المصدرين السابقين.

(٢) سورة النحل، الآية: ٢٦.

(٣) انظر جامع البيان، الطبري (١٤/ ٦٦، ٦٧، ٦٨).

الثاني: قيل هو بختنصر[1].

الثالث: وقيل هو الذي حاج إبراهيم وهو شخص غير النمرود المذكور في القول الأول[2].

الرابع: الآية عامة في كل المعاندين. وهذا القول رجحه الرازي[3]، وهو الذي أميل إليه لعدم وجود دليل على الأقوال الأخرى.

ـ وأما قوله تعالى: **﴿فأتى الله بنيانهم من القوعد فخر عليهم السقف من فوقهم﴾**. قال القرطبي: أتى الله أي: أتى أمر الله، إما بزلزلة، أو ريح، أو غير ذلك[4].

وقيل إن البنيان المذكور ليس محسوساً، بل هو مجرد تمثيل، والمعنى: أهلكهم فكانوا بمنزلة من سقط عليهم البنيان[5]. وهذا القول بعيد؛ لأن الأصل حمل اللفظ على الحقيقة ولا يلجأ إلى المجاز والتمثيل إلاّ عند تعذر حصول المعنى على الحقيقة. وفي هذا الموضع لا استحالة في حمل المعنى على الحقيقة.

والخرور السقوط، فقيل إن الله سبحانه أرسل ريحاً وزلزلة أخذت البناء من أصوله وكان القوم فيه فسقط عليهم فماتوا.

وهنا لفتة ذكرها القرطبي: إن قوله تعالى: **﴿من فوقهم﴾** تأكيد لقوله

---

(١) انظر المصدر السابق.
(٢) انظر المصدر السابق.
(٣) انظر التفسير الكبير، الرازي (٢٠/١٩، ٢٠).
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٠/٩٧، ٩٨).
(٥) انظر المصدر السابق.

تعالى: ﴿**فخر عليهم السقف**﴾ وذلك أن العرب تقول: سقط علينا الحائط وقد لا يكونوا تحته، فأكد سبحانه سقوطه عليهم وهم تحته[1].

السابع: الفتنة:

قال تعالى: ﴿**لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**﴾[2]. جاءت هذه الآية لتعلِّم المسلمين أدب مناداة الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم تحدثت عن بعض المنافقين الذين كانوا يتهربون من حضور الجُمَع مع رسول الله عليه الصلاة والسلام فيلوذون ببعض الناس، وقيل غير ذلك[3].

وقد فسر الإمام الرازي الفتنة هنا بالعقاب الدنيوي، والعذاب الأليم عذاب الآخرة[4].

وأورد العلماء أقوالاً في نفسير العقاب الدنيوي:

- فقيل: القتل. وهذا مذكور عن ابن عباس[5].
- وقيل الزلازل والأهوال، وهذا منسوب لعطاء[6].

---

(١) انظر المصدر السابق.
(٢) سورة النور، الآية: ٦٣.
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٢/ ٣٢٢، ٣٢٣)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (٢٤/ ٤٠)، وانظرتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٣١٨، ٣١٩).
(٤) انظر التفسير الكبير، الرازي (٢٤/ ٤٠).
(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٢/ ٣٢٢، ٣٢٤).
(٦) انظر المصدر السابق.

ـ وعن جعفر بن محمد : السلطان الجائر[1] .

ـ وقيل كفر ونفاق في القلوب[2] .

ـ وقيل لفظ عام يدخل فيه جميع أنواع العقاب الدنيوي[3] .

والقول الأخير وهو أن الفتنة شاملة لجميع أنواع العقاب الدنيوي هو الذي أميل إلى ترجيحه، وذلك لعدم وجود دليل مخصص.

والآية دليل على وجوب اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام في المسلك والطريقة ومن حاد عن ذلك فهو في خطر عظيم.

الثامن : المصيبة :

قال تعالى : ﴿**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير**﴾[4] .

جاء العقاب في هذه الآية بلفظ المصيبة، والمصيبة النكبة، تقول أصابته مصيبة حلت به[5] ، وللعلماء في المخاطب بهذه الآية وجوه :

الأول: إنها خطاب للناس كافة[6]. أما بالنسبة للكفار فالآيات كثيرة منها :

﴿**فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم . .**﴾ الآية[7] .

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٣١٨، ٣١٩).

(٣) انضر التفسير الكبير، الرازي (٢٤/ ٤٢)، وانظر معالم التنزيل (الشهير بتفسير البغوي)، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي (٣/ ٣٥٩)، طبعة دار المعرفة، بيروت، سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

(٥) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم ص٢٩٧.

(٦) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٢٥، ١٢٦).

(٧) سورة النساء، الآية: ١٦٠.

وبالنسبة للمسلمين فبما ورد عن رسول الله ﷺ، روى أبو هريرة وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهما أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى الهمَّ يهمه إلاّ كفر به من سيئاته»[1].

ووجه الدلالة في الحديث أن النبي ﷺ بيّن أن هذه الأمور التي تصيب المؤمن تكفر بها خطاياه، أي أنها مقابل ذنوب اقترفها،

الثاني: الخطاب فيها للمشركين والكفار[2]. واعتمد القائلون بهذا على أن الله لا يعذب المؤمنين عقاباً لهم. فما يحدث للمؤمنين من هذه الأمور فهو من باب الابتلاء لا العقاب.

وهذا القول ضعيف لما جاء في كتاب الله عز وجل أن المؤمنين يعاقبون بذنوبهم كقوله تعالى: ﴿**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة**﴾ الآية[3].

الثالث: الخطاب في الآية للمسلمين، والمراد بالمصيبة هنا: نسيان القرآن، قالوا: لا مصيبة أعظم من هذه. روي هذا عن الضحاك[4].

وقيل الحدود على الذنوب، قاله الحسن[5].

وقد رجح القرطبي الثالث وهو أن الخطاب في الآية للمسلمين، وقال: وهذا أكثر وأظهر وأشهر[6]، والذي أميل إليه أن الخطاب للناس جميعاً. قال

(١) الحديث متفق عليه، واللفظ لمسلم أخرجه في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب (٤/ ١٩٩٣).
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ٣٠/ ٣١).
(٣) انظر في تفسير هذه الآية ص٥٨ من هذا البحث.
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ٣٠، ٣١).
(٥) انظر نفس المصدر.
(٦) انظر نفس المصدر.

ابن كثير : ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ أي مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما هي عن سيئات تقدمت لكم[1] أهـ. وقد تقدم الدليل عل ذلك من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام. وقد أورد ابن كثير أحاديث كثيرة من هذا الباب[2] .

وهنا ملاحظة أود ذكرها وهي : إن المصائب بالنسبة للمسلمين نوعان :

الأول : ابتلاء وامتحان منه سبحانه، وذلك لتثبيت الإيمان في قلوب المؤمنين ولتصفية صفوف المؤمنين من الخبث فلا يبقى إلاّ الطيب[3] .

الثاني : عقوبة منه سبحانه على الذنوب التي يرتكبها المسلمون، وحتى هذه العقوبة هي لطف منه تعالى كي يأتي عبده يوم القيامة وليس عليه ذنب، والحديث المتفق عليه والذي ذكرته آنفاً دليل على هذا[4] .

وبعد :

فهذه عدة آيات من القرآن الكريم تحدثت عن العقاب بشكل عام دون تحديد نوع العذاب، وضعتها في المبحث الأول من فصل أشكال العقاب في القرآن الكريم، وذلك تمهيداً لدراسة العقوبات المعنوية والعقوبات الحسية، والتي هي بمثابة تفصيل للألفاظ العامة.

** ** **

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٢٥، ١٢٦).
(٢) انظر المصدر السابق.
(٣) تقدم الحديث عن ذلك في صفحة ١٨ من هذا البحث.
(٤) راجع صفحة ٦٠ من هذا البحث.

المبحث الثاني:

العقوبات المعنوية في القرآن الكريم

تحدثت في المبحث السابق عن العقاب بشكله العام، وبينت أن العقوبات منها ما هو حسي ومنها ما هو معنوي، وفي هذا المبحث أستعرض العقوبات المعنوية في القرآن الكريم. أما العقوبات الحسية فقد خصصت لها مبحثاً مستقلاً.

والعقوبات المعنوية تطلق ويراد بها ما يقابل العقوبات الحسية أو المحسوسة، وقد رجعت إلى المعاجم اللغوية، فوجدتها كلمة محدثة ولم تستعملها إلا المعاجم الحديثة، بل أشار مؤلفوها إلى أنها كلمة حديثة الاستعمال، فقد جاء في المعجم الوسيط ما نصه:

المعنوي: خلاف المادي، وخلاف الذاتي (محدثتان) أ. هـ[1].

أما المعاجم القديمة فقد استخدمت لفظاً آخر مقابل الحسي أو المادي ألا وهو المعقول.

- قال ابن منظور في لسان العرب: والمعقول، ما يعقل بالقلب، ويطلق على العقل المعقول[2].

---

(١) المعجم الوسيط (٢/ ٦٣٣).

(٢) لسان العرب، ابن منظور (١٥/ ١٠٦).

وقال الفيروز آبادي في البصائر: ويستعمل في المحسوس وفي المعقول ولكن استعماله في المحسوس أكثر[١].

وليتضح معنى «معنوي» أو المعقول ينبغي بيان معنى مقابله وهو الحسي، قال في لسان العرب: قال ابن الأثير الإحساس العلم بالحواس، وهو المشاعر الخمس: الطعم والشم، والبصر والسمع واللمس[٢].

فالمراد بالعقوبات المعنوية هي العقوبات التي لا تدرك بالمشاعر الخمسة، كالختم على القلب، والغضب، واللعن، وغيرها من الألفاظ التي تكون أصلاً في تعريفها لا تدرك بالحواس، ولبيان هذا أضرب المثال الآتي:

اللعن لغة: الطرد والإبعاد من رحمة الله. وهذا أمر معنوي وعام ولكن الله سبحانه قد يعاقب أمة بالمسخ قردة وخنازير، ويسمي هذا لعناً، وبالتالي فالمسخ أحد مظاهر اللعن.

ومثال آخر: الخزي في تعريفه: هو الإذلال، والإذلال أمرمعنوي، ولكن قد يكون فرض الجزية على قوم ـ وهو أمر حسي ـ أحد أفراد الإذلال الذي هو في أصل تعريفه معنوي.

ومما يجدر ذكره أن فصل الإحساس عما يدرك بالعقل أو القلب فصلاً تاماً أمر غير صحيح، لأن ما يدرك بالحواس يؤثر على باطن المرء، فالإنسان

---

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٢/ ٢٥٧).
(٢) لسان العرب، ابن منظور (٦/ ٤٩، ٥٠) بتصرف يسير، وانظر القاموس المحيط، الفيروز آبادي ص٦٩٣، وانظر معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل ابراهيم ص١٢٤، وانظر بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٢/ ١٥٣).

ـ وهو فرد في الأمة ـ عبارة عن كتلة مترابطة من المشاعر الداخلية والأحاسيس الناتجة عما يأتيه من الخارج، والعقوبات المعنوية التي سأتناولها بالتفصيل كثيرة ذكرت منها ما استطعت استخلاصه، وهذه العقوبات هي :

اللعن، الإملاء، الاستدراج، الختم والطبع على القلوب، عدم تطهير القلوب، عدم الاهتداء إلى الحق، إحباط الأعمال، الرعب والخوف، الذلة والمسكنة والغضب، الكبت، الضنك، ضيق الصدر، الإركاس، الصرف عن آيات الله .

الأول : اللعن :

قال تعالى : ﴿**وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون**﴾[1] .

جاءت هذهالآية في معرض الحديث عن اليهود، فبعد أن بيّن سبحانه شأن اليهود وموقفهم من كل رسول يأتيهم حيث قال تعالى : ﴿**أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون**﴾، ذكر ادعاءهم بأن قلوبهم غلف، وبيّن سبحانه أن الأمر ليس كما يزعمون، بل لعنهم الله بسبب كفرهم .

واللعن لغة : الطرد والإبعاد[2] . واصطلاحاً : الطرد والإبعاد على سبيل السخط منه تعالى عقوبة في الآخرة، وفي الدنيا انقطاع قبول رحمته وتوفيقه[3] .

---

(١) سورة البقرة، الآية : ٨٨ .
(٢) القاموس المحيط، الفيروز آبادي ص١٥٨٨ .
(٣) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصهاني ص٤٥١ .

واللعن من الإنسان دعاؤه على غيره[1] .

وبسبب لعن الله لهم ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ . وفي معنى القليل وجوه ذكرها الرازي وغيره[2] .

أولاً: القليل هنا تتبع العدد أي أنها صفة للمؤمن، فيكون التأويل: لا يؤمن منهم إلاّ القليل.

ثانياً: القليل صفة للإيمان فيكون التأويل: يؤمنون بقليل من التكاليف. وذكر القرطبي عن معمر: لا يؤمنون إلاّ بقليل مما في أيديهم ويكفرون بأكثره[3] .

ثالثاً: لا يؤمنون أصلاً. وذلك أن العرب تستعمل هذا فتقول: قليلاً ما يقاتل، أي: لا يقاتل مطلقاً[4] .

وأرجح هذ الأقوال ما اختاره الآلوسي رحمه الله، قال: إن الفاء هنا سببية أي بسبب اللعن قليلاً ما يؤمنون. وقليلاً نعت لمصدر محذوف تقديره إيماناً قليلاً، وهو إيمانهم ببعض الكتاب[5] .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية﴾[6] أي بسبب نقضهم الميثاق لعناهم[7] . وللمفسرين في اللعن هنا وجوه:

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصهاني ص٤٥١ .
(٢) انظر التفسير الكبير، الرازي (٣/ ١٧٩)، وانظر الجامع لأحام القرآن، القرطبي (٢/ ٢٦).
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢/ ٢٦).
(٤) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ١٢٨)، وانظر تفسير المنار، رشيد رضا (١/ ٣٧٨، ٣٧٩).
(٥) روح المعاني، الآلوسي (١/ ٣١٩).
(٦) سورة المائدة، الآية: ١٣ .
(٧) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٣٥).

أولاً: اللعن: الطرد والإبعاد من رحمة الله. وهذا مروي عن عطاء[1]. وهذا الوجه هو حمل اللعن على معناه الاصطلاحي.

ثانياً: اللعن: المسخ قردة وخنازير. وهذا مروي عن الحسن ومقاتل[2].

ثالثاً: اللعن: فرض الجزية. وهذا منسوب إلى ابن عباس رضي الله عنهم أجمعين[3].

والذي أميل إليه هو الوجه الأول، وذلك لأنه موافق للمعنى الأصلي للكلمة، وبهذا قال الآلوسي رحمه الله[4]. وأما القول بأن اللعن هو فرض الجزية - وهو الوجه الثالث - فضعيف؛ لأن الجزية لم تكن مفروضة على السابقين من أهل الكتاب.

الثاني: الإملاء والاستدراج:

من العقوبات المعنوية التي وردت في القرآن الكريم الإملاء والاستدراج وكلا اللفظين ورد في كتاب الله العزيز. قال تعالى: ﴿**والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين**﴾[5].

الاستدراج لغة: الخداع. وأصله من الدّرج وهو لف الشيء. يقال درج الصبي إذا مشى مشية الصاعد في درجة[6].

---

(١) انظر التفسير الكبير، الرازي (١١/ ١٨٧)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ١١٥، ١١٦).
(٢) انظر المصدرين السابقين.
(٣) انظر المصدرين السابقين.
(٤) انظو روح المعاني، الآلوسي (٦/ ٨٨).
(٥) سورة الأعراف، الآيتان: ١٨٢، ١٨٣.
(٦) انظر القاموس المحيط، الفيروز آبادي ص٢٤١.

واصطلاحاً: الأخذ منزلة منزلة من غير مباغتة[1] .

قال عطاء: سنستدرجهم: سنمكر بهم من حيث لا يعلمون. وقال الضحاك: كلما جددوا معصية جددنا لهم نعمة. وعن سفيان الثوري: ننعم عليهم وننسيهم الشكر[2] .

من هذه الأقوال يتضح أن الله سبحانه يعاقب الذين يكذبون بآياته بأن يمد لهم وينعم عليهم، فيظنون أنهم في مأمن من مكر الله عز وجل، فيزيد لهم النعم وينسيهم الشكر عقوبة لهم. وأنشدوا في هذا المقام:

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت

ولم تَخَفْ سوء ما يأتي به القدر

وسالمتك الليالي فاغتررت بها

وعند صفو الليالي يحدث الكدر

أما الآية الأخرى فقد أوضحتْ معنى الاستدراج حيث قال تعالى: ﴿**وأملي لهم**﴾، والإملاء: الإمهال والمد في الزمن[3] . وهو في الآية تأخير العقوبة بحيث تطول مدة ما هم فيه[4] . وطول المدة يولد شعوراً لدى هؤلاء المكذبين بالركون والاطمئنان إلى ما هم فيه.

---

(١) انظر المصدر السابق، وانظر مفردات ألفاظ القرآن، الأصفهاني ص١٦٧، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧/ ٣٢٩)، وانظر معالم التنزيل، البغوي (٢/ ٢١٨).

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٢٨١)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧/ ٣٢٩)، وانظر معالم التنزيل، البغوي (٢/ ٢١٨).

(٣) انظر مفردات ألفاظ القرآن، الأصفهاني ٤٧٤ .

(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧/ ٣٧٩)، وانظر معالم التنزيل، البغوي (٢/ ٢١٨).

ثم قال تعالى: ﴿**إن كيدي متين**﴾، هذه العبارة من قوله عز وجل توضح أن إملاءه لهم هو من باب كيده المتين سبحانه وتعالى وهو عقوبة لهم.

قال البغوي: ﴿**إن كيدي متين**﴾ إن أخذي قوي شديد. وعن ابن عباس: إن مكري شديد. وقيل: نزلت في المستهزئين قتلهم الله في ليلة واحدة[١].

ويوضح هذا ما أخرجه الإمام البخاري رحمه الله في كتاب التفسير عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» قال: ثم قرأ: ﴿**وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد**﴾[٢].

الثالث: الختم والطبع:

قال تعالى: ﴿**ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم**﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿**فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلاّ قليلاً**﴾[٤].

في هاتين الآيتين عقوبتان رئيستان هما: الختم، والطبع، وهما بمعنى واحد، كما قال صاحب بصائر ذوي التمييز[٥] وغيره. فذكر أن الختم والطبع مصدرا ختمت وطبعت، وهو تأثر الشيء، كنقش الخاتم والطابع. وقيل هو الأثر الحاصل عن الشيء. واستعمل في الاستيثاق من الشيء كالخاتم الذي يوضع على الكتب كي لا يدخله شيء ولا يخرج منه شيء.

---

(١) انظر معالم التنزيل، البغوي (٢/ ٢١٨).
(٢) سورة هود، الآية: ١٠٢. والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة هود (٦/ ٩٣، ٩٤).
(٣) سورة البقرة، الآية: ٧.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٥٥.
(٥) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٢/ ٥٢٦، ٥٢٧).

والختم والطبع في هذه الآيات ومثيلاتها: خُلُقٌ يجعله الله في قلب الذي داوم على ارتكاب المعاصي فتمكنت من قلبه فلم يلتفت لحق فيصير بهذا مستحسناً لفعلها[1].

وقال القرطبي: أمر يخلقه الله في قلب العبد يمنعه من الإيمان[2].

ومن هذا المعنى قوله تعالى: **﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم﴾**[3].

ومن قبيل الختم: الإغفال في قوله تعالى: **﴿أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾**[4]، وكذلك جعل الأكنة على القلوب في قوله تعالى **﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾**[5]، ومن هذا القبيل كذلك جعل القلوب قاسية في قوله تعالى: **﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾**[6].

أورد الطبري عن مجاهد قوله: إنهم كانوا يرون ـ الختم ـ أنه هو الران[7] من قوله تعالى: **﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾**[8].

ويزعم المعتزلة أن إسناد الختم إلى الله ـ كما هو في الآية ـ وجَعْل ذلك على الحقيقة مُحال؛ وذلك لأن الختم على القلب من الله يؤدي إلى القول بأنه هو الذي منع العبد من الإيمان، وهذا قبيح في حق الله تعالى. وبناءً على قولهم هذا فقد فسر الزمخشري صاحب الكشاف ـ وهو من أقطابهم ـ فسر

---

(١) المصدر السابق.
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ١٨٦ - ١٨٨).
(٣) سورة النحل، الآية: ١٠٨.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٢٨.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٢٥.
(٦) سورة المائدة، الآية: ١٣، وانظر بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٢/ ٥٢٧).
(٧) انظر جامنع البيان، الطبري (١/ ١١٢).
(٨) سورة المطففين، الآية: ١٤.

الآية التي نحن بصددها بأن المراد هو أن القلوب كالمختوم عليها، ولكنه ـ الختم ـ أسند إلى الله؛ لأنه من فرط تمكنه، فصار كالشيء الخَلْقي أي الذي هو طبع خلق عليه المرء[1].

وقال الزمخشري في موضع آخر: ويجوز الإسناد إلى الله مجازاً وهو من غيره حقيقة[2].

فائدة:

وأصل المسألة أن المعتزلة والقدرية زعموا أن الله سبحانه خلق أفعال الخير، والعبد يخلق أفعال الشر التي يعملها، وذلك تنزيهاً منهم لله عز وجل ـ كما زعموا ـ.

وأما أهل السنة والجماعة فإنهم قالوا: إرادة الله نوعان:

إرادة كونية خَلْقية قَدَرية، وهي خلق الأشياء كلها حتى أفعال العباد خيراً كانت أم شراً، وهذه الإرادة ينزلون تحتها قدرة العبد على الفعل ـ فعل الخير والشر ـ.

والإرادة الثانية: إرادة أمرية شرعية وهي حب الله للخير وكرهه للشر، فالله سبحانه خلق الأفعال جميعها ـ وهذه تنزل تحت الإرادة من النوع الأول ـ، وهوسبحانه يريد ويحب فعل الخير ويكره ولا يريد فعل الشر ـ وهذه هي الإرادة الثانية ـ.

---

(١) انظر تفسير الكشاف، الزمخشري (١/ ١٥٧، ١٥٨).
(٢) المصدر السابق (١/ ١٦٠، ١٦١).

أما دليل أهل السنة على ذلك : فللإرادة الأولى قوله تعالى : ﴿**ولكن الله يفعل ما يريد**﴾[1] . وكذلك وقوله تعالى : ﴿**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء**﴾[2] . وغيرها من الآيات كثير .

ودليل الإرادة الثانية قوله تعالى : ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾[3] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿**يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم**﴾[4] . وغيرها من الآيات[5] (انتهت الفائدة) .

والمفسرون كالطبري وغيره على أن الختم في الآية هو جزاء من الله لقوم علم سبحانه أنهم لن يؤمنوا[6] . ودليلهم على هذا قوله تعالى قبل الآية المذكورة : ﴿**إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون**﴾[7] . فبين سبحانه أن هؤلاء لا ينفع معهم الإنذار أو عدمه ، وأنهم مصرون على ما هم عليه من الكفر وعدم الإيمان .

واختلف العلماء في المراد بهؤلاء الكفار الذين ختم الله على قلوبهم :

ـ فقيل : اليهود الذين كانوا بنواحي المدينة على عهده عليه الصلاة والسلام[8] .

---

(١) سورة البقرة، الآية : ٢٥٣ .
(٢) سورة الأنعام، الآية : ١٢٥ .
(٣) سورة البقرة، الآية : ١٨٥ .
(٤) سورة النساء، الآية : ٢٦ .
(٥) انظر شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي ١١٤ ، بتحقيق جماعة من العلماء، طبع المكتب الإسلامي، بيروت، الطبع التاسعة، سنة ١٤٠٨/١٩٨٨م، وانظر التفسير الكبير، الرازي (٢/ ٤٢، وما بعدها.
(٦) انظر جامع البيان، الطبري (١/ ١٠٩)، انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ١٨٤).
(٧) سورة البقرة، الآية : ٦ .
(٨) انظر جامع البيان، الطبري (١/ ١٠٨ ، ١٠٩)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ١٨٤).

ـ وقيل: كان رسول الله ﷺ يحرص على أن يؤمن جميع الناس، فأخبره سبحانه أنه لن يؤمن إلاّ من عرف بذلك، وأن هناك أقوام لن يؤمنوا[1].

ـ وقيل: هم الذن قتلوا يوم بدر من المشركين[2].

ـ وقيل: المراد الذين كفروا بما أنزل على رسول الله ﷺ وإن قالوا آمنا بما جاءنا من قبل. ورجح هذا القول الطبري رحمه الله[3].

ـ وقيل: هي عامة، ومعناها الخصوص فيمن حقت عليهم الضلالة. ورجح هذا القرطبي رحمه الله[4].

والذي أميل إليه ما رجحه القرطبي باعتبار أن الأصل الإبقاء على العموم حتى يأتي ما يخصصه.

وأما الختم على القلب والسمع، والغشاوة على الأبصار، فهو جزاء كفرهم ومعاصيهم.

قال القرطبي رحمه الله: إن الأمة أجمعت على أن الختم والطبع هو جزاء كفرهم[5].

وذكر الطبري قولاً آخر في تفسير الختم، هو أن الختم هنا إخبار منه تعالى عن تكبرهم وإعراضهم عن الاستماع للآيات. ولم يذكر الطبري

---

(١) انظر جامع البيان، الطبري (١/١٠٨، ١٠٩).
(٢) انظر المصدر السابق، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ١٨٤).
(٣) انظر جامع البيان، الطبري (١/١٠٨، ١٠٩).
(٤) انظر المصدر السابق، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ١٨٤).
(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ١٨٧)، وانظر روح المعاني، الآلوسي (١/ ١٣١).

القائلين بهذا، ولكنه ضعف قولهم بقوله: إن الختم مسند إلى الله تعالى ولا يمكن إسناد فعل إلى الله سبحانه هم فعلوه[1].

ثم قال تعالى: ﴿**وعلى أبصارهم غشاوة**﴾، والغشاوة من الغشاء وهو الغطاء والحاجز[2].

فائدة:

وخطّأ الطبري من يقرأ الختم على القلب والسمع والأبصار لسببين:

الأول: إن الإجماع منعقد على القراءة بالفصل بين «سمعهم» وما بعدها.

الثاني: أن نسبة الختم إلى الأبصار لم ترد في كتاب ولا سنة ولا في لغة العرب. قال تعالى: ﴿**وختم على سمعه وقلبه**﴾ ثم قال: ﴿**وجعل على بصره غشاوة**﴾[3] (انتهت الفائدة).

والختم على القلوب عدم وعي الحق، وعلى السمع عدم فهم الآيات، والغشاوة على البصر عدم اهتدائها إلى العبرة من النظر في عجائب خلق الله.

ذُكر هذا منسوباً إلى ابن عباس وابن مسعود وقتادة وغيرهم[4].

والآيات دليل على فضل القلب على سائر الأعضاء إذ هو محور الإيمان[5].

---

(١) انظر جامع البيان، الطبري (١/ ١١٢، ١١٣).
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ١٩١).
(٣) انظر جامع البيان، الطبري (١/ ١١٣، ١١٤).
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ١٨٦).
(٥) انظر المصدر السابق (١/ ١٨٧)، وانظر تفسير المنار، رشيد رضا (١/ ١٤٣، ١٤٤).

أما الطبع الذي ورد في قوله تعالى: ﴿.. **وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً**﴾[١]، فقد زعم اليهود أن قلوبهم غلف، وغُلف جمع أغْلَف أي غلاف[٢].

وفي تأويل قول اليهود ﴿**قلوبنا غلف**﴾ وجهان:

الأول: قلوبنا غلف: أي مغلفة بغطاء فلا تعي ولا تدرك الآيات[٣].

الثاني: قلوبنا غلف أي أوعية للعلم[٤].

فرد سبحانه ادعاءهم بقوله: ﴿**بل طبع الله عليها بكفرهم**﴾، فبين سبحانه أنه طبع عليها، فلا يدخلها الإيمان بسبب ما اقترفته أيديهم وقلوبهم.

ـ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلاّ أساطير الأولين**﴾[٥].

في هذه الآية جاء لفظ الأكنة، والمعنى وجعلنا على قلوبهم أغطية لئلا يفقهوا القرآن[٦]؛ لأن أكنة جمع كنان وهو الغطاء[٧].

ذكر الإمام الرازي عن ابن عباس أن بعض المشركين كأبي سفيان ـ أسلم يوم الفتح ـ والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وعتبة وغيرهم جاووا إلى

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٥.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ص٣٦٤، ٤٤٣.
(٣) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٨٦، ٥٨٧).
(٤) انظر المصدر السابق.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٢٥.
(٦) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٤٠٤، وانظر تفسير القرآن اعظيم، ابن كير (٢/ ١٣١).
(٧) انظر مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ص٣٦٤، ٤٤٣.

النبي عليه الصلاة والسلام واستمعوا إلى حديثه فسألوا النضر ماذا يقول؟ فقال: لا أدري، ولكني أراه يحرك شفتيه بأساطير الأولين كالذي كنت أحدثكم به عن أخبار القرون الأولى، فأنزل الله: ﴿ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً..﴾[1].

وهذا السبب الذي ذكره الرازي للآية ذكره النيسابوري في أسباب النزول[2].

الرابع: عدم تطهير القلب:

أوردت هذه العقوبة هنا لأن طهارة القلب تتعلق بالختم عليه. إذ لاشك أن القلب الذي جعل سبحانه عليه الغطاء والكنان قلب غير طاهر. وقد وجدت هذا المعنى عند القرطبي[3] عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يا أيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾[4].

فائدة:

ففي هذه الآية يخاطب سبحانه رسوله عليه الصلاة والسلام بيا أيها

---

(١) انظر التفسير الكبير، الرازي (١٢/ ١٨٥، ١٨٦).
(٢) انظر أسباب النزول، أبو الحسن بن أحمد الواحدي النيسابوري ٢٤٦، ٢٤٧، طبع دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، ومؤسسة علوم القرآن، دمشق، الطبعة الثالثة، سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ١٨١).
(٤) سورة المائدة، الآية: ٤١.

الرسول، وهذا أحد موضعين فقط في القرآن الكريم يكون فيه الخطاب بيا أيها الرسول، والموضع الآخر: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾[1]. وهو خطاب تشريف لرسول الله عليه الصلاة والسلام[2].

وفي هذه الآية يوصي سبحانه رسوله عليه الصلاة والسلام بعدم الحزن لما يكيده المنافقون، ولأساليبهم في الخداع والمكر[3]. وموضع الشاهد في هذه الآية قوله تعالى: ﴿أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم﴾ فسرها الإمام القرطبي بالطبع والختم والإضلال[4].

ولهذه الآية سبب، ورد فيه أحاديث صحيحة، أخرج مسلم في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي محمماً ـ وهو الذي دُهن وجهه بالفحم حتى صار أسوداً ـ مجلوداً: فدعاهم رسول الله ﷺ فقال: هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم. فقال: أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قال: لا، ولولا أنك أنشدتني بهذا لم أخبرك. نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد. قلنا تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فجعلنا التحميم مكان الرجم. فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه» فأمر به فرجم، فأنزل الله عز وجل:

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.
(٢) انظر التفسير الكبير، الرازي (١١/ ٢٦١).
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ١٨١).
(٤) انظر المصدر السابق.

﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر..﴾ إلى قوله: **﴿إن أوتيتم هذا فخذوه﴾**. يقول: ائتوا محمداً ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا. فأنزل الله تعالى: **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾**[(١)] . **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾**[(٢)] . **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾**[(٣)] في الكفار كلها. انتهى لفظ مسلم رحمه الله[(٤)].

وذكر ابن كثير سبباً آخر وهو: أنها نزلت في قوم من اليهود، قتلوا قتيلاً: ثم قالوا: تعالوا نتحاكم إلى محمد ﷺ فإن حكم بالدية نقبله، وإن حكم بالقصاص فلا نسمع له. فنزلت الآية[(٥)] .

والصحيح من أسباب النزول - كما قال ابن كثير - ما جاء في الصحيحين[(٦)] .

ومن سبب النزول الذي اتفق عليه الشيخان رحمهما الله يتبين أن تبديل حكم من أحكام شريعة الإسلام استحلالاً يعد كفراً مخرجاً عن الملة، فاليهود غيروا حد الزنى فقط فحكمت الآيات عليهم بالكفر.

وأما حكم حاكم في واقعة بغير حكم الله بدافع الهوى أو الرشوة فهذه كبيرة ولا تعد كفراً حتى يستحلها[(٧)] . وهذا المرض مما ابتليت به الأمة

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٤.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٥.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٧.
(٤) الحديث متفق عليه، واللفظ لمسلم، كتاب الحدود، (٣/ ١٣٢٦).
(٥) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٦٠، ٦١)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (١١/ ٢٣٣، ٢٣٤)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ١٨٢).
(٦) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٦٠، ٦١).
(٧) انظر العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي ص٣٢٣، ٣٢٤.

الإسلامية اليوم فقد استبدلت بأحكام الله قوانين وضعية من انكلترا أو من فرنسا أو من روسيا، يقول الشيخ أحمد شاكر: وهذا مثل ما ابتلي به الذين درسوا القوانين الأوربية من رجال الأمم الإسلامية ونسائها أيضاً الذين أشربوا في قلوبهم حبها والشغف بها، والذب عنها وحكموا بها وأذاعوها. أهـ[1].

إذاً فإن عقوبة عدم تطهير القلب في هذه الآية جاءت لمن بدّل حكم الله عز وجل، قال أبو حيان: أولئك يعلم الله من الأزل أنهم مدنسون بالكفر[2]. بل إنه سبحانه عاقبهم بعقوبة أخرى حيث قال: ﴿**لهم في الدنيا خزي**﴾ أي ذل وفضيحة. وخزي المنافقين بفضح دسائسهم ومكائدهم وإبرازها للمسلمين.

وبالنسبة لأهل الكتاب بضرب الذلة عليهم من دفع للجزية وتمييزهم عن المسلمين[3]. وسيأتي بحث الخزي في موضعه[4].

الخامس: عدم الاهتداء إلى الحق:

قال تعالى: ﴿**إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً. إلاّ طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً**﴾[5].

قال الإمام الطبري في معنى هذه الآية: إن الذين جحدوا رسالة محمد ﷺ، وكفرو بالله بجحود ذلك، وظلموا بمقامهم على الكفر، على علم منهم بظلمهم عباد الله، وحسداً للعرب، وبغياً على رسول الله محمد ﷺ،

---

(١) المصدر السابق ص٣٢٤ (الهامش).
(٢) البحر المحيط، أبو حيان (٣/ ٤٨٨).
(٣) انظر المصدر السابق.
(٤) انظر صفة ٨٠ من هذا البحث.
(٥) سورة النساء، الآيتان: ١٦٨، ١٦٩.

﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ ، يعني لم يكن الله ليعفو عن ذنوبهم ، بتركه عقوبتهم عليها ، ولكنه يفضحهم بها ، بعقوبته إياهم عليها ﴿ولا ليهديهم طريقاً﴾ يقول : ولم يكن الله تعالى ذكره ليهدي هؤلاء الذين وصفنا صفتهم ، فيوفقهم لطريق من الطرق ، التي ينالون بها ثواب الله ، ويصلون بلزومهم إياه إلى الجنة ، ولكنه يخذلهم عن ذلك حتى يسلكوا طريق جهنم وهو الكفر أهـ[1] .

وعدم الاهتداء في هذه الآية خلق الأعمال السيئة التي تؤدي بأصحابها إلى جهنم أو سوقهم إلى جهنم يوم القيامة بواسطة الملائكة[2] .

وجملة الأقول في هذا المقام ثلاثة :

١ - المراد عدم هدايتهم إلى طريق الحق وهو الإسلام فيضلوا[3] .

٢ - المراد عدم هدايتهم إلى طريق الجنة يوم القيامة[4] .

٣- التعبير بالهداية هنا للتهكم وليس المراد مطلق الدلالة[5] .

وأرجح الأقوال لدى الأول ، وهو أن المعنى عدم هدايتهم في الدنيا إلى الصواب من الأفعال ، فيكون هذا سبباً لدخولهم جهنم يوم القيامة .

وذلك لأن الله سبحانه يعاقب الكفار في الدنيا بالختم والطبع على قلوبهم والصرف عن تدبر آياته ، ومثل هذا مما ذكرته ، وكل هذه العقوبات في الحقيقة إبعاد لأصحابها عن الاهتداء إلى طريق الجنة ، والله تعالى أعلم .

---

(١) جامع البيان ، الطبري (٦/ ٣٢)
(٢) روح المعاني ، الألوسي (٦/ ٢٢ ، ٢٣) بتصرف .
(٣) انظر جامع البيان ، الطبري (٦/ ٣٢) ، وانظر الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي (٦/ ٢٠) ، وانظر تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١/ ٦٠٣) ، وانظر تفسير المنار ، رشيد رضا (٦/ ٧٨) .
(٤) انظر التفسير الكبير ، الرازي (١١/ ١٣) ، وانظر روح المعاني ، الألوسي (٦/ ٢٢ ، ٢٣) .
(٥) انظر روح المعاني ، الألوسي (٦/ ٢٢ ، ٢٣) .

وأما قوله تعالى: ﴿**إلا طريق جهنم**﴾ ففيه قولان:

١ - الاستثناء هنا منقطع وعلى هذا يكون المراد بالطريق - هنا - طريقاً مخصوصاً وهو العمل الصالح[١]. ويكون المعنى على هذا: ولا ليهديهم - سبحانه - طريقاً فيه خير وصلاح ولكنه يهديهم إلى طريق الشر الذي يوصل إلى جهنم.

٢ - الاستثناء متصل، وعلى هذا يكون المراد بالطريق عمومه[٢]. ويكون المعنى ولا ليهديهم أي طريق إلاّ طريق جهنم.

السادس: الخزي:

قال تعالى: ﴿**قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين**﴾[٣].

يقول تعالى ذكره: يا أيها المؤمنون قاتلوا هؤلاء المشركين يقتلهم الله بأيديكم ويذلهم ويبرئ داء صدور المؤمنين بالنصر عليهم والظفر بهم[٤].

اشتملت هذه الآية على ثلاث عقوبات:

١ - التعذيب بأيدي المؤمنين. وهو القتل[٥].

٢ - الخزي.

٣ - انتصار المؤمنين على المشركين.

---

(١) انظر المصدر السابق.
(٢) انظر المصدر السابق.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٤.
(٤) جامع البيان، الطبري (١٠/ ٩٠).
(٥) انظر المصدر السابق.

ومما اشتملت عليه الآية الكريمة عقوبة الخزي.

والخزي لغة: من خزى، ومعناه وقع في بلية وشهرة فذل بذلك. والاسم الخزي[1]. وأخزاه الله: فضحه وأبعده ومقته[2].

وخزي الرجل: استحيا، والنعت خزيان، وجمعه خزايا[3].

قال الفيروز آبادي في البصائر:

الخزي: الانكسار من الوقوع في بلية وشهرة.

وقيل: الخزي انكسار يلحق الإنسان إما من نفسه وإما من غيره، فالذي يلحقه من نفسه هو الحياء المفرط ومصدره الخَزَاية. والذي يلحقه من غيره يقال هو ضرب من الاستخفاف ومصدره الخزْي. وأخزى يقال من الخزاية والخزي جميعاً[4].

وقال صاحب معجم الألفاظ: الخزي: الذل والهوان[5].

أما الخزي المذكور في هذه الآية فقد اختلف فيه المفسرون فقال بعضهم:

١- الخزي هنا الأسر[6].

---

(١) انظر معجم مقيلس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس اللغوي (١/ ٢٨٧، ٢٨٨)، طبع مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، وانظر القاموس المحيط، الفيروز آبادي ١٦٥١.

(٢) انظر المصدرين السابقين.

(٣) القاموس المحيط، الفيروز آبادي ١٦٥١.

(٤) بصائر ذوي التمييز، افيروز آبادي (٢/ ٥٣٥، ٥٣٦).

(٥) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم ١٥١.

(٦) انظر جامع البيان، الطبري (١٠/ ٩٠)، وانظر تفسير القرآن الجليل المسمى (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، النسفي (١/ ٦٣٩).

٢- وقيل الخزي هنا الإذلال[١]، وأقوال المفسرين تدور حول هذين المعنيين[٢] .

٣- وعن الواحدي أن الخزي هنا بعد الموت وهو عذاب يوم القيامة، وضعّف الرازي هذا القول[٣] .

والقول الثاني هو الذي أرجحه، وهو أنه الإذلال؛ لأنه موافق للمعنى اللغوي والاصطلاحي، ثم إن الأسر هو فرد من أفراد الإذلال؛ لأن الأسر يؤدي إلى إذلال الأسير.

السابع: إحباط الأعمال:

قال تعالى: ﴿**أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين**﴾[٤] .

إحباط الأعمال عقوبة وردت في عدة مواضع من القرآن الكريم، وفي هذا الموضع جاءت مقترنة بالدنيا والآخرة.

وأحبط من حَبط ـ بكسر الباء وفتحها ـ بطل: وأحبطه الله: أبطله.

وقيل إن أصله من:

ـ حبط ماء الركية ـ البئر ـ إذا ذهب ذهاباً لا يعود أبداً.

---

(١) انظر التفسير الكبير، الرازي (١٦/ ٢٠٣).
(٢) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٣٥٢، ٣٥٣)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٨/ ٨٦، ٨٧)، وانظر تفسير المنار، رشيد رضا (١٠/ ١٩٦).
(٣) انظر اتفسير الكبير، الرازي (١٦/ ٢، ٣).
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٢٢.

ـ وقيل أصله من الحَبَط، وهو: انتفاخ يصيب الدابة من كثرة أكلها طعاماً[1] .

قال الراغب والفيروز آبادي: وحبط العمل على أضرب:

الأول: أن تكون الأعمال دنيوية فلا تغني يوم القيامة غناء، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾[2] .

الثاني: أن تكون الأعمال أخروية، ولكن صاحبها لم يقصد بها وجه الله. ومن هذا ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه، رجل استشهد فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلّم العلم وعلّمه، وقرأ القرآن . . . إلى آخر الحديث وهو طويل[3] .

الثالث: أن تكون أعمالاً صالحة يكون بإزائها سيئات تزيد عليها، وهذا هو المشار إليه بخفة الميزان[4] .

قال الطبري رحمه الله: الإحباط في الدنيا هو عدم نيلهم محمدة نتيجة تكذيبهم رسول الله ﷺ فقبح عملهم ولم يرفع لهم ذكراً. أهـ[5] .

---

(١) انظر القاموس المحيط، الفيروز آبادي ٨٥٤، وانظر مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ص١٠٦، وانظر بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٢/ ٤٢٤).

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة (٣/ ١٥١٣، ١٥١٤).

(٤) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ص١٠٦، وبصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٢/ ٤٢٤).

(٥) جامع البيان، الطبري (٣/ ١٤٥، وانظر التفسير الكبير، الرازي (٧/ ٢١٥)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٤/ ٢٣٣).

الثامن : الرعب :

قال تعالى : ﴿**سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين**﴾[1] .

يقول تعالى : سنلقي يا أيها الذين آمنوا الرعب في قلوب الذين كفروا بسبب شركهم بالله وطاعتهم الشيطان وليس لهم حجة على ذلك الشرك[2] .

الرعب لغة : الفزع . وقيل : الانقطاع من امتلاء الخوف .

وذلك من قولهم رَعَبْتُ الحوض أي ملأته .

وسيل راعب : يملأ الوادي[3] .

وفي الرعب المذكور في الآية قولان :

الأول : قال الإمام الطبري رحمه الله : لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجهين نحو مكة ، انطلق أبو سفيان حتى بلغ الطريق ، ثم إنهم ندموا فقالوا : بئس ما صنعتم إنكم قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلاّ الشرير تركتموهم ، ارجعوا فاستأصلوهم فقذف الله عز وجل في قلوبهم الرعب ، فانهزموا فلقوا أعرابياً فجعلوا له جعلاً ، وقالوا له إن لقيت محمداً فأخبره بما قد جمعنا لهم ، فأخبر الله عز وجل رسوله ﷺ ، فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد ، فأنزل الله عز وجل في ذلك . فذكر أبا سفيان حين أراد أن يرجع إلى

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٥١ .

(٢) انظر جامع البيان ، الطبري (٤/ ١٢٤) ، وانظر الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي (٤/ ٢٣٣) .

(٣) انظر القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ١١٥ ، وانظر مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الأصفهاني ص١٩٧ ، وانظر بصائر ذوي التمييز ، الفيروز آبادي (٢/ ٨٦) .

النبي ﷺ، وما قذف في قلبه من الرعب فقال: ﴿**سنلقي في قلوب... الآية**﴾. أهـ.[1] وهذا هو القول الأول أي كان الرعب المذكور يوم أحد[2]، قال الإمام الرازي: وهذا قول كثير من المفسرين[3].

الوجه الثاني: الآية ليست خاصة بوقعة أحد بل هي عامة[4]. قال صاحب تفسير المنار: قال القفال رحمه الله: كأنه قيل أنه وإن وقعت لكم هذه الواقعة في يوم أحد إلاّ أن الله تعالى سيلقي الرعب منكم بعد ذلك في قلوب الكافرين حتى يظهر الإسلام.

ونظير هذه الآية قوله عليه الصلاة والسلام: «نصرت بالرعب مسيرة شهر». أهـ[5].

يقول صاحب المنار: والوجه الثاني أن الآية بيان لسنة إلهية عامة وهو الحق. أهـ[6].

والذي أميل إليه الثاني، وهو أن إلقاء الرعب سنة عامة مطردة إذا تحققت شروطها، وشروط تحققها: وجود مؤمنين صادقين، باعوا أنفسهم لله سبحانه، فهانت عليهم الدنيا، وبات كل شيء حقيراً أمام أعينهم، فلا تستحق الحياة حرصاً على شيء من متاعها الزائل، وهذا ما حدث للمؤمنين

---

(١) جامع البيان، الطبري (٤/ ١٢٤).

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٤/ ٢٣٣)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (٩/ ٣١، ٣٢)، وانظر تفسير المنار، رشيد رضا (٤/ ١٧٨).

(٣) التفسير الكبير، الرازي (٩/ ٣١، ٣٢).

(٤) انظر المصدر السابق، وانظر تفسير المنار، رشيد رضا (٤/ ١٧٨، ١٧٩).

(٥) التفسير الكبير، الرازي (٩/ ٣٢)، وحديث: «نصرت بالرعب» متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب التيمم) (١/ ٩١).

(٦) تفسير المنار، رشيد رضا (٤/ ١٧٨).

الأوائل فقد صدقوا الله ما وعدوه، فألقى الله سبحانه الرعب في قلوب أعدائهم، ومعارك الإسلام تشهد بذلك.

وأما إن شكى أو تساءل مسلمو اليوم: لماذا نعيش نحن المسلمين حالة من الضعف أدت إلى ذل ما عهده تاريخ المسلمين من قبل؟ فالجواب: إن مسلمي اليوم ليسوا كمسلمي الأمس، والبون شاسع فحال الأمة اليوم يرثى له: حب للدنيا وعض عليها بالنواجذ، وجهل بدين الله، وإعراض عن نداء العودة إلى دينه عز وجل، فأنى يستجاب لهم بإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم ونصرهم عليهم.

أما أمثلة التاريخ فكثيرة، تلك التي تؤيد القول بعموم الآية، وأن الرعب سنة ربانية، وأكتفي في هذا الموضع بتلخيص موضع الاستشهاد من موقعة بدر.

ذكر ابن كثير رحمه الله أن رسول الله ﷺ سمع بعير قريش التي كانت مع أبي سفيان قادمة من الشام، فجهز لها رسول الله ﷺ، فاجتمع له ثلاثمائة وبضع عشرة. وعن ابن عباس: كان أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر، وكان معهم سبعون بعيراً يتعاقبون ركوبها، ولكن أبا سفيان علم بالأمر وغيّر طريقه وفلت منهم.

وسمعت قريش بذلك، فجهزت ما بين التسعمائة والألف فارس فلم يبق من قريش أحد إلاّ خرج ومن لم يخرج أرسل مكانه رجلاً.

والتقى الجيشان بهذه النسبة المتفاوتة تفاوتاً كبيراً على عين بدر، وكان مع قريش صناديدهم كعقبة وأبي جهل وأمية بن خلف وعمرو بن عبد ود

والنضر بن الحارث وغيرهم ممن عرف عنه الشدة والبطش، ولبيان الرعب الذي حصل في تلك الواقعة يقول ابن كثير رحمه الله:

وقال تعالى: ﴿**وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً**﴾[1] فعندما تقابل الفريقان قلل الله كلاً منهما في أعين الآخر ليجترىء هؤلاء على هؤلاء، وهؤلاء على هؤلاء، لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وليس هذا معارضاً لقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿**قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء**﴾[2]. فإن المعنى في ذلك - على أصح القولين - أن الفرقة الكافرة ترى الفرقة المؤمنة مثلي عدد الكافرة على الصحيح أيضاً، وذلك عند التحام الحرب والمسايفة أوقع الله الوهن في قلوب الذين كفروا فاستدرجهم أولاً بأن أراهم إياهم عند المواجهة قليلاً، ثم أيد المؤمنين بنصره فجعلهم في أعين الكافرين على الضّعف منهم، حتى وهنوا وضعفوا وغلبوا، ولهذا قال عز وجل: ﴿**والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار**﴾.

قال إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي عبيد وعبد الله لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى أني لأقول لرجل إلى جنبي أتراهم سبعين؟ فقال: أراهم مائة. أهـ.

وانتهت معركة بدر - وهي قبل معركة أحد - بنصر المؤمنين على المشركين، وكانت تلك المعركة بداية انهيار عهد الشرك والوثنية في جزيرة العرب[3]. وهذا مثال واحد من تاريخ المسلمين وهو مليء بمثل هذه الوقائع.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣.

(٣) البداية والنهاية في التاريخ، أبو الفداء إسماعيل بن كثير (٣/ ٢٥٦ - ٢٦٩) بتصرف، طبع دار الفكر العربي، الطبعة الأولى سنة ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م.

- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان**﴾[١] .

والذي يجدر ذكره هنا أن الإمام البغوي ذكر عن عطاء أن الرعب هنا الخوف من أولياء الله[٢] . ويَرِدُ على هذا القول أن الرعب والخوف مختلفان:

أما الخوف فهو توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة. وضد الخوف الأمن[٣] .

أما الرعب ففد عرفته بأنه الانقطاع من امتلاء الخوف. أي أن الرعب حالة أشد من الخوف، وذلك من امتلأ القلب خوفاً. قال تعالى في عقوبة الخوف: ﴿**وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون**﴾[٤] .

وقد استعمل الخوف في الأمور الدنيوية والأخروية[٥] . قال تعالى: ﴿**يرجون رحمته ويخافون عذابه**﴾[٦] والتخويف من الله سبحانه هو الحث على الابتعاد عن المعاصي والحث على فعل الطاعات[٧] . ولذلك قيل: لا يعد خائفاً من لك يكن للذنوب تاركاً[٨] .

وقيل: وكل واحد إذا خفته هربت منه إلا الله، فإنك إذا خفته هربت إليه[٩] .

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٢.
(٢) انظر معالم التنزيل، البغوي (٢/ ٢٣٥).
(٣) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ص١٦١، ١٦٢.
(٤) سورة النحل، الآية: ١١٢.
(٥) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ص١٦١، ١٦٢.
(٦) سورة الإسراء، الآية: ٥٧.
(٧) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ص١٦١، ١٦٢.
(٨) (٩) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٢/ ٥٧٧).

أما المراد بالقرية المذكورة ففيها وجوه :

١- المراد مكة المكرمة . قال الرازي : وأكثر المفسرين على هذا ، فقد أصابها الله بالقحط في فترة من الزمن بعد أن كانت الأرزاق تأتيها من كل مكان . ومع هذا فقد ضعف الرازي هذا القول بحجة أن المثل مضروب لمشركي مكة كي يعتبروا فكيف تضرب مكة مثلاً لأهلها؟[1] .

والذي أميل إليه أن هذا ممكن ـ أي تضرب مكة مثلاً لأهلها ـ فالمثل القريب المحسوس أشد تأثيراً من المثل البعيد الغائب .

٢- وقيل القرية مضر : فقد دعا رسول الله ﷺ على مضر ، فأصابهم الله بنقص الأموال والثمرات والخوف[2] .

٣- إنها قرية مفترضة لا على التعيين[3] . ورجح هذا الرازي[4] .

والذي أميل إليه من هذه الأقوال الثلاثة : الأول ، وهو أنها مكة ، وذلك لأن أكثر المفسرين عليه ، ثم إنه ورد عن ابن عباس ومجاهد وابن زيد وقتادة وعطية وغيرهم . قال صاحب روح المعاني ، ولعله المختار[5] .

التاسع : الذلة والمسكنة والغضب :

قال تعالى : ﴿**وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون**﴾[6] .

---

(١) انظر التفسير الكبير ، الرازي (٢٠/ ١٢٣) .
(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٢/ ٦١٠) .
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي (١٠/ ١٩٤ ، ١٩٥) .
(٤) انظر التفسير الكبير ، الرازي (٢٠/ ١٢٧ - ١٣٠) .
(٥) روح المعاني ، الآلوسي (١٤/ ٢٤٣) .
(٦) سورة البقرة ، الآية : ٦١ .

يقرر سبحانه أنه عاقب اليهود ثلاث عقوبات وهي :

١ - الذلة : ﴿وضربت عليهم الذلة﴾ ، والضرب هنا الإلزام ، أي ألزموا الذلة وهي شدة الالتصاق بهم ، مأخوذة من ضرب القباب[١] .

والذل : ما كان عن قهر ، وهو ضد العز . قال تعالى : ﴿واخفض لهما جناح الذل﴾[٢] أي لِنْ وانقد لهما . والذل من الإنسان لنفسه محمود وممدوح . قال تعالى : ﴿أذلةَ على المؤمنين﴾[٣] .

قال صاحب المنار : الذلة خلق يضاد العزة ، وصاحبه يحتمل الضيم ويسكت عليه[٤] ، وفي تفسير الذلة المذكورة في الآية أقوال :

١ - قيل عن الحسن أنها الجزية[٥] . وهذا القول ضعيف لعدم فرض الجزية عليهم وقتئذ .

٢- وقيل الذلة هنا الصغار والخضوع[٦] .

٣- وقيل ذهاب السلطان بتسلط قوم آخرين ، بحيث تذهب شوكة المعاقبين[٧] .

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي (١/ ٤٣٠) .
(٢) سورة الإسراء ، الآية : ٢٤ .
(٣) سورة المائدة ، الآية : ٥٤ ، وانظر مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الأصفهاني ١٨٠ ، ١٨١ ، وانظر بصائر ذوي التمييز ، الفيروز آبادي ٣/ ١٧ ، ١٨) .
(٤) انظر تفسير المنار ، رشيد رضا (١/ ٣٣١ ، ٣٣٢) .
(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي (١/ ٤٣٠) .
(٦)انظر غريب القرآن وتفسيره ، أبو عبد الرحمن عبد الله بن يحيى بن المبارك اليزيدي ٧١ ، طبعة عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ، وانظر التفسير الكبير ، الرازي (٣/ ١٠٢) .
(٧) انظر التفسير الكبير ، الرازي (٣/ ١٠٢) .

والذي أميل إليه أن الذلة المضروبة هي الصغار والخضوع؛ لأنه يوافق المعن الاصطلاحي للذلة، والصغار أمر جامع لكل أنواع الإذلال. ولذا يكون القول الثالث أي أنه ذهاب السلطان هو أحد أفراد الإذلال، والله تعالى أعلم.

أما العقوبة الثانية في الآية فهي: المسكنة وهي من السكون، وهو ثبوت الشيء بعد تحرك، وسمي السكين بذلك لإزالته حركة المذبوح.

ومن المسكنة المسكين وهو الذي لا شيء له، وهو أبلغ من الفقير[1]. وقيل عكس ذلك[2].

والمسكنة: الخضوع والذلة وقلة المال والحال السيئة. واستكان خضع، والمسكنة فقر النفس. وقد تقع المسكنة على الضعف[3].

وجاء في تفسيرها أقوال:

ـ المسكنة: الفقر[4].

ـ وقيل المسكنة: الفقر الذي يسبب الذل والصغار[5]. وقال ابن المبٰرك اليزيدي: المسكنة: الحاجة[6]، قال الإمام الرازي: هذا إخبار عن غيب، فقد أصيبوا بالفقر والذلة فيما بعد[7].

---

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ٢٣٦، ٢٣٧.
(٢) انظر لسان العرب، ابن منضور (١٣/ ٢١٥ - ٢١٨).
(٣) انظر المصدر السابق.
(٤) نظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ٣٤٠)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (٣/ ١٠٢).
(٥) انظر جامع البيان، الطبري (١/ ٢٥٠).
(٦) انظر غريب القرآن وتفسيره، ابن المبارك اليزيدي ص٧١.
(٧) انظر التفسير الكبير، الرازي (٣/ ١٠٢).

وكما هو ملحوظ فالأقوال كلها تدور حول الفقر الذي يجعل صاحبه ذليلاً، ولا تعارض بينها.

ـ أما العقوبة الثالثة فهي في الآية الغضب، قال تعالى: ﴿**وباؤوا بغضب من الله**﴾.

والبواء: مساواة الأجزاء في المكان. وباء فلان بدم فلان أي ساواه.

ويستعمل البواء في مكافأة المصاهرة والقصاص. فيقال: فلان بواء لفلان إذا ساواه، وباء بغضب من الله أي حل مَبْوأ[١].

والغضب: ثوران دم القلب إرادة الانتقام. وهو من المخلوقين محمود إن كان في الحق، ومذموم إن كان في الباطل. أما غضب الرب سبحانه فهو إنكاره على من عصاه فيعاقبه. وهو يغضب لا كأحد من مخلوقاته عز وجل[٢].

قال القرطبي: الغضب من الله سبحانه إرادة العقوبة[٣].

* **فائدة**:

وبما أن الغضب صفة من صفاته عز وجل، أود ذكر مذهب أهل السنة في باب صفات الله سبحانه وأسمائه.

القاعدة في ذلك: إثبات ما أثبته الله لنفسه ـ في كتابه العزيز وفي ما ثبت من سنة رسوله الكريم ـ ونفي ما نفاه عن نفسه فيهما.

---

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ٦٩.
(٢) انظر بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٤/ ١٣٥).
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ١٥٠).

وطريقة الصحابة وسلف الأمة في ذلك إثبات من غير تكييف ولا تمثيل وتنزيه له سبحانه من غير تحريف ولا تعطيل. قال تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾[1] ففي قوله تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ رد على من يشبّه الله بمخلوقاته ويمثله بهم عز وجل، وفي قوله تعالى: ﴿**وهو السميع البصير**﴾ رد على من ألحد وعطل أسماء الله وصفاته.

فهو سميع وبصير بلاشك، ولكنه يسمع ويبصر لا كسمع وإبصار أحد من مخلوقاته. وما قلته هنا ينطبق علي جميع الصفات، والتي منها الغضب الذي نحن بصدده.

والقاعدة الثانية عند سلف الأمة في باب الأسماء والصفات: الإثبات المفصل والنفي المجمل، وهذا هو منهج القرآن، آنظر في الإثبات كيف فصّل سبحانه فقال: ﴿**هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم**﴾[2].

وانظر في النفي: قال تعالى: ﴿**فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً**﴾[3]، أي هل تعلم له نظيراً يستحق مثل اسمه، وعن ابن عباس: ﴿**هل تعلم له سمياً**﴾ مثيلاً أو شبيهاً. وكذلك قوله تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء**﴾[4].

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٢) سورة الحشر، الآية: ٢٣.
(٣) سورة مريم، الآية ٦٥.
(٤) سورة الشورى، الآية: ١١.

فنرى أن طريقة القرآن في الأسماء والصفات الإثبات المفصل، والنفي المجمل[1].

فهاتان قاعدتان رئيستان في ذلك وددت ذكرهما في هذا الموضع لبيان موقف سلف الأمة عند وقوفهم عند مثل ما وقفنا عليه كقوله تعالى: ﴿**وباؤوا بغضب من الله**﴾ (انتهت الفائدة).

قال صاحب روح المعاني: الغضب حل بهم بما أنزله الله عليهم من البلاء والنقم في الدنيا، أو بما تحقق لهم من العذاب في العقبى، أو بما كتبت عليهم من المكاره[2].

ـ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين**﴾[3].

هذه الآية تبين أن الغضب والذلة عقابان نزلا بالذين عبدوا العجل وهم قوم موسى. ذكر الإمام الشوكاني أن المذكورين في الآية هم نفس الذين عاصروا موسى، ورجح هذا القول الذي يقابل قول القائلين بأن المذكورين هم ذراري أولئك الذين عاصروا موسى الذين عبدوا العجل.

وفُسر الغضب المذكور في الآية بأنه قتل أنفسهم حيث قال تعالى: ﴿**وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم**﴾[4].

---

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيميه، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد العاصمي النجدي الحنبلي (٣/ ٣ - ١٦)، طبع دار العربية، بيروت، صورة الطبعة الأولى، سنة ١٣٩٨هـ.
(٢) روح المعاني، الآلوسي (١/ ٢٧٦).
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٢.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٥٢. انظر فتح القدير، الشوكاني (٢/ ٢٥٠).

والآية تصرح بأن العقاب نزل عليهم في الدنيا، ولا حجة لمن جعل العقاب في الدنيا والآخرة[1].

العاشر: الكبت:

قال تعالى: ﴿**إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبتوا الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين**﴾[2].

الكبت في هذه الآية عقوبة لمن حادّ الله ورسوله. والكبت: الصرف والإذلال. كبته صرعه وأخزاه. وأصل الكبت الكبد، قلبت الدال تاء، والعلاقة بينهما أن الكَبِد موضع الغيظ والحقد[3].

قال الفيروز آبادي: ﴿**كبتوا كما كبت الذين من قبلهم**﴾ قال الفراء: غيظوا وأحزنوا يوم الخندق[4].

في هذه الآية يعاقب سبحانه الذين يحادون الله ورسوله، أي يقفون في الطرف الآخر الذي يقابل طرف حزب المؤمنين وذلك ليصدوا عن سبيل الله.

وجاء في معنى الكبت المذكور في الآية أقوال:

- عن السدي كبتوا أي لعنوا. وعن أبي عبيدة والأخفش: أهلكوا. وعن قتادة: أخزوا كما أخزي الذين من قبلهم. وعن ابن زيد: عذبوا.

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٢٥٩)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (١٥/ ١٢، ١٣)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧/ ٢٩١، ٢٩٢)، و انظر تفسير المنار، رشيد رضا (٩/ ٢١١).

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٥.

(٣) انظر اقاموس المحيط، الفيروز آبادي ٢٠٢.

(٤) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي ٤٠/ ٣٢١).

وكلها أقوال متقاربة ولا تضاد بينها[1] .

وحدد بعض المفسرين مكان الكبت، كما سبق ذكر قول الفراء بأنه يوم الخندق.

وقيل يوم بدر، والأكثرون عى أنه الخندق[2] . واقتصر الطبري عليه فلم يذكر غيره[3] . وبناء على هذه الأقوال يكون المراد بالآية المشركين. ولا دليل لمن قال بأن المراد هم المنافقون.

الحادية عشر : الضنك :

قال تعالى : ﴿**ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى**﴾[4] . العيشة الضنك عقوبة منه عز وجل لمن أعرض عن ذكره.

والضنك : الضيق. تقول ضنك عيشه أي ضاق[5] . قال الشاعر :

إن المنيـــــة لـــو تُـمـثَّـل مـــثلت

مـــــثلي إذا نـــزلـوا بضـنك المـنـزل

وجاء في تفسير الضنك أقوال وهي :

١ - ضنكاً : أي عيشة ضيقة. وهذا موافق للمعنى اللغوي. قال

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٧/ ٢٨٨)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ٣٤٥)، وانظر فتح القدير، الشوكاني (٥/ ١٨٥، ١٨٦).
(٢) انظر روح المعاني، الآلوسي (٢٨/ ٢٢).
(٣) انظر جامع البيان، الطبري (٢٨/ ١١)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٧/ ٢٨٨).
(٤) سورة طه، الآية : ١٢٤ .
(٥) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ص ٢٩٩ .

الرازي: والكافر بالله يكون حريصاً على الدنيا طالباً للزيادة، فعيشته ضنك وحالته مظلمة. أهـ[1].

٢- وقيل الضنك: الكسب الحرام. وهذا الوجه منقول عن عكرمة[2].

٣- وقيل الضنك: عذاب القبر. وهذا رجحه القرطبي[3].

ونسب ابن كثير تفسيره بعذاب القبر إلى بعض الصحابة كأبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وخطأ ابن كثير من رفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، وقال إن وقفها على أبي سعيد أصح. ولكنه جوّد سند رواية أخرى مرفوعة إلى رسول الله ﷺ حيث قال: ﴿**فإن له معيشة ضنكاً**﴾ قال: عذاب القبر[4].

٤- وقيل الضنك: طعام الضريع والزقوم[5].

والذي أميل إليه ما قاله ابن كثير رحمه الله وهو أنه عذاب القبر. وذلك لورود أثر إسناده جيد يبين ذلك، وهذا ما اختاره القرطبي رحمه الله[6].

الثانية عشر: ضيق الصدر:

قال تعالى: ﴿**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون**﴾[7].

---

(١) انظر التفسير الكبير، الرازي (٢٢/ ١٣٠)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١١/ ٢٥٨).
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٧/ ٢٥٩).
(٣) انظر المصدر السابق.
(٤) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ١٧٧).
(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٧/ ٢٥٩)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (٢٢/ ١٣٠، ١٣١).
(٦) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٧/ ٢٥٩).
(٧) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

جاءت عقوبة ضيق الصدر في هذه الآية لمن ضلوا، فأراد الله سبحانه أن يزيدهم ضلالاً وعذاباً.

وصف سبحانه صدر المعاقَب بأنه ضيق حرج، وهو الصدر الذي لا يتسع لشيء من الحق[1]. وعن الزجاج: الحرج هو أضيق الضيق ومعناه ضيق جداً[2]. الحرج من الحَرْجة وهي الغيْضة[3].

وعن ابن عباس: الحرج موضع الشجر الملتف. فكأن قلب الكافر لا تصل إليه الحكمة كما لا تصل الراعية إلى الموضع الذي التف شجره[4].

وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً من كنانة عن الحرجة؟ فقيل له: هي الشجرة تكون بين الأشجار لاتصل إليها راعية ولاوحشية ولا شيء، فقال عمر رضي الله عنه: كذلك قلب الكافر لا يصل إليه شيء من الخير[5].

وأما قوله تعالى: ﴿كأنما يصعد في السماء﴾ ففيه وجهان:

١- المعنى إن عملية الإيمان بالنسبة للكافر كعملية الصعود إلى السماء، وهذا في غاية الصعوبة[6].

٢- إن قلبه يكاد يصعد إلى السماء نُبُوّاً - بعداً - عن الإيمان[7].

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ١٨١).
(٢) التفسير الكبير، الرازي (١٣/ ١٨٣).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧/ ٨١).
(٤) المصدر السابق.
(٥) انظر التفسير الكبير، الرازي (١٣/ ١٨٣).
(٦) المصدر السابق.
(٧) المصدر السابق.

والراجح الأول: أي أن دخـول الإيمان إلى ذلك القلب الضيـق الذي يشبه الحرجة كتكلف صعود السماء. وهذا لما في صعود السماء من الصعاب[1].

الثالثة عشر: الإركاس:

قال تعالى: **﴿فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾**[2].

جاء في سبب نزول هذه الآية عدة روايات أحدها: أنها نزلت في الذين رجعوا قبل بدء معركة أحد، وهم ثلث جيش المسلمين، وهؤلاء كانوا أتباع المنافق ابن أبي بن سلول. فانقسم المسلمون فئتين في حكم جواز قتلهم.

وفي رواية أخرى أنها نزلت في قوم من المنافقين كانوا في مكة، وكانوا يظاهرون المشركين، وخرجوا يوماً من مكة، فسمع بهم المسلمون، فانقسموا فئتين اختلفتا في حكم قتل أولئك المنافقين، وفي سبب نزولها ستة أقوال ذكرها الإمام الرازي رحمه الله[3]. واختار الطبري أنها نزلت في قوم في مكة ارتدوا عن الإسلام[4].

وعلى أي وجه من الوجوه فإن العقوبة جاءت للمنافقين وهي الإركاس.

---

(١) انظر تفسير المنار، رشيد رضا (٨/ ٤٣).
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٨.
(٣) انظر التفسير الكبير، الرازي (٩/ ٣١٨، ٣١٩)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٤٥).
(٤) انظر جامع البيان، الطبري (٥/ ١٩٤، ١٩٥).

والإركـــاس من ركس، وهـو قلب الشيء على رأســـه ورد أوله على آخره[1] .

وقـال الرازي: الـركس والنكس والمركـوس والمنكوس شيء واحـد. ويقال للروث الركس لأنه رُدَّ إلى حالة خسيسة[2] .

وفي تفسير الإركاس أقوال هي:

١- الإركاس: الإيقاع، وهذا منسوب إلى ابن عباس رضي الله عنه.

٢- وعن قتادة: الإركاس: الإهلاك.

٣- وعن السدي: الإركاس: الإضلال.

٤- وقال الرازي: ومعنى الآية أن الله ردهم إلى أحكام الكفار من الذل والصغار والسبي والقتل[3] .

٥- قال الفيروز آبادي: أركسهم أي ردهم إلى كفرهم[4] .

أما قوله تعالى: ﴿بما كسبوا﴾ فهو بيان أن ما حصل لهم من عقوبة الإركاس إنما هو بسبب ما اكتسبوه من الذنوب[5] .

---

(١) انظر معجم مقياس اللغة، أحمد بن فارس (٢/ ٣٧٩)، وانظر بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٣/ ٩٧).

(٢) انظر التفسير الكبير، الرازي (٩/ ٣١٨، ٣١٩).

(٣) انظر التفسير الكبير، الرازي (٩/ ٣١٨، ٣١٩)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٤٥، ٥٤٦)، وانظر روح المعاني، الآلوس (٥/ ١٠٨).

(٤) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٣/ ٩٧).

(٥) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٤٥، ٥٤٦)، وانظر التفسير القيم (٢٢٦، للإمام ابن قيم الجوزية، جمع محمد أويس الندوي، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

الرابعة عشر : الصرف عن آيات الله :

قال تعالى : ﴿**سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين**﴾[1] .

الصرف لغة : رد الشيء عن وجهه . وصارف نفسه عن الشيء : صرفها عنه .

والصرف : التقلب والحيلة . يقال فلان يصرف الأمور ، والصرف : الفضل[2] .

وجاء في تفسير الصرف وجهان :

١- سأمنعهم من فهم الكتاب[3] .

٢- سأمنعهم من الاعتبار بالبراهين والحجج[4] .

ورجح الإمام الطبري القول بأن الله سبحانه أخبر أنه سيصرف عن آياته وهي أدلته على أحقية ما أمر به عباده . وكل مخلوقاته آيات وبراهين على صدق ذلك . والقرآن الكريم آية من آياته فأخبر سبحانه أنه سيصرف عن كل هذا الذين يتكبرونَ في الأرض بغير الحق[5] .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٤٦ .

(٢) انظر لسان العرب ، ابن منظور ، (٩/ ١٨٩ - ١٩٢) .

(٣) انظر جامع البيان ، الطبري (٩/ ٦٠) ، وانظر الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي (٧/ ٢٨٣) ، وانظر تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٢/ ٢٥٧) .

(٤) انظر المصادر السابقة .

(٥) انظر جامع البيان ، الطبري (٩/ ٦٠) .

ثم بيّن سبحانه أن هؤلاء المتكبرين : ﴿وإن يروا سبيل الرشد لا يتخوذه سبيلاً﴾ .

والرُّشْد والرَّشَد لغة : خلاف الغيّ. ويستعمل استعمال الهداية(١) .

وقال القرطبي : الرشد لغة ظفر الإنسان ما يريد، وهو ضد الخيبة .

والرُّشْد والرَّشَد لغتان بمعنى واحد. قال عمرو بن العلاء : إذا جاء الرشد وسط الآية فهو مُسكّن وإذا جاء في رأس الآية ـ آخرها ـ فهو محرك، نحو قوله تعالى : ﴿وهيء لنا من أمرنا رشَداً﴾(١) .

وبعد هذا يكون المعنى : إن المذكورين إن يروا سبيل الهداية والصلاح تركوه، وإن يروا سبيل الغي سلكوه .

وبعد : فهذا ما وفقني الله إليه من بيان أنواع العقاب المعنوي في القرآن الكريم، وقد مهدت لذلك ببيان المراد بلفظ (المعنوية) وبينت الفرق بينها وبين (الحسية). وذكرت أن الانفصال التام بين العقوبات غير صحيح، وإنما هو من باب تسهيل البحث، وهو أمر عام، وذلك بسبب الروابط بين المادة والروح، والحس والعقل .

ثم شرعت ببيان أشكال العقاب المعنوي بشكل تفصيلي ومن ذلك :

الختم والطبع على القلوب والإركاس، واللعن : والصرف عن آيات الله، وغيرَ ذلك. وقد بلغ عددها أربع عشرة عقوبة. نسأل الله أن ينجينا منها، وأن يوفقنا للعمل بما يرضيه .

---

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ص١٩٦ .
(٢) سورة الكهف، الآية : ١٠ ، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧/ ٢٨٣، ٢٨٤).

المبحث الثالث:

العقوبات الحسية في القرآن الكريم

في هذا المبحث أستعرض العقوبات الحسية في القرآن الكريم، والتي تقابل المعنوية، ولفظ الحسية نسبة إلى الحس، وهو القوة التي تدرك بها الأعراض الحسية[1]، وذلك عن طريق الحواس الخمس: السمع، البصر، الشم، الذق، اللمس[2].

ولفظ الحسية مستعمل لدى الأقدمين، ويراد به الأمر الذي يُشْعَر به ويُحس به عن طريق الحواس، ومن هذا يمكن القول إن المراد بالعقوبات الحسية هي تلك التي أدركها من وقعت عليهم بحواسهم من رؤية بالعين، أو لمس بالجلد أو سمعوها بالآذان وما إلى ذلك، وقد تكون هذه مجتمعة، بل هو الغالب من حالها؛ لأن عقاب الله شديد، ومن شدته على المعاقَب أن يشعر به بكل حواسه. ومثال ذلك الصيحة فهي تسمع بالآذان، ولكن قد يصحبها مطر وريح أو نار أو برد أو حجارة أو سيل من الماء.

يقول الراغب الأصفهاني: أحسسته، فحقيقته أدركته بحاستي، قال تعالى: ﴿فلما أحسّ عيسى منهم الكفر﴾[3]، فهذا تنبيه على أنه قد ظهر منهم الكفر ظهوراً بان للحس فضلاً عن الفهم[4]. أهـ.

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ص١١٦.
(٢) انظور القاموس المحيط، الفيروز آبادي ص٦٩٣، وانظر بصائر ذوي التمييز له (٢/ ١٥٣).
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٢.
(٤) انظر مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ص١١٦.

وألفت النظر هنا إلى أن هناك ألفاظاً للعقوبات مشتركة تشمل الحسية والمعنوية، ولكن لغلبة استعمالها في الحسية أوردتها في هذا المبحث. مثال ذلك الرجس ففي أصل تعريفه: هو الشيء المستقذر معنوياً كان أو حسياً، ولكنه استعمل في القرآن الكريم في الأشياء الحسية غالباً.

والعقوبات الحسية أبلغ في المعاقبين؛ وذلك لإمكانية إدراك الجميع لها، أما المعنوية فقد لا يدركها البعض ويعتقد أنها طبيعة فيه، كما مر معنا في المبحث السابق عند قول اليهود: ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾، فمعناه في أحد الوجوه أنهم يقولون إن قلوبنا لا تعي الحق، وفي الوجه الثاني أنهم يقولون إن قلوبنا أوعية للعلم فلا تحتاج لغيرها، وعلى كلا الوجهين نلحظ أن الإدراك للعقوبة فيه مزاعم ومبررات يقدمها المعاقبون - رغم بطلانها - ولكنها مداخل لهم لعدم إدراكها، أما العقوبات الحسية فكل من نزلت بحقهم أجمعوا - إن أدركوا الحياة بعدها - على أنها عقاب منه عز وجل، كما حدث لفرعون وغيره من الأمم.

وبعد هذه المقدمة يجدر بنا أن نشرع فيما نحن بسبيله من الكلام تفصيلاً عن أشكال العقاب الحسي التي وردت في القرآن الكريم.

الأولى: الصاعقة:

قال تعالى: **﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾**(١).

عقوبة الصاعقة أُخذَ بها في هذه الآية بنو إسرائيل، فقد طلبوا من نبيهم موسى عليه السلام رؤيَةَ الله جهرة فنزلت عليهم الصاعقة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٥٥.

قال الراغب: الصاعقة والصاقعة يتقاران وهما الهدة الكبيرة.

ولكن الصاعقة تستعمل في الأجسام الأرضية، والصاقعة في الأجسام العلوية. وقال بعض أهل اللغة: تستعمل الصاعقة على ثلاثة وجوه:

الأول: الصاعقة بمعنى الموت، ومنه قوله تعالى: ﴿**فصعق من في السموات ومن في الأرض**﴾[1].

الثاني: الصاعقة العذاب. ومنه قوله تعالى: ﴿**أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود**﴾[2].

الثالث: الصاعقة النار، ومنه قوله تعالى: ﴿**ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء**﴾[3].

والحق أن الصاعقة هي الصوت الشديد من الجو، وما ذكروه من أنها العذاب، أو النار، أو الموت، هي تأثيرات من الصاعقة[4].

ونقل القرطبي عن الخليل قوله: الصاعقة الواقعة الشديد من صوت الرعد[5]، وللعلماء في المراد بالصاعقة الواردة في الآية أقوال:

١- قيل هي الموت. ودليل من قال بذلك قوله تعالى: ﴿**فصعق من في السموات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله**﴾[6]. وضعّف الرازي هذا القول بدليل

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.
(٢) سورة فصلت، الآية: ١٣.
(٣) سورة الرعد، الآية: ١٣.
(٤) انظر مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ص٢٨١.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ٢١٨).
(٦) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

قوله تعالى: ﴿وخر موسى صعقاً﴾[1]. ومعلوم أن موسى عليه السلام لم يمت بعد صعقه، فقد رجع إلى قومه. وكذلك ضعّفه بقوله تعالى: ﴿فاخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾. والعبارة الأخيرة من الآية الكريمة تدل على أنهم كانوا ينظرون ولم يموتوا. وبهذا يكون القول بأن الصاعقة هي الموت ضعيف[2].

٢- وقيل: الصاعقة أمر عظيم يسبب لمن يحدث له ذهولاً، وذهاب عقل، أو ذهاب بعض حواسه. قال الطبري بعد إيراده هذا القول: وقد تكون الصاعقة ناراً أو صوتاً أو زلزلة أو رجفاً.. إلخ[3].

٣- ذكر القرطبي عن ابن عباس أن الصاعقة نار تخرج من في الملك عند اشتداد غضبه[4].

٤- وعن أبي زيد: الصاعقة نار تسقط من السماء مع الرعد الشديد[5].

والمحققون ـ كما قال الرازي ـ على أن الصاعقة هي سبب الموت، وقريب منه ما ذكرته عن الراغب الأصفهاني آنفاً. وذلك لورود ذكرها في القرآن الكريم على أحوال كالنار، والصوت الشديد وغيره[6].

وقد وردت هذه العقوبة في عدة مواضع من القرآن الكريم لا حاجة للإطالة بذكرها هنا.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.
(٢) انظر التفسير الكبير، الرازي (٣/ ٨٦)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ٢١٨، ٢١٩).
(٣) انظر جامع البيان، الطبري (١/ ٢٣٠).
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ٢١٨، ٢١٩).
(٥) انظر المصدر السابق.
(٦) انظر التفسير الكبير، الرازي (٣/ ٨٦).

الثانية : الرجــز :

قال عز وجل : ﴿**فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون**﴾[1] .

عقوبة الرجز في هذا الموضع جاءت لبني إسرائيل كذلك .

وأصل الرجز الاضطراب . ولذلك سمي المنشد راجزاً لاضطراب لسانه[2] .

وقال الفيروز آبادي : الرجز ـ بالكسر والضم ـ : القَذَر ، وعبادة لأوثان ، والعذاب ، والشرك[3] . وقال القرطبي : الرجز والرجس واحد[4] .

وللعلماء في تفسير الرجز هنا وجوه هي :

١ - الرجز : العذاب . وهذا منسوب إلى ابن عباس والضحاك . وقال ابن عباس : كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب . وهكذا روي عن مجاهد وأبي مالك والسدي وغيرهم[5] .

وممن قال بأن الرجز : هو العذاب ابن قتيبة رحمه الله[6] .

٢ - القول الثاني : الرجز الغضب . وهذا منسوب لأبي العالية[7] .

---

(١) سورة البقرة، الآية : ٥٩ .
(٢) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ص١٨٧ ، ١٨٨ .
(٣) القاموس المحيط، الفيروز آبادي ص٦٥٧ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ٤١٧).
(٥) انظر تفسير القران العظيم، ابن كثير (١/ ١٠٣)، وانظر العمدة في غريب القرآن، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي ص٤٦ ، طبع مؤسسة الرسالة ، بيروت، دون تاريخ.
(٦) انظر تفسير غريب القرآن، ابن قتيبة ص٥٠ .
(٧) انظر تفسير القرآن لعظيم، ابن كثير.

٣- وقيل الرجز الطاعون أو البرد، وهذا منسوب للشعبي، ووافقه ابن جبير[1].

والذي أميل إليه أن الرجز لفظ يطلق على معان عدة، كما قال الفيروز آبادي، فهو يطلق على العذاب - كما هو في هذه الآية - وقد يكون العذاب طاعوناً أو برداً أو غير ذلك. ولكنه يأتي في مواضع من القرآن الكريم معان أخرى.

قال تعالى: ﴿**وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان**﴾[2] والرجز هنا الوسوسة والخواطر السيئة[3].

الثالثة: الرجس:

قال تعالى: ﴿**قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين**﴾[4].

الرجس، بالكسر: القَذَر والمأثم، وكل ما استقذر من العمل، وكل عمل يؤدي إلى العذاب، والشك، والعقاب، والغضب[5].

والرجس على أربعة أنواع:

١- إما من حيث الطبع كأكل الأوساخ والقاذروات. فهذه مستقذرة طبعاً.

---

(١) انظر المصدر السابق.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ١١.
(٣) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٣٠٤).
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٧١.
(٥) انظر القاموس المحيط، الفيروز آبادي ص٧٠٦.

٢- وإما من جهة العقل كالشي الذي عرف ضرره عقلاً مثل الخمر.

٣- وإما من جهة الشرع، كالخمر كذلك.

٤- وإما من كل ذلك. كالميتة فهي مستقذرة طبعاً وعقلاً، ومحرمة شرعاً[١]. فالرجس يطلق على ما استقذر حسياً أو معنوياً[٢].

أما المراد الرجس في هذه الآية:

- فعن ابن عباس، الرجس: السخط[٣].

- يقول الطبري: قال هود لقومه قد حل بكم عذاب وغضب من الله[٤].

- وقيل عني بالرجس الرَّيْن على القلب بزيادة الكفر[٥].

- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وما كان لنفس أن تؤمن إلاّ بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون**﴾[٦].

وجاء في تفسير الرجس في هذا الموضع وجوه:

١- قيل: الرجس العمل القبيح. ورجح هذا الرازي[٧].

٢- وقيل: العذاب. واستبعده الرازي بحجة أن الرجس يطلق على ما يستقذر وحمْله على كفرهم وجهلهم أولى من حمله على عذاب الله سبحانه.

---

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ١٨٨، وانظر بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٣/ ٣٧).
(٢) انظر التفسير الكبير، الرازي (١٧/ ١٦٨)، وانظر تفسير المنار، رشيد رضا (٨/ ٤٩٩).
(٣) انظر جامع البيان، الطبري (٨/ ٢٢٣).
(٤) انظر المصدر السابق.
(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧/ ٢٣٧).
(٦) سورة يونس، الآية: ١٠٠.
(٧) انظر التفسير الكبير، الرازي (١٧/ ١٦٨)، وانظر تفسير المنار، رشيد رضا (٨/ ٤٩٩).

٣- الرجس : النجاسة . أي أن الله حكم بنجاستهم . وكذلك استبعده الرازي بحجة أن حكم الله صفة له ، فلا يجوز أن يقال صفة الله رجس .

ومع أني أميل إلى ما رجحه الرازي وهو القول الأول : أي أن الرجس العمل القبيح من كفرهم وجهلهم . ولكني لا أميل إلى الأدلة التي قدمها ـ رحمه الله ـ؛ لأن الرجس يطلق على العذاب لغة واصطلاحاً ـ كما قدمت في تعريف الرجس ـ، ولكني أرجح ما قاله بسياق الآيات فقد قال تعالى في الآية التي قبلها : ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾[1] . فالحديث عن الإيمان ، وفيه تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام بألا يحزن ، فلو شاء ربك بجعل الناس كلهم مؤمنين ، ثم قال تعالى : ﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلاّ بإذن الله﴾[2] ، وكذلك هذه العبارة تتحدث عن الإيمان ، وتؤكد ما سبق من أن القلوب بيد الرحمن يقلّبها كيف يشاء ، ثم ذكر سبحانه الجانب المقابل للإيمان فقال : ﴿ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾[3] والطرف المقابل هو الكفر والضلال ، ولاشك أن الكفر والضلال أمران قبيحان ، والله تعالى أعلم .

الرابع : المسخ :

قال تعالى : ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾[3] . هذه الآية تتحدث عن عقوبة المسخ إلى قردة ، وقد جاءت في معرض الحديث عن بني إسرائيل الذين اعتدوا منهم في السبت .

---

(١) سورة يونس ، الآية : ٩٩ .
(٢) سورة يونس ، الآية : ١٠٠ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٦٥ .

وجاء لفظ المسخ في مواضع من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿**ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون**﴾[1].

المسخ لغة: تحويل الصورة إلى أقبح[2].

وقال الراغب: المسخ، تشويه الخَلْق والخُلُق وتحويلهما من صورة إلى صورة.

وقال بعض الحكماء: المسخ ضربان:

- مسخ خاص يحصل في الفينة - الساعة والحين - وهو مسخ الخَلْق.

- ومسخ قد يحصل في كل زمان وهو مسخ الخُلُق، وذلك أن يصير الإنسان متخلقاً بخلق ذميم من أخلاق بعض الحيوانات نحو أن يصير في شدة الحرص كالكلب، وفي الشره كالخنزير وفي الغمارة كالثور. أهـ[3].

وقال القرطبي: المسخ تبديل الخلقة وقلبها حجراً أو جماداً أو بهيمة[4].

وتعريف الراغب أعم من تعريف القرطبي؛ لأنه جعل المسخ ممكن الحصول في الخَلْق والخُلُق. أما العقوبة التي حصلت للذين اعتدوا في السبت، فقد صرح بها القرآن وهي المسخ قردة. وفي المسخ إلى قردة قولان:

١ - مسخوا قردة على الحقيقة. فصارت لهم أجسام قردة تعوي ولها أذناب.

---

(١) سورة يس، الآية: ٦٧.
(٢) القاموس المحيط، الفيروز آبادي ٣٣٢.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ٤٦٨، وكذلك بصائر ذوي التميز، الفيروز آبادي ٤/ ٥٠٦.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٥/ ٥٠).

قال الطبري: وعلى هذا جمهور المفسرين ومنهم ابن عباس وقتادة والسدي[1].

٢- مسخت قلوبهم ولم تمسخ صورهم. وهذا القول مروي عن مجاهد رحمه الله.

وقال القرطبي: لا يُعلم غيره ـ أي مجاهد ـ قال بهذا[2].

ودليل القائلين بمسخ القلوب لا الصور قوله تعالى: ﴿**كمثل الحمار يحمل أسفاراً**﴾[3] أي أن المسخ هنا بمعنى الختم والطبع.

والصحيح الأول لما أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: . . . فقال رجل: يا رسول الله، القردة والخنازير هي مما مسخ؟ فقال النبي ﷺ: «إن الله عز وجل لم يهلك قوماً أو يعذب قوماً فيجعل لهم نسلاً، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك. أهـ[4].

وهذا الحديث دليل لقول الجمهور؛ لأنه يصرح بأن المسخ كان على الحقيقة، وذلك أن كلام رسول الله يدور حول عدم تناسل من مسخت صورهم. إذ لو توالدوا لقال قائل إن الإنسان اليوم أصله قرد ـ كما زعم داروين ـ وهذه هي نظرية داروين في التطور الإنساني، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام صرح بأنه ما من قوم يعاقبهم الله بالمسخ إلاّ ماتوا دون

(١) انظر جامع البيان، الطبري (١/ ٣٢٩ - ٣٣٢)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ٤٤٣).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ٤٤٣).
(٣) سورة الجمعة، الآية: ٥.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر (٤/ ٢٠٥١).

توالد، وهذا التصريح لا فائدة فيه لو كان المسخ بالقلب لا بالصورة؛ لأنه أمر غير مرئي وغير منضبط.

قال النووي رحمه الله: يقصد الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله: «قبل ذلك» أي قبل مسخ أصحاب السبت[1].

وأما قوله تعالى: ﴿**خاسئين**﴾ أي مبعدين وصاغرين[2].

ـ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**قل هل أؤنبئكم بشرّ من ذلك مثوبة عند الله مَنْ لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبدَ الطاغوت أولئك شرٌّ مكاناً وأضل عن سواء السبيل**﴾[3].

وموضع الشاهد في الآية قوله تعالى: ﴿**وجعل منهم القردة والخنازير**﴾.

أما المسخ إلى قردة فقد سبق القول فيه. وأما المسخ إلى خنازير ففيه ثلاثة وجوه:

١ - إن امرأة من بني إسرائيل كانت على بقية من الإسلام وكانت تسكن في قرية ملك القوم، وأجمع هؤلاء على الهلكة، ولكن امرأة صالحة دعت رجالاً ووعظتهم، ثم أمرتهم بالخروج، فلحق بهم الملك وقتلهم جميعاً إلاّ المرأة فنجت. ثم دعت رجالاً إلى الحق مرة أخرى، وحدث لهم كما حدث في المرة الأولى، وتكرر ذلك ثلاث مرات. وأخيراً جلست المرأة حزينة ثم أصبحت فرأتهم قد صاروا خنازير، وهذا رواه الطبري بسنده إلى أبي أيوب

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ٢١٤)، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ.
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ٤٤٣).
(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٠.

الأنصاري رضي الله عنه[1] .

٢- قيل الذين مسخوا خنازير هم كفار المائدة التي أنزلها الله على عيسى وقومه[2] .

٣- وقيل : مسخ شبان الذين اعتدوا في السبت قردة، ومسخ مشايخهم خنازير[3] .

ـ ومن ذلك قوله تعالى : **﴿وإذ قالت أمة لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون . فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون . فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾**[4] .

في هذه الآيات جاء تفصيل زائد لقصة أصحاب السبت، فهي تبين أن حواراً حدث بين جماعات من أصحاب السبت انقسموا بعد حادثة المعصية .

وجمهور المفسرين ـ كما قال القرطبي ـ على أن أهل تلك القرية انقسموا بعد معصية السبت إلى ثلاث فرق[5] . وهذه الفرق الثلاث هي :

الأولى : التي ارتكبت المعصية بالتحايل على أمر اللَّه، فبعد أن أمرهم الله بعدم الصيد يوم السبت، قاموا يحبسون الحيتان يوم السبت، وفي اليوم التالي يصطادونها، وهذا هو عين التحايل المحرم . وامتحنهم الله سبحانه بأن

---

(١) انظر جامع البيان، الطبري (٦/ ٢٩٣) .
(٢) انظر التفسير الكبير، الرازي (١٢/ ٣٦)، وانظر روح المعاني، الآلوسي (٦/ ١٧٥) .
(٣) انظر المصدرين السابقين .
(٤) سورة الأعراف، الآياتك ١٦٤ - ١٦٦ .
(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧/ ٣٠٧ - ٣٠٩)، وانظر تفسير القرآن لعظيم، ابن كثير (٢/ ٢٦٨، ٢٦٩)، وانظر تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي (١/ ٥٨٤) .

أرسل الحيتان يوم السبت شُرَّعاً ـ أي ظاهرة على الماء بكثرة ـ ثم إذا جاءت الأيام التالية صعب عليهم صيدها. وضعف القرطبي قول من يزعم أن بعضهم كان يصطاد الحيتان يوم السبت[1].

الثانية: قوم منهم قاموا ونهوا أصحاب المعصية عن السوء.

الثالثة: قوم قالوا للناهين عن المنكر لم تعظوهم؟ وهؤلاء هم الذين قال فيهم تعالى: ﴿**وإذ قالت أمة منهم لم تعظمون قوماً الله مهلكهم أومعذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون**﴾. والذي أميل إليه قول الجمهور لأن السياق يؤيده.

والآيات تبين أنه سبحانه أنجى الناهين عن المنكر، وعاقب المذنبة بالمسخ. ولكن الخلاف بين العلماء في مصير الفرقة الثالثة:

ـ فقيل إنها هلكت مع المذنبة[2]. وقيل بل نجت[3].

سبق القول أن الجمهور قسّم أصحاب السبت إلى ثلاث فرق. والقول الآخر أنهم فرقتان: **الأولى**: العاصية[4].

الثانية: الناهية عن المنكر[5].

وذكر القرطبي عن ابن عباس أن قرية أصحاب السبت اسمها أيلة[6].

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧/ ٣٠٧ - ٣٠٩).
(٢) انظر المصدر السابق.
(٣) انظر المصدر السابق، وانظر تفسير القرآن الجليل المسمى: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي (١/ ٥٨٤).
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧/ ٣٠٧ - ٣٠٩).
(٥) انظر المصدر السابق.
(٦) المصدر نفسه.

الخامس : الطمس :

قال تعالى : ﴿**يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما أنزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً**﴾[١] .

في هذه الآية تحذير لأهل الكتاب من الإعراض عن الإيمان بما أنزل مصدقاً لما معهم، وقد حذرهم سبحانه من عقوبتين إحداهما : اللعن، وهو اللعن المعروف .

قال الرازي : وعليه أكثر المحققين . وقد سبق الحديث عن اللعن[٢] .

أما العقوبة الأخرى فهي الطمس : إزالة الأثر بالمحو[٣] .

وقال القرطبي : الطمس : استئصال أثر الشيء[٤] .

وقال الرازي : الطمس المحو[٥] . هذا في تعريف الطمس لغة . ولكنهم اختلفوا في تفسير الطمس في هذه الآية .

١ - فقيل الطمس رد الوجوه حقيقة، أي إزالة ما في الوجه من عيون وغيرها ثم تحويلها إلى القفى[٦] .

---

(١) سورة النساء، الآية : ٤٧ .

(٢) راجع إن شئت ص ٦٤ .

(٣) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ٣٠٧ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٤٤، ٢٤٥) .

(٥) التفسير الكبير، الرازي (١٠/ ١٢١، ١٢٢)، وانظر القاموس المحيط، الفيروز آبادي ٧١٥ .

(٦) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٠)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٤٤، ٤٤٥)، وانظر التفسير الكبر، الرازي (١/ ١٢١، ١٢٢)، وانظر البحر المحيط، أبو حيان (٣/ ٢٦٦)، وانظر جامع البيان، الطبري (٥/ ١٢١)، وانظر تفسير المنار، رشيد رضا (٥/ ١٤٤ - ١٤٦) .

٢- وقيل إن الطمس هنا مجاز وليس حقيقة، ولكنهم قالوا ثلاثة وجوه في هذا المجاز:

- قيل: طمسها عن الحق وردها إلى الضلال. وهذا مروي عن الحسن. كقوله تعالى: ﴿**وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه**﴾[1] وكقوله تعالى: ﴿**واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه**﴾[2].

- وقيل: قلب احترام رؤوسائهم إلى ذلة ومهانة معنى أن الوجوه في الآية هم كبراء القوم[3].

٣- وقيل: هو وعيد لليهود بإجلاء بني قريظة والنضير إلى الشام، ورد وجوههم - أي ذهابهم - إلى أذرعات وأريحاء[4].

ذكر القرطبي عن المبرد: إن هذا الوعد سيتحقق يوماً ما قبل يوم القيامة ولابد من طمس اليهود[5].

وذكر الراغب الأصفهاني أن البعض قال: إن الطمس المذكور هو في يوم القيامة، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**وأما من أوتي كتابه وراء ظهره**﴾[6].

والصواب من هذه الأقوال ما قاله الطبري - رحمه الله - : إن الطمس على الحقيقة لا على المجاز؛ لأن الله سبحانه بين في الآية السابقة أن عيب

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٤. وانظر التفسر الكبير، الرازي (١/ ١٢١، ١٢٢).
(٣) انظر التفسير الكبير، الرازي (١/ ١٢١، ١٢٢).
(٤) انظر المصدر السابق.
(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٤٤، ٢٤٥).
(٦) سورة الانشقاق، الآية: ١٠، وانظر مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ٣٠٧.

هؤلاء هو عدم الاهتداء فقال: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة﴾، ثم أمرهم سبحانه بالإيمان بالكتاب الذي جاء مصدقاً لما معهم قبل أن يطمس وجوههم.

وعلى قول من قال: إن الطمس رد إلى الضلالة، يكون الأمر رد من الضلالة إلى الضلالة وهذا فاسد[1].

السادسة: تحريم الطيبات:

قال تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾[2].

يبين سبحانه في هذه الآية أن بسبب ظلم الذين هادوا حرم عليهم أموراً كانت حلالاً لهم.

ذكر ابن كثير رحمه اللّه عن ابن عباس رضي الله عنه أن هذا التحريم قد يكون قدرياً بمعنى أنهم تأولوا الآيات وحرموا ذلك على أنفسهم من نفسهم، وقد يكون تحريماً شرعياً بمعنى أنه أنزل عليهم سبحانه تحريم ذلك[3].

والمراد بالذين هادوا الذين صاروا يهوداً، أو هي نسبة إلى يهوذا، وهو أكبر ولد يعقوب. وقيل من هاد أي: تاب، وذلك عندما تابوا عن عبادة العجل[4].

---

(١) انظر جامع البيان، الطبري (٥/ ١٢٣).
(٢) سورة النساء، الآية: ١٦٠.
(٣) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ١٩٢، ١٩٣).
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ٤٣٢، ٤٣٣).

وأما ما حرم علي هؤلاء من الطيبات فقد جاء مفصلاً في سورة الأنعام. قال تعالى: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلاّ ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾[1]. وقد فصّل المفسرون كالقرطبي وغيره هذه المحرمات وملخصها:

حرّم سبحانه عليهم البهائم التي لا تكون أصابعها مشقوقة كالإبل، وحرم عليهم الطير ما لم يكن أصبعها مشقوقاً كالأوز والبط، فهذه ليست مشقوقة الأصابع، وحرم عليهم شحوم الإبل والغنم إلاّ ما علق في ظهرها.

واستثنى سبحانه كذلك ما حملته الحوايا وما اختلط بعظم. وفي تفصيل ذلك كلام يطول المقام بذكره[2]. والقصد أنه عز وجل ضيق على اليهود بسبب ظلمهم، بأن حرم عليهم طيبات كانت حلالاً لهم، حيث قال عز من قائل: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾.

ومن فضل الله تعالى على أمة الإسلام أنه لم يحرم عليها طيباً أحله لها، وهذا دليل على أن الأمة الإسلامية خير الأمم، ونبيها خير الأنبياء، فالحمد لله على فضله.

السابعة: التفرق:

قال تعالى: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾[3].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٦.

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧/ ١٢٤ - ١٢٦)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (١٣/ ٢٢٣، ٢٢٤)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ١٩٢، ١٩٣)، وانظر تفسير المنار، رشيد رضا (٦/ ٥٩، ٦٠).

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٤.

العـداوة والبـغـضـاء بين أبناء الـدين الواحـد عـقـاب أنزله الله عـلى أهل الكتـاب في هذه الآية، وكـان من نتـائج ذلك: الفرقة والتحزب الذي يضيع قدرات الأمم.

ولفظة ﴿فاغرينا﴾ تحمل من البلاغة الشي الكثير. فقد جاء في تفسيرها:

ـ أغرينا أي هيجنا[1]. وقيل ألصقنا وهو: من الغـراء، وهذ المادة التي تستعمل في لصق الأشياء ببعضها كالصمغ وغيره. واختار هذا القول الإمام الرازي[2]. وهذا التفسير يبين شدة حب القوم للعداء والخلاف.

ـ وقيل أوقعنا[3].

ـ وعن النحاس قال: ومن أحسن ما قيل في معنى ﴿فأغرينا بينهم العداوة﴾ أن الله عـز وجل أمر بعـداوة الكفـار وبغـضـهـم، فكل فـرقـة مـأمورة بعـداوة صاحبتها، قال الطبري رحمه الله: ﴿فأغرينا بينهم﴾ حرشنا بينهم وألقينا، كما تغري الشيء بالشيء. ثم ذكر الطبري أن العلماء اختلفوا في صفة إغراء الله بينهم العداوة والبغضاء على قولين:

١ - كان الإغراء بالأهواء والخصومات في الدين.

٢ - كان الإغراء بالعداوة والبغضاء التي بينهم.

وأولى التأويلين عند الإمام الطبري الأول هو: أنهم اختلفوا بالأهواء،

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ١١٧).
(٢) انظر التفسير الكبير، الرازي (١/ ١٨٨، ١٨٩).
(٣) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٣٥).

كـمـا اخـتلفـوا في قـولهم في المسيح، فـصـاروا بعـد ذلك فـرقـاً وأحـزاباً كالنسطورية، واليعقوبية، والـمَلْكية، وغيرها[1] .

وأما الضمير في قوله تعالى: ﴿بينهم﴾ ففيه قولان:

١- الضمير يعود على اليهود والنصارى.

٢- الضمير يعود على النصارى فقط[2] .

وأولى القـولين عند الإمـام الطبري الثـاني أي أن الضـمـيـر يعـود على النصـارى، وحجته في ذلك أن الله سبحانه تقصى خبر اليهود في الآيات السابقة، وابتدأ بالنصارى في هذا الموضع[3] .

- ومن هذا قوله تعالى: **﴿وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم . وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك...﴾**[4] .

أما في هذه الآية فعقوبة التفرق جاءت بلفظ ﴿**وقطعناهم**﴾ وهي تعني فرقناهم[5] .

والقطع لغـة: الإبانة[6]. والقطع يكون مدركاً بالبصر، كقطع اللحم. ومنه قوله تعالى: ﴿**فاقطعوا أيديهما**﴾[7] .

---

(١) انظر جامع البيان، الطبري (٦/ ١٥٨ - ١٦٠).
(٢) المصدر السابق، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ١١٧)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (١١/ ١٨٨، ١٨٩).
(٣) جامع البيان، الطبري (٦/ ١٥٨ - ١٦٠).
(٤) سورة الأعراف، الآيتان: ١٦٧، ١٦٨.
(٥) انظر معالم التنزيل، البغوي (٢/ ٢٠٩)، وانظر فتح القدير، الشوكاني (٢/ ٢٠٦).
(٦) انظر القاموس المحيط، الفيروز آبادي ٩٧١.
(٧) سورة المائدة، الآية: ٣٨.

ويكون مدركاً بالبصيرة. نحو قطع الطريق وهذا على وجهين:

١- قطع يراد به السير.

٢- قطع يراد به غصب المارة. ومن هذا قوله تعالى: ﴿أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل﴾[١]. وسمى قطع الطريق لأنه يؤدي إلى انقطاع الناس عن الطريق[٢].

وفي بيان كيفية تقطيعهم: فعن ابن عباس رضي الله عنه: في كل أرض يدخلها قوم من يهود. أي جماعات متفرقين[٣].

- وقيل: لا توجد أرض إلاّ وفيها من هؤلاء، لعظم ما قطعهم الله في الأرض. وهذا هو الغالب من حال اليهود[٤].

- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾[٥].

- الخطاب في هذه الآية للمسلمين، وهذا في كل ما رجعت إليه من كتب التفسير[٦].

ولكن اختلفت وجهات العلماء في كون الخطاب في الآية عام لكل المسلمين أم لفئة خاصة منهم:

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٩.
(٢) انظر بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٤/ ٢٨٢، ٢٨٣).
(٣) انظر جامع البيان، الطبري (٩/ ١٠٤).
(٤) التفسير الكبير، الرازي (١٥/ ٤٢).
(٥) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.
(٦) انظر المصدرين السابقين.

١ - فقيل هي في أهل بدر اقتتلوا يوم الجمل. وهذا مروي عن السدي. وقال الحسن: نزلت في علي وعمار وطلحة والزبير يوم الجمل[١].

٢- وقيل هي عامة لكل المسلمين، فعن ابن عباس: أمر الله المؤمنين ألاّ يقروا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بعذاب. أهـ[٢].

والحق أني لم أجد - فيما اطلعت عليه - ترجيحاً مشفوعاً بأدلة قوية. ولكني أميل إلى قول ابن كثير حيث قال: والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم - ، وإن كان الخطاب معهم - هو الصحيح. ويدل عليه النصوص والآثار الواردة في التحذير من الفتن. أهـ[٣].

الثامنة: الاستبدال بقوم آخرين:

قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين...**﴾ الآية[٤].

هذه الآية تظهر إعجاز القرآن وأنه من عند رب العالمين. فهي تتحدث عن قوم لم يكونوا موجودين وقت نزولها. وهم المرتدون[٥].

واختلف العلماء في المراد بالذين استبدلهم اللّه بالمرتدين:

١ - فقيل: أبو بكر الصديق رضي الله عنه. فقد قام بقمع حركة الردة في جزيرة العرب بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام[٦].

---

(١) انظر الجامع لأحكام لقرآن، القرطبي (٧/ ٣٩١ - ٣٩٣).
(٢) تفسير القرآن بدعظيم، ابن كثير (٢/ ٣١١).
(٣) المصدر السابق.
(٤)سورة المائدة، الآية: ٥٤.
(٥) انظر جامع البيان، الطبري (٦/ ٢٨٢، ٢٨٣)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٢١٩)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٧٢، ٧٣)، وانظر تفسير المنار، رشيد رضا (٦/ ٤٣٥، ٤٣٦).
(٦) انظر المصادر السابقة.

٢- وقيل: هم الأشعريون أقرباء أبي موسى الأشعري، فقد كان لهم فضل كبير بعد اللَّه تعالى في نصرة الإسلام أثناء خلافة عمر رضي الله عنه. وقال الطبري رحمه الله: أهل اليمن هم الأشعريون؛ لأن أصل الأشعريين من اليمن. ورجح هذا الوجه الطبري(١).

٣- وقيل أهل فارس، وقل الأنصار، وقيل غير ذلك(٢).

٤- وقال الشيعة هو علي رضي الله عنه، عندما قاتل المرتدين ـ يقصدون الصحابة ـ الذين اغتصبوا الخلافة منه. وهذا القول أورده الرازي وأطال في الرد على الرافضة ليثبت أن المقصود بالآية هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه(٣).

ولم أجد فيما اطلعت عليه دليلاً لأيّ من الأقوال المذكورة. وهي أقوال تحدد أشخاصاً أو قوماً معينين، وهذا يحتاج إلى نص.

والذي أميل إليه: أن الآية ذكرت أن قوماً سيرتدون عن دينهم وسيستبدل الله بالمرتدين آخرين يحمون هذا الدين، ويدافعون عنه، فالقول بأن كل من دافع عن الإسلام، وثبت على دين الله وقت فتنة الرده هو مقصود بهذه الآية، هو الذي أميل إليه. فالآية تشمل الخلفاء وكل الصحابة، وكل المؤمنين الذين نافحوا عن هذا الدين في كل زمان وحين، والله تعالى أعلم.

---

(١) انظر جامع البيان، الطبري (٦/ ٢٨٢، ٢٨٣).
(٢) انظر جامع البيان، الطبوي (٦/ ٢٨٢، ٢٨٣)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٢١٩)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٧٢، ٧٣)، وانظر تفسير المنار، رشيد رضا (٦/ ٤٣٥، ٤٣٦).
(٣) انظر التفسير الكبير، الرازي (١٢/ ٢٠، ٢١) و(١٦/ ٦١)، (٢٨/ ٧٥، ٧٦).

التاسعة : الغرق :

قال تعالى : ﴿**واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون**﴾[1] . ﴿**حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلاّ من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل**﴾[2] .

عاش نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، ولم يؤمن معه إلاّ قليل، ثم أوحى إليه سبحانه أنه لن يؤمن منهم أحد سوى الذين آمنوا، فدعا ربه بإهلاكهم، فأمره بصناعة الفلك لحمل الناجين. وجعل سبحانه لنوح علامة لبداية عملية إغراق قوم نوح الكافرين، والعلامة كانت فوران التنور.

والغرق : الرسوب في الماء وغيره[3] .

وأغرق الله قوم نوح بإرسال السماء مداراً، وبتفجر ينابيع الأرض، حتى تشكل طوفان هائل حمل سفينة نوح ومعه المؤمنون، وزوجين من كل حيوان، ثم هبطت السفينة بحفظ الله ورعايته بسلام بعد إقلاع السماء عن الهطول وابتلاع الأرض الماء. وكما قلت كانت علامة البدء لنوح فوران التنور : ﴿**حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور**﴾ .

وفار : من الفور وهو شدة الغليان. ويقال هذا في النار إذا هاجت، فتقول فارت النار إذا هاجت، وكذلك في القدر تقول فار القدر إذا غلى ما فيه. وكذلك في الغضب[4] .

---

(١) سورة هود، الآية : ٣٧.
(٢) سورة هود، الآية : ٤١.
(٣) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٤/ ١٣٠).
(٤) انظر مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ٣٨٦، ٣٨٧، بتصرف.

واختلف العلماء في معنى التنور :

١- فقيل التنور : وجه الأرض، والعرب تطلق على وجه الأرض التنور . وهذا القول مروي عن ابن عباس[١] .

٢- وقيل التنور هو : الفرن المعروف لصناعة الخبز . وعلى هذا جمهور السلف وعلماء الخلف[٢] .

٣- وقيل موضع اجتماع السفينة بالماء، أي مكان التقائهما[٣] . وقيل غير ذلك .

والذي أميل إليه ما عليه الجمهور هو ما رجحه الرازي[٤] من أن التنور هو الفرن المعروف لصناعة الخبز؛ وذلك لأن اللفظ يحمل على الحقيقة ما أمكن .

وجاء تفصيل عملية الغرق في موضع آخر حيث قال تعالى : ﴿**ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر**﴾[٥] . يقول سبحانه : ﴿**ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر**﴾ ومنهمر : مصبوب، من قولهم همره : صبه . والهمرة : الدفعة من المطر . وانهمر المطر : انسكب وسال[٦] .

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٤٦٠، ٤٦١)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٩/ ٣٣، ٣٤).

(٢) انظر المصدرين السابقين.

(٣) انظر المصدرين السابقين.

(٤) انظر التفسير الكبير، الرازي (١٧/ ٢٢٦).

(٥) سورة القمر، الآيات : ١١ - ١٣ .

(٦) القاموس المحيط، الفيروز آبادي ٦٣٩، ٦٤٠، مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ٥٤٥ .

وقال الرغب: الهمر: صب الماء[1] .

وفي تفسير الآية قال الطبري: «ماء منهمر» ينصب انصباباً[2] .

وعن ابن عباس: ﴿**فتحنا أبواب السماء بماء منهمر**﴾ من غير سحاب لم يقلع أربعين يوماً[3] . وقيل: منهمر أي كثير[4] .

قال الرازي: فالمطر في الطوفان كان بحيث يقول القائل: فتحت أبواب السماء، فلاشك أن المطر من فوق كان في غاية الهطلان. أهـ[5] .

وفي قوله تعالى: ﴿**ففتحنا أبواب السماء**﴾ قال الرازي: مقرونة ﴿**بماء منهمر**﴾ والانهمار الانسكاب والانصباب صباً شديداً، والتحقيق فيه أن المطر يخرج من السماء خروج مترشح من ظرفه، وفي ذلك اليوم كان يخرج خروج مرسل خارج من باب. أهـ[6] .

ـ وفي قوله تعالى: ﴿**وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر**﴾ .

﴿**وفجرنا الأرض عيوناً**﴾ أي أسلنا الأرض عيون الماء[7] .

وعبارة: ﴿**وفجرنا الأرض عيوناً**﴾ أكثر بلاغة من القول وفجرنا عيون الأرض، وذلك أن قولنا ضاق زيد ذرعاً فيه إثبات ما لايثبته قولنا ضاق ذرع زيد[8] .

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ٥٤٥ .
(٢) جامع البيان، الطبري (٢٧/ ٩٢).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٧/ ١٣١، ١٣٢).
(٤) المصدر السابق.
(٥) التفسير الكبير، الرازي (٢٩/ ٣٧).
(٦) المصدر السابق.
(٧) جامع البيان، الطبري (٢٧/ ٩٢).
(٨) انظر التفسير الكبير، الرازي (٢٩/ ٣٧).

يقول ابن كثير: ﴿وفجرنا الأرض عيوناً﴾ أي: نبعت جميع أرجاء الأرض حتى التنانير التي هي محال النيران نبعت عيوناً[١]. ثم قال تعالى: ﴿فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾ أي فالتقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قدره الله تعالى وقضاه[٢].

وقيل: أي على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر[٣].

ثم قال تعالى: ﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر﴾ أي: وحملنا نوحاً على سفينة ذات ألواح ودسر[٤].

والدسر لغة: الدفع الشديد بقهر. يقال دسره بالرمح أي دفعه بشدة.

والدسر جمع دسار، وهو المسمار الذي تشد به السفينة[٥].

وفي تفسير الدسر أقوال:

١- قيل دسر: أي مسامير، هي المسامير التي شدت بها السفينة[٦].

٢- وقيل الدسر: صدر السفينة ووصفه بذلك؛ لأنه يدفع الماء أمامه ويدسره[٧].

٣- وقيل الألواح: جانبا السفينة والدسر طرفاها[٨].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ٢٨٢).
(٢) جامع البيان، الطبري (٢٧/ ٩٢).
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٧/ ١٣٢).
(٤) جامع البيان، الطبري (٢٧/ ٩٢).
(٥) انظر مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ١٦٩.
(٦) انظر جامع البيان، الطبري (٢٧/ ٩٣، ٩٤).
(٧) المصدر السابق، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٧/ ١٣٢).
(٨) انظر جامع البيان، الطبري (٢٧/ ٩٣، ٩٤).

٤- وعن الليث: الدسار خيط ليف تشد به ألواح السفينة[١].

قال الآلوسي: والدسر المسامير هوقول الجمهور. وكلها أوصاف تقوم مقام الموصوف. أهـ[٢].

وعقوبة الغرق جاءت لقوم فرعون كذلك. والمستقرئ لكتاب الله سبحانه يجد أن الله عز وجل خص هذا الطاغية الكبير فرعون بعدد أكبر من الآيات. ومن ذلك قوله تعالى: **﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين. الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين فاليوم نُنَجِّيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾**[٣].

أوردت كتب التفاسير قصة إغراق فرعون وقومه، وملخصها:

استجاب سبحانه لموسى وهارون لإهلاك فرعون وقومه. فقد أوحى سبحانه لموسى بالرحيل عن مصر مع بني إسرائيل ليلاً. وسمع فرعون بمسير القوم فجمع جيوشه ثم تبعهم. وعندما وصل موسى وقومه البحر أوحى الله عز وجل إلى موسى بضرب الماء بعصاه؛ فانفلق البحر وفُتح فيه طريق، أو اثنا عشر طريقاً ـ قولان[٤] ـ والاثنا عشر على عدد أسباطهم، فعبر موسى ومن معه إلى الحافة الأخرى وعندما وصل فرعون وجيشه اندفع إلى العبور، فلما صاروا جميعاً في الطريق الجديد أطبق الله عليهم الماء فغرقوا جميعاً.

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٧/ ١٣٢).
(٢) روح المعاني، الآلوسي (٢٧/ ٨٢، ٨٣).
(٣) سورة يونس، الآيتان: ٩٠، ٩١.
(٤) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٤٤٥، ٤٤٦) وانظر مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي (٢/ ٥٧٠).

وفي تلك اللحظة من الرعب الشديد قال فرعون: ﴿آمنت أنه لا إله إلاّ الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾. وهذا لم ينفعه فمات كافراً[1]. عن ابن عباس قال: إن رسول الله ﷺ ذكر أن جبرئيل جعل يدس في فيّ فرعون الطين، خشية أن يقول: لا إله إلاّ الله فيرحمه الله، أو خشية أن يرحمه الله. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه[2].

وأما قوله تعالى: ﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾. ذكر ابن كثير عن ابن عباس وغيره من السلف أن بني إسرائيل أرادوا التأكد من موت فرعون بعد غرقه فحمله الماء ـ بأمر الله ـ إلى الساحل فرأوا جثته فاطمأنوا[3].

وفي قوله تعالى: ﴿ننجيك﴾ قولان:

١ ـ نلقيك على نجوة من الأرض. وهو المكان المرتفع[4].

٢ ـ أي نخلصك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ولكن بعد أن تغرق[5].

والأول أولى لأنه يوافق المعنى اللغوي. قال الراغب: النجوة والنجاة: المكان المرتفع المنفصل بارتفاعه عما حوله. ونجيته: تركته بنجوة[6].

---

(١) لمعرفة القصة تفصيلاً: انظر المصدرين السابقين، وانظر التفسير الكبير، الرازي (١٧/ ١٥٤ ـ ١٥٧)، وانظر معالم التنزيل، البغوي (٢/ ٣٦٦، ٣٦٧).

(٢) الجامع الصحيح، سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، كتاب التفسير، تفسير سورة يونس (٥/ ٢٦٨)، طبع دار الكتب لعلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ظاهر هذا الحديث مشكل إذ كيف يفعل هذا جبريل ـ عليه السلام ـ لمنعه من نطق الشهادة؟ وقد ناقش العلماء هذا فليرجع إليه في موضعه. انظر مثلاً: تفسير الخازن (٣/ ١٦٩)، وفتح القدير (٢/ ٤٧٤)، وروح المعاني (١١/ ١٨٢، ١٨٣) وغيرهم.

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٤٤٥، ٤٤٦).

(٤) انظر معالم التنزيل، البغوي (٢/ ٣٦٦، ٣٦٧)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (١٧/ ١٥٤ ـ ١٥٧).

(٥) انظر التفسير الكبير، الرازي (١٧/ ١٥٤ ـ ١٥٧).

(٦) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ٤٨٣، ٤٨٤.

وأما قوله تعالى: ﴿**ببدنك**﴾ ففيه وجوه:

١- قيل: بدناً بلا روح.

٢- وقيل إنجاء البدن كاملاً سوياً.

٣- وقيل ننجي بدنك عار بلا لباس.

٤- ببدنك أي بدرعك، وذلك حتى يعرف بأنه فرعون، والعرب تطلق على الدرع البدن.

قال ابن كثير: ولا تعارض بين هذه الأقوال ويمكن أن تكون حالة واحدة[1].

- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**فأتبعوهم مشرقين . فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون . قال كلا إن معي ربي سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثَم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين**﴾[2].

ذكرت في بداية مبحث الغرق قصة غرق فرعون باختصار. أما هذه الآيان ففيها تفصيل هذا الحادث الجلل. والذي تضيفه هذه الآيات:

قال تعالى: ﴿**فأتبعوهم مشرقين**﴾ فأتبعوهم أي لحقوهم. و﴿**مشرقين**﴾ ورد في معناها:

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، و ابن كثير (٢/ ٤٤٥، ٤٤٦)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (١٧/ ١٥٤ - ١٥٧).

(٢) سورة الشعراء، الآيات: ٦٠ - ٦٦.

- عن السدي: ﴿مشرقين﴾ أي حين أشرقت الشمس بالشعاع.

- وعن قتادة: حين أشرقت الأرض بالضياء.

وقال الزجاج: يقال شرقت الشمس إذا طلعت وأشرقت إذا أضاءت[1].

وأما قوله تعالى: ﴿تراء الجمعان﴾ أي رأى كل فريق الآخر. والفريقان هما: فرعون وجنوده، وموسى وقومه، فعندما رأى كل واحد منهما الآخر ﴿قال أصحاب موسى إنا لمدركون﴾ أي قرب العدو ولا طاقة لنا به[2]. وفي مثل هذه المواقف يظهر فضل الأنبياء على غيرهم بقوة الإيمان واليقين بالله عز وجل، قال موسى: ﴿كلا إن معي ربي سيهدين﴾ رداً على أصحابه عندما قالوا ﴿إنا لمدركون﴾، فبيّن لهم أن الله معه وسوف يهديه إلى طريق النجاة[3]. والمتخيل لذلك الموقف يرى يقين الأنبياء، فالجيوش التي جاءت من كل أنحاء مصر تطارد بني إسرائيل المستضعفين قربت منهم، ثم إن الفارين وصلوا بحراً فيه ماء، ولا توجد وسيلة، فالجيش من الخلف والماء من الأمام. في هذا الموقف الشديد قال موسى: ﴿كلا إن معي ربي سيهدين﴾. وهذا ما حدث ﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾، فضرب موسى البحر بعصاه فانشق[4]. فتشكلت كتلتان من الماء بينهما طريق، كل كتلة كالطود العظيم. والفرق: الجزء الذي تفرق منه[5]. والطود: الجبل المنطاد في السماء[6]. أي الجبل العظيم العالي[7].

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٣/ ١٠٥)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (٢٤/ ١٣٨).
(٢) لنظر المصدرين السابقين.
(٣) انظر التفسير الكبير، الرازي (٢٤/ ١٣٨).
(٤) انظر معالم التنزيل، البغوي (٣/ ٣٨٨).
(٥) انظر مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي (٢/ ٥٧٠).
(٦) انظر المصدر السابق.
(٧) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٣/ ١٠٥)، انظر التفسير الكبير، الرازي (٢٤/ ١٣٨).

يقـول الآلوسي: والبـحـر ـ المذكـور في الآية ـ هو بحـر القُلْزُم على الصحيح[1].

ثم قال تعالى: ﴿وأزلفنا ثَمّ الآخرين﴾ وفيه ثلاثة وجوه:

١- قربنا قوم فرعون من البحر. وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنه[2].

٢- جمعناهم إلى بعضهم ليسقطوا جميعاً، ومنه ليلة المزدلفة أي ليلة الجمع[3].

٣- أخرناهم وذلك بمجيء سحابة تعطلهم عن الوصول إلى موسى وقومه[4].

ولم أجد فيما رجعت إليه أحداً رجح قولاً منها، ولكن معظم كتب التفسير تذكر الوجهين الأولين. وقد ورد عن مجاهد قال: كان جبريل عليه السلام بين الناس، بين بني إسرائيل وبين آل فرعون فجعل يقول لبني إسرائيل: ليلحق آخركم بأولكم. ويستقبل آل فرعون فيقول: رويدكم

(١) قال ياقوت الحموي: القلزمة: ابتلاع الشيء. وسمي بحر القُلْزُم قُلْزُماً لالتهامه من ركبه، وهو المكان الذي غرق فيه فرعون وآله. أ. هـ. ثم شرع بوصف مكان البحر وحدوده بكلام طويل حتى قال: هذا صفة القلزم قديماً. أمّا اليوم فهو خراب يباب وصارت الفرضة موضعاً قريباً منها يقال لها سويس، وهي أيضاً كالخراب ليس بها كثير أناس. أ. هـ. وللاستزادة انظر معجم البلدان، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (٤/ ٣٨٧، ٣٨٨)، طبع دار بيروت ودار صادر، سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
قال مؤلفو المعجم الوسيط: القُلْزُم: بلد قديم بني في موضعه السويس، وبحر القلزم: البحر الأحمر. أ. هـ. المعجم الوسيط أخرجه مجموعة من أساتذة اللغة العربية (٢/ ٧٥٤)، صادر عن مجمع اللغة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية. دون تاريخ.

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٣/ ١٠٥)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (٢٤/ ١٣٨).

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٣/ ١٠٦).

(٤) انظر التفسير الكبير، الرازي (٢٤/ ١٣٨).

ليلحقكم آخركم فقالت بنو إسرائيل: ما رأينا سائقاً أحسن سياقاً من هذا وقال آل فرعون: ما رأينا وازعاً أحسن زعة من هذا[1].

- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون﴾[2].

ذكر ابن كثير وغيره أن موسى عليه السلام أراد أن يضرب البحر بعصاه بعد نجاته ليحول بينه وبين فرعون وقومه، فأمره سبحانه أن يترك البحر ﴿رهواً﴾ وهو من الرهو ومعناه لغة: السكون تقول رها أي سكن[3].

ويستعمل رها بمعنى فتح[4]. ويطلق الرهو على الفتح بين الرجلين، والسير السهل، والمكان المرتفع، والمنخفض[5].

قال الراغب: ﴿واترك البحر رهواً﴾ أي ساكناً. وقيل سعة من الطريق. وهو الصحيح[6]. أهـ. وللمفسرين في معني الرهو أقوال منها:

١- قيل: اتركه على حاله التي كان عليها[7].

٢- وقيل اتركه سهلاً[8].

- وعن ابن عباس: اتركه طريقاً[9]. وكل الأقوال تتفق على أن المراد ترك البحر على حاله ولكن الخلاف حصل تبعاً لتعدد الإطلاقات في معنى الرهو.

---

(١) روح المعاني، الآلوسي (١٩/ ٨٩).
(٢) سورة الدخان، الآية: ٢٤.
(٣) انظر لسان العرب، ابن منظور (١٤/ ٣٤٠).
(٤) انظر الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) ٦/ ٢٣٦٥، تأليف إسماعل بن حماد الجوهري، طبع دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
(٥) انظر القاموس المحيط، الفيروز آبادي ١٦٦٥، ١٦٦٦.
(٦) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ٢٠٤، ٢٠٥.
(٧) انظر جامع البيان، الطبري (٢٥/ ١٢١).
(٨) انظر المصدر السابق.
(٩) انظر المصدر السابق.

العاشر : الرجفة :

قال تعالى : ﴿**فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين**﴾[1] .

هذه الآية تتحدث عن قوم صالح عليه السلام وهو ثمود، وقد عاقبهم الله بالرجفة، والرجفة من الرجف وهو الاضطراب الشديد. ومنه الإرجاف وهو إيقاع الرجفة إما بالفعل وإما بالقول. قال تعالى : ﴿**والمرجفون في المدينة**﴾[2] .

وفي تفسير الرجفة في الآية، قال البعض : الرجفة الزلزلة الشديدة[3] .

وقال آخر : الرجفة هنا : الصيحة الشديدة[4] . وقيل : هي الصيحة التي زلزلت لها الأرض[5] .

وردت الرجفة في القرآن الكريم بأسماء أخرى مثل الطاغية والصيحة . وغير ذلك وسيأتي ذكرها جميعاً في مبحث الصيحة[6] .

وأما قوله تعالى : ﴿**فأصبحوا في دارهم جاثمين**﴾ فهو من الجثوم وهو عدم الحراك، كما يجثم الطير والمعنى خامدين لا حراك بهم[7] .

– ومن ذلك قوله تعالى : ﴿**واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة . . .**﴾[8] .

---

(١) سورة الأعراف، الآية : ٧٨ .
(٢) سورة الأحزاب، الآية : ٦٠ . انظر مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ١٨٩ .
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧/ ٢٤٢) .
(٤) انظر المصدر السابق، وانظر التفسير الكبير، الرازي ١٦٥، ١٦٦ .
(٥) انظر مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي (٢/ ٥٧٠) .
(٦) انظر صفحة ١٤٣ من هذا البحث .
(٧) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧/ ٢٤٢) .
(٨) سورة الأعراف، الآية : ١٥٥ .

عن ابن عباس: إن الله طلب من موسى اختيار سبعين رجلاً من قومه، فطلب هؤلاء السبعون ما لم يحصل لغيرهم من النعم فأخذتهم الرجفة[1].

وعن السدي: طلبوا رؤية الله فأخذتهم الرجفة[2].

الحادية عشر: إمطار الحجارة:

قال تعالى: ﴿**فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد**﴾[3].

هاتان الآيتان تتحدثان عن عقوبة نزلت بقوم لوط عليه السلام. وملخص قصتهم كما وردت في كتب التفسير:

جاء الملائكة لوطاً على هيئة بشر، فظن أنهم ضيوف، وكانوا مليحي الصورة، وكانت فاحشة إتيان الذكران منتشرة في القرية، فقامت زوجة النبي لوط عليه السلام - وكانت مع قومها - بإخبار أهل قريتها بمجيء ضيوف لوط لما رأت من جمالهم، فسارع القوم إلى دار لوط، وخرج يدفعهم عما يريدون من ضيوفه دون جدوى، وهنا قام الضيوف فأخبروه بأنهم رسل الله تعالى. وطمأنوه بأنهم لن يقدروا عليهم، وأبلغوه بأنهم جاؤوا لعقاب أهل هذه القرية، فأمروه أن يخرج بأهله ليلاً، وبعد خروج لوط وأهله ﴿**جعلنا عاليها سافلها**﴾ قال ابن كثير رحمه الله: إن جبريل عليه السلام وضع جناحه، ثم رفع القرية إلى السماء، حتى سمع أهل السماء، نباح كلابهم، ثم قلبها[4].

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٢٣٧، ٢٣٨).
(٢) انظر المصدر السابق.
(٣) سورة هود، الآيتان: ٨٢، ٨٣.
(٤) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٤٧١) وما بعدها، وانظر التفسير الكبير، الرازي (١٨/ ٣٥-٣٩)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٩/ ٧٩ - ٨٤).

وأضاف ابن كثير أن اسم القرية سدوم[1] .

ثم قال تعالى : ﴿**وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود**﴾ . هذا هو العقاب الثاني لقوم لوط، فبعد أن جعل الله عالي قرتهم سافلها أمطرهم بالحجارة .

أما السجيل : فقد اختلف في معناه . قال ابن منظور :

السجيل : حجارة كالمدر . وقيل هو حجر من طين، معرب دخيل وهو من سَنْك وكل[2] أي حجارة وطين . وقال أهل اللغة : هذا فارسي، والعرب لا تعرفَ هذا .

قال الأزهري : والذي عندنا والله أعلم أنه إذا كان التفسير صحيحاً فهو فارسي عرب؛ لأن الله تعالى ذكر هذه الحجارة في قصة قوم لوط فقال : ﴿**لنرسل عليهم حجارة من طين**﴾ ، فقد بين للعرب ما عني بالسجيل . وقال أبو عبيدة : وسجين وسجيل بمعنى واحد . وقال بعضهم : سجيل من أسجلته أي أرسلته فكأنها مرسلة عليهم . قال أبو إسحاق : وقال بعضهم : سجيل من أسجلت إذا أعطيت . قيل من سجلٍّ أي ما كتب لهم . قال : وهذا القول إذا فسر فهو أبينها، لأن في كتاب اللهَ تَعالى دليلاً عليه . قال تعالى : ﴿**كلا إن كتاب الفجار لفي سجين . وما أدراك ما سجين . كتاب مرقوم**﴾[3] . وسجيل في معنى سجين، المعنى أنها حجارة مما كتب الله تعالى أنه يعذبهم بها . قال : وهذا أحسن مامر فيها عندي (انتهى قول ابن إسحاق)

---

(١) ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان أن سدوم لغة فعول من السَّدَم وهو الندم مع غم . ونقل عن ابن منصور أنها مدينة من مدائن قوم لوط ونقل عن الميداني في كتاب الأمثال أن سدوم هي سرمين بلدة من أعمال حلب، وانظر معجم البلدان، ياقوت الحموي (٣/ ٢٠٠).

(٢) الحرف (ک) بالفارسية كتب هكذا ويلفظ مثل (ج) في اللهجة المصرية، انظر مدخل إلى اللغة الفارسية، د. أحمد لواساني، ص١٣، طبع بيروت، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨١م .

(٣) سورة المطففين، الآيات : ٧ - ٩ .

قال ابن منظور وسجله بالشيء: رماه به من فوق[1] أهـ.

وقال الراغب: السجيل حجر وطين مختلط، وأصله فيما قيل فارسي معرب[2]. أهـ.

وكما اختلف اللغويون في معنى السجيل، فقد اختلف المفسرون كذلك اختلافاً كثيراً. فقيل في معناه: سجيل أي شديد. وقيل: سجيل أي طين، بدليل قوله تعالى: ﴿**لنرسل عليهم حجارة من طين**﴾[3]. وقيل حجارة مثل السجل وهو الدلو. وقيل أصلها فارسي معرب ـ كما ذكر أهل اللغة ـ وقيل السجيل الطين حتى يصبح آجراً. وقيل من أسجلته إذا أرسلته والمعنى حجارة مرسلة[4].

قال الإمام الطبري: والصواب من القول في ذلك هو أنها حجارة من طين. وبذلك وصفها الله في كتابه: ﴿**لنرسل عليهم حجارة من طين**﴾[5].

وقال صاحب أضواء البيان: اختلف العلماء في المراد بحجارة السجيل اختلافاً كثيراً، والظاهر أنها حجارة من طين في غاية الشدة والقوة. والدليل على أن المراد بالسجيل الطين قوله تعالى في الذاريات في القصة نفسها: ﴿**لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين**﴾. وخير ما يفسر به القرآن: القرآن. والدليل على قوتها وشدتها أن الله ما عذبهم بها في حالة غضبه عليهم إلاّ لأنّ النكال بها بالغ شديد.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور (١١/ ٣٢٦، ٣٢٧.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ٢٢٤.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ٣٣.

(٤) انظر أحكام القرآن، القرطبي (٩/ ٧٩ - ٨٤)، وانظر الكشاف، الزمخشري (٢/ ٢٨٤)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (١٨/ ٣٥ - ٣٩).

(٥) جامع البيان، الطبري (١٢/ ٩٤).

وأيضاً فإن بعض العلماء قالوا: السجيل والسجين أختان، كلاهما الشديد من الحجارة والضرب. ومنه قول الشاعر:

ورجلة يضربون البيض ضاحية ... ضرباً تواصى به الأبطال سجيناً

وعلى هذا فمعنى ﴿**من سجيل**﴾: أي من طين شديد القوة. والعلم عند الله تعالى[1]. أهـ.

ثم وصف سبحانه الحجارة بوصف آخر وهو قوله تعالى: ﴿**منضود**﴾ وهي من قولهم نَضَدَ متاعه أي جعل بعضه فوق بعض[2].

وقال المفسرون في معنى ﴿**منضود**﴾: قيل: منضود متتابع[3].

وقيل: منضود أي: منضدة بمعنى مرتبة. وقيل متلاصقة حتى صنعت جسماً واحداً. وقيل: مُعدَّة. وقيل مصفوفة[4]. وقيل غير ذلك.

قال الإمام الطبري بعد سرده الأقوال: والصواب من القول في ذلك ما قاله الربيع بن أنس: ﴿**منضود**﴾ قال: نضد بعضه على بعض.

ودليل الطبري أن منضود نعت لسجيل قال تعالى: ﴿**سجيل منضود**﴾، وليست نعتاً للحجارة. لو كان منصوباً كان نعتاً للحجارة لأن «حجارة» منصوبة. وذلك أن القوم أمطروا حجارة من طين، وصفة ذلك الطين أنه نضد بعضه إلى بعض فصير حجارة[5].

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي (٣/ ٣٨، ٣٩).
(٢) مختار الصحاح، محمد بن عبد القادر الرازي ٦٦٤، دار البصائر ومؤسسة الرسالة، بيروت، سنة ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م. ومفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ٤٩٦.
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٧٩ - ٨٤).
(٤) انظر جامع البيان، الطبري (١٢/ ٩٥).
(٥) انظر المصدر السابق.

ثم وصف سبحانه الحجارة فقال: ﴿**مسومة**﴾ قال القرطبي: مسومة أي: معلمة، وهي من السيما أي: العلامة[1]. وقيل: أي لها علامة من ألوان على شكل خطوط حمر وغير ذلك[2].

وقيل مسومة أي مختومة[3]. وقيل مكتوب على كل حجر اسم قتيله. ذكر هذا القرطبي والرازي[4]. وقيل كانت معلمة بأنها لا تشبه حجارة الأرض. وقيل غير ذلك.

والذي أميل إليه: أن الخلاف واسع في معنى مسومة، وإن كانت معظم الأقوال تتفق على أن مسومة جاءت من السيما وهي: العلامة، ولكن الخلاف في كيفية هذه العلامة.

ولما كانت هذه الأقوال ـ التي تحدد ماهية العلامة ـ تفتقر إلى دليل - في حدود علمي ـ كان الرجوع إلى المعاني اللغوية أولى. ومسومة لغة تطلق على معنيين:

الأول: من السيما وهو العلامة[5].

والثاني: مسومة بمعنى مرسلة، وهي في قولهم: سوم فيها الخيل أي أرسلها[6].

---

(١) انظر المصدر السابق، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٩/ ٨٣، ٨٤)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (١٨/ ٣٩).
(٢) انظر المصادر السابقة.
(٣) انظر جامع البيان، الطبري (١٢/ ٩٥).
(٤) انظر المصدر السابق، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٩/ ٨٣، ٨٤)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (١٨/ ٣٩).
(٥) انظر لسان العرب، ابن منظور (١٢/ ٣١٢).
(٦) انظر المصدر السابق.

ويبقى الاختيار بين هذين المعنيي. أما المعنى الأول أنها معلمة، فلا أرى أن في وسم الحجارة بعلامة ما كالخطوط الحمراء والبيضاء وغيرها كبير تأثير، إذ الألم متحقق بالحجارة نفسها، وقد لا يدرك المعذب بها هذه الألوان التي فيها ـ كما قالوا ـ.

أما المعنى الثاني وهو مرسلة، فهو الذي أميل إليه. قال مقاتل: ﴿**مسومة عند ربك**﴾ المعنى أنها جاءت من عند ربك[1]. أهـ.

ذكر ابن كثير أن الإمطار بالحجارة جاء بعد قلب القرية. وذُكرَ في كيفية الإمطار وجهان:

١ - الحجارة رمتهم بعد قلب قريتهم، وذلك لمن نزل من السماء ـ بعد قلب القرية ـ وبقي حياً[2].

٢ - رمت الحجارة من كان خارج القرية منهم عندما ارتفعت في السماء[3].

والذي أرجحه هو الثاني؛ لأن بقاء من صعد في السماء حتى سمع أهلها نباح كلابهم، مع بقاء أحد منهم حياً أمر مستبعد، خاصة وأنه سبحانه قلبها من ذلك العلو، والله أعلم.

---

(١) روح المعاني، الآلوسي (١٢/ ١١٣، ١١٤).
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٩/ ٨٣، ٨٤).
(٣) انظر المصدر السابق.

الثانية عشر: الصيحة:

قال تعالى: ﴿**وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في دارهم جاثمين**﴾[1].

وهذه الآية من سورة هود كذلك، وهذه السورة من أكثر السور تفصيلاً لعقاب الأمم السابقة، فعن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبْتَ. قال: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون، وإذا الشَمس كورت»[2].

والآية التي نحن بصددها جاءت في قصة ثمود قوم صالح عليه السلام. قال تعالى قبلها: ﴿**فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه...**﴾ الآية. والعقاب المذكور في الآية هو الصيحة وقد سبق ذكر هذا العقاب في سورة الأعراف ولكن بلفظ الرجفة.

والصيحة: رفع الصوت، وأصله من تشقيق الصوت، من قولهم انصاح الخشب أو الثوب إذا انشق فمسع منه صوت[3].

قال صاحب روح المعاني: والصياح من صاح يصيح إذا صوت بقوة[4].

أما عقوبة الصيحة فقد جاءت قومَ صالح في اليوم الرابع من قتلهم الناقة. قال تعالى: ﴿**فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب**﴾[5].

---

(١) سورة هود، الآية: ٦٧.

(٢) هذا الحديث آخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، تفسير سورة الواقعة (٥/ ٣٧٥)، قال الألباني صحيح. أهـ. انظر صحيح الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني (٣/ ١١٣)، طبع المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، الناشر مكتب التربية العربي لدول الخليج.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن ا لكريم، الراغب الأصفهاني ٢٨٩.

(٤) روح المعاني، الآلوسي (١٢/ ٩٦).

(٥) سورة هود، الآية: ٦٥، انظر فتح القدير، الشوكاني (٢/ ٥٠٨)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٩/ ٩١).

وسميت الصيحة هذه في موضع آخر بالطاغية. قال تعالى: ﴿**فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية**﴾[1].

والطاغية من الطغيان وهو مجاوزة الحد[2]. وفي تفسير الطاغية أقوال:

- قيل: سميت الطاغية؛ لأنها جاوزت الحد في الأصوات[3].

- وقيل سميت بذلك بسبب طغيانهم[4].

- وقيل الطاغية اسم الرجل الذي عقر الناقة، وأهلكوا جميعاً بسبب موافقتهم إياه[5].

قال صاحب أضواء البيان رحمه الله: وقد اختلف في معنى الطاغية هنا، فقال قوم:

الطاغية عاقر الناقة كما في قوله تعالى: ﴿**كذبت ثمود بطغواها . إذ انبعث أشقاها**﴾[6]. فتكون الباء سببية أي بسبب طاغيتها. وقيل الطاغية الصيحة الشديد التي أهلكتهم. بدليل قوله تعالى: ﴿**إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر**﴾[7]. فتكون الباء آلية، كقولك: كتبت بالقلم وقطعت بالسكين.

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ٥.
(٢) انظر فتح القدير، الشوكاني (٢/ ٥٠٨).
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٩/ ٩١).
(٤) انظر المصدر السابق.
(٥) انظر المصدر السابق.
(٦) سورة الشمس، الآيتان: ١١، ١٢.
(٧) سورة القمر، الآية: ٣١.

والذي يشهد له القرآن هو المعنى الثاني لقوله تعالى: ﴿**وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين . فعتوا عن أمر ربهم فأختهم الصاعة وهم ينظرون**﴾[١]. ولو قيل: لا مانع من إرادة المعنيين لأنهما متلازمان تلازم المسبب للسبب؛ لأن الأول سبب الثاني لما كان بعيداً، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿**فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة**﴾[٢]. فالعتو هو الطغيان في الفعل، والصاعقة هي الصيحة الشديدة، وقد ربط بينهما بالفاء. أهـ[٣].

الثالثة عشر: الريح:

قال تعالى: ﴿**فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون**﴾[٤].

والريح الصرصر: عذاب أرسله الله على قوم عاد. قال تعالى قبلها: ﴿**فأما عاد فاستكبروا.... الآية**﴾.

الصرصر لغة من الصِّرَّة وهي شدة الصوت أو البرد. والصرة والصر في هذين المعنيين واحد. والصرة شد الصياح. وريح صرير شديدة الصوت أو البرد[٥].

وللعلماء في تأويلها وجوه:

- قيل الصرصر الشديد، ويكون المعنى فأرسلنا عليهم ريحاً شديدة[٦].

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٤٣، ٤٤.
(٢) سورة الذاريات، الآية: ٤٤.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي (٨/ ٤٣٩، ٤٤٠).
(٤) سورة فصلت، الآية: ١٦.
(٥) القاموس المحيط، الفيروز آبادي ٥٤٣.
(٦) انظر جامع البيان، الطبري (٢٤/ ١٠١).

- وعن الضحاك: صرير شديدة البرودة[1].

قال الإمام الطبري: وأولى القولين بالصواب: قول مجاهد، وهو أن الصرصر صوت الريح الشديدة الهبوب. أهـ[2].

وقال صاحب أضواء البيان: إن كل هذه الأقوال صحيحة، فالريح التي جاءت جمعت بين شدة الصوت والهبوب والبرد والعصف[3].

والذي أميل إليه قول صاحب الأضواء؛ لأن الريح إذا جمعت كل هذه الصفات كانت أشد إيلاماً للقوم المعاقبين، وعقاب الاستئصال يكون شديداً.

أما قوله تعالى: ﴿في أيام نحسات﴾ ففي معنى نحسات وجوه:

- قيل: نحسات أي مشؤمات. وهذا منسوب لمجاهد وقتادة.

- وقيل: نحسات باردات. وقيل: متتابعات. وقيل: شداد. وقيل: ذات غبار[4].

قال الإمام الطبري: والصواب من القول قول من قال بأن نحسات مشائيم ذات نحوس؛ لأن ذلك معروف في كلام العرب[5]. وأيد صاحب أضواء البيان الطبري[6].

---

(١) انظر المصدر السابق، انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٥/ ٣٤٧).
(٢) انظر جامع البيان، الطبري (٢٤/ ١٠١).
(٣) انظر أضواء البيان، الشنقيطي (٧/ ١٢١ - ١٢٣).
(٤) انظر جامع البيان، الطبري (٢٤/ ١٠٢، ١٠٣)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧/ ١٢١, ١٢٢)
(٥) انظر جامع البيان، الطبري (٢٤/ ١٠٢، ١٠٣).
(٦) انظر أضواء البيان، الشنقيطي (٧/ ١٢١ - ١٢٣).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾[1] .

وصف سبحانه الريح في هذا الموضع بالعقيم. والعقم لغة: هزمة ـ أي نقرة ـ تقع في الرحم فلا تقبل الولد. وريح عقيم يصح أن تكون بمعنى الفاعل وهي التي لا تلقح سحاباً ولا شجراً.

ويصح أن تكون بمعنى المفعول (كالعجوز العقيم) وهي التي لا تقبل أثر الخير. ويوم عقيم لا خير فيه ولافرج[2].

عن قتادة والضحاك وغيرهما أن الريح العقيم: المفسدة التي لا خير فيها[3].

أما قوله تعالى: ﴿إلا جعلته كالرميم﴾ قيل: الرميم البالي[4]. وعن مجاهد كالتبن اليابس. وعن قتادة كرميم الشجر. وعن أبي العالية: كالتراب المدقوق[5] . وقيل غير ذلك[6] .

قال صاحب البصائر: الرِّمُّ: ما يحمله الماء. قال المعلق في الهامش: قال في التاج إن الصواب ما تحمله الريح أو ما على وجه الأرض أو الشيء البالي. أهـ[7] .

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٤١، ٤٢ .
(٢) انظر بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٤/ ٨٦).
(٣) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ٢٥٣، ٢٥٤).
(٤) انظر معالم التنزيل، البغوي (٤/ ١٣٣).
(٥) انظر المصدر السابق.
(٦) انظر جامع البيان، الطبري (٢٧/ ٤، ٥)، وانظر روح المعاني، الآلوسي (٢٧/ ١٦).
(٧) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٣/ ٩٨).

والذي أميل إليه أن هذه الأقوال متقاربة، والمعنى أن هذه الريح جعلت أجسادهم ذرات خفيفة. وقد يكون أقربها من قال: كرميم الشجر للآية الآتية.

- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر**﴾[١].

في هذا الموضع زيادة إيضاح وهي كيفية نزع الناس يومها قال الشوكاني: تنزع الناس أي تقتلعهم من أماكنهم، وقيل: تقتلعهم من بيوتهم[٢].

ووصفهم سبحانه وهم في تلك الحالة: ﴿**كأنهم أعجاز نخل منقعر**﴾ والأعجاز جمع عجز وهو مؤخرة الشيء. والمنقعر أي المنقلع تقول قعرت الشجرة إذا اقتلعتها من أصلها[٣].

- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية. سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أياماً حُسُوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية**﴾[٤].

وفي هذا الموضع زيادة بيان في عقاب قوم عاد. يقول سبحانه بأنه سخرها - الريح - عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً. وفي الحسوم أقوال:

- قيل: حسوما متتابعة. وقيل مشائيم. ورجح الطبري الأول أي متتابعة لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك[٥].

---

(١) سورة القمر، الآيتان: ١٩، ٢٠.
(٢) انظر فتح القدير، الشوكاني (٥/ ١٢٥).
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٧/ ١٣٧).
(٤) سورة الحاقة، الآيتان: ٦، ٧.
(٥) انظر جامع البيان، الطبري (٢٩/ ٥١، ٥٢).

ووصف سبحانه حالهم بأنهم أعجاز نخل خاوية، بينما وصفهم في الآية السابقة بأعجاز نخل منقعر. وخاوية خربة، وهي الشجرة التي بليت، فخوت من داخلها، فصارت فارغة[1]. ثم قال سبحانه: ﴿**فهل ترى لهم من باقية**﴾ أي فهل ترى يا محمد لعاد من بقاء[2].

الرابعة عشرة: الأخذ بالسنين:

قال تعالى ﴿**ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون**﴾[3].

ابتلى سبحانه آل فرعون بالسنين، وهذا معنى أخذناهم بالسنين[4].

وقوله تعالى: ﴿**بالسنين**﴾ قال السيوطي: سنين جمع سَنَة، وهي عبارة عما أخذ الله بني إسرائيل من القحط والجدب لعلهم يرجعون، فلم يزدهم ذلك إلا طغياناً. أهـ[5].

وهو من قولهم أسْنَتَ القوم: إذا أجدبوا[6].

وعن قتادة: فأما السنين فكان ذلك في باديتهم وأهل مواشيهم، وأما نقص الثمرات فكان ذلك في أمصارهم وقراهم[7].

وعن مجاهد: أن النخلة لم تكن تحمل إلاّ ثمرة واحدة[8].

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ٤٤٠، ٤٤١)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٨/ ٢٦١).

(٢) انظر جامع البيان، الطبري (٢٩/ ٥١، ٥٢).

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٣٠.

(٤) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٢٤٩).

(٥) معترك الأقران في إعجاز القآن، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٣/ ٢٦٩)، طبع دار الفكر العربي، مصر، دون تاريخ.

(٦)(٧) جامع البيان، الطبري (٩/ ٢٨، ٢٩).

(٨) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٢٤٩)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧/ ٢٦٤).

الخامسة عشرة : الحاصب :

قال تعالى: ﴿... أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً﴾[1]. وقال كذلك: ﴿إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلاَّ آل لوط نجيناهم بسحر﴾[2].

في هاتين الآيتين ذكر سبحانه نوعاً من أنواع عقابه تبارك وتعالى وهو الحاصب، وهو من الحَصْبَة وهي الحجارة، واحدتها حَصَبَة. تحاصبوا: تراموا بالحصباء أي الحصى.

والحاصب: ريح تحمل التراب[3].

قال السيوطي: ﴿حاصباً﴾: حجارة أو ريحاً شديدة ترمي بالحصباء. وهي الحصى الصغار[4]. وذكر الزمخشري: أن حاصباً تعني ريحاً تحصبهم بالحجارة أي ترميهم[5].

وعن أبي عبيدة والقتبي: الحاصب: الريح الشديدة التي ترمي بالحصبا وهي الحصى الصغيرة. وعن قتادة: يعني حجارة من السماء تحصبهم - ترميهم - كما فعل بقوم لوط[6].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٨.
(٢) سورة القمر، الآية: ٣٤.
(٣) القاموس المحيط، الفيروز آبادي ٩٥.
(٤) معترك الأقران، السيوطي (٢/ ٦٨).
(٥) الكشاف، الزمخشري (٤/ ٤٠).
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٠/ ٢٩٢، ٢٩٣)، وانظر روح المعاني، الآلوسي (١٥/ ١١٦، ١١٧).

السادسة عشرة : القاصف :

قال تعالى : ﴿ . . . **فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم** . . . ﴾[1] .

هذه الآية تبين أن العقاب بالريح أنواع ، فقد تكون حاصباً ـ كما هي في الفقرة السابقة ـ أو قاصفاً كما في هذا الموضع .

والقاصف من القَصْف ومعناه الكسر . تقول ريح قاصف أي شديدة . ورعد قاصف شديد الصوت . والتَّقَصُّف : التَّكَسُّر[2] .

قال الراغب : ﴿**فيرسل عليكم قاصفاً من الريح**﴾ ، وهي التي تقصف ما مرت عليه من الشجر والبناء . ورعد قاصف : في صوته تكسر[3] .

وقال القرطبي : القاصف الريح الشديدة التي تقصف ، أي تكسر ما تجده أمامها . وقيل : القاصف الريح التي لها صوت شديد ، من قصيف وهو الصوت القوي[4] .

وعن ابن عباس : القاصف من الريح : المُغرق . وعن عبد الله بن عمرو ، ورواه عن ابن عباس : القاصف : العاصف[4] .

والذي أميل إليه أن الريح المذكورة تتصف بالقصف تكسيراً وصوتاً ، وذلك لشدتها .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٦٨ .

(٢) انظر مختار الصحاح ، الرازي ٥٣٨ .

(٣) مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الأصفهاني ٤٠٥ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن . القرطبي (١٠/ ٢٩٢ ، ٢٩٣) روح المعاني . الآلوسي (١٥/ ١١٦ ، ١١٧) .

السابعة عشرة : السيل :

قال تعالى : ﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمطٍ وأثلٍ وشيء من سدرٍ قليل﴾[1] .

عقاب سيل العرم في هذه الآية جاء لقوم سبأ أهل اليمن وهم أصحاب السد المشهور[2] . وكان هؤلاء قد بنو سداً عظيماً. فكانت أرضهم جناناً. وأسسوا حضارة عظيمة ذكرت بالإعجاب في كتب التاريخ. ولكنهم بعد هذا الإنعام كفروا وجحدوا، فكانوا من عبّاد الشمس. فأرسل الله عليهم سيل العرم لتدمير سدهم العظيم حتى أباد زروعهم وقتل منهم الكثير، وتفرق الباقون في البلاد، حتى قالت العرب فيمن تفرق وتمزق: ذهب القوم أيدي سبأ أي متفرقين[3] . وهؤلاء هم أصحاب الملكة بلقيس، والتي جاء ذكرها مفصلاً في القرآن الكريم في سورة النمل، وقد ذكر سبحانه قصتها مع نبي الله سليمان عليه السلام، ثم إنها آمنت على يد سليمان عليه السلام، ويروي أنه تزوجها[4] .

ذكر ابن كثير أنهم ـ قوم سبأ ـ كانوا في نعم كثيرة، وأرسل الله سبحانه لهم رسلاً، فأعرضوا عنهم، فعاقبهم الله بسيل العرم[5] .

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٦.

(٢) سبأ منطقة في اليمن عاصمتها مأرب، وسميت بسبأ لأنها كانت منازل أبناء سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وكان اسم سبأ عامراً ولكنه سمي بذلك لأنه أول من سبى السبي، وكان رجلاً جميلاً حتى قيل له عب الشمس، أي ضوء الشمس، وعلى رأي ابن الكلبي: سبأ من سَبَأتُ الخمر إذا اشتريتها، ويقال سَبَأته النار إذا أحرقته وكأن هذا الموضع سمي سبأ لحرارته الشديدة. انظر معجم البلدان، ياقوت الحموي (٣/ ١٨١)، وللتوسع انظر دائرة المعارف الإسلامية، لجنة من المترجمين (١١/ ١٦٨ - ٢١٤)، طبع دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ.

(٣) انظر المصدرين السابقين.

(٤) إن شئت مراجعة قصتها انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٣/ ١٧٦ - ٢١٣).

(٥) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٥٣٨).

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى : قوله تعالى : ﴿سيل العرم﴾ . العرم : لغة من العُرام وهو الشدة والكثرة . والعرام من الرجل : الشراسة والأذى . وعَرَمَ : اشتد .

والعَرِمُ : الأحبـاس تبني بالأودية . ويقـال للجـرذ الذكـر ، وللمطر الشديد ، ووادٍ ، قال الفيروز آبادي : وبكلٍ فُسر «سيل العرم»[1] .

وكما هو واضح تعدد المعاني في العرم ، فقد اختلف المفسرون في معنى العرم ، وقد ورد عن المفسرين في معناه أقوال منها :

أن العرم اسم الوادي الذي فيه السد . وقيل هو اسم الجرذ ـ الذي يسمى الخلد ـ وينسب إليه ؛ لأنه هو الذي خرب السد . وقيل العرم : السد نفسه ، والتقدير سيل السد . وقال محمد بن يزيد : العرم كل حاجز بين شيئين ، وهو الذي يسمى السِّكْر ، و قال النحاس : العرم المسنَّاة ، وهي ما يسميها أهل مصر الجسر ـ يقصد ما يحبس الماء ـ ، وقيل العرم من العرامة وهي الشدة ، تقول رجل عرم أي شديد . ذكره الجوهري[2] .

والحق أن الترجيح بين هذه الأقوال لا يخلو من صعوبة ، وهذا عائد لسببين :

الأول : أن معظم ما قيل هو أصل لغوي ، فكلها من الناحية اللغوية بنفس المكانة .

---

(١) انظر القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ١٤٦٧ .

(٢) انظر جامع البيان ، الطبري (٢٢/ ٧٩ وما بعدها) . انظر تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٣/ ٥٣٨ وما بعدها) . وانظر الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي (١٤/ ٢٨٥ وما بعدها) ، وانظر التفسير الكبير ، الرازي (٢٥/ ٢٥١) ، وانظر البحر المحيط ، أبو حيان (٧/ ٢٧٠) ، وانظر مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الأصفهاني ٣٣٢ .

الثاني : عدم وجود آثار ـ في حدو ما اطلعت عليه ـ تحسم الأمر فيها .

المسألة الثانية : قوله تعالى : ﴿**أكل خمط**﴾ . بعد أن أرسل عليهم سبحانه سيل العرم ، أبدلهم بدل جنانهم جنتين ذواتي أكل خمط ، والخمطة لغة : شجر لا شوك له ، والخمطة الخمر إذا حَمَضَت[1] .

وفي تفسيرها وجوه :

- قيل : الخمط : الأراك (شجر) . وهذا مروي عن ابن عباس والحسن وقتادة والسدي[2] .

- وقيل : كل نبات فيه مرارة فهو خمط[3] .

- وقيل : كل ما تغير إلى ما لا يشتهى فهو خمط . ومنه قالوا للبن إذا حمض خمط[4] .

أما القول الأول وهو أن الخمط شجر الأراك ، فلا أعلم أن العقوبة تتحقق بشجر الأراك ، أما القولان الأخيران وهما : كل ما لا يشتهى فهو خمط ، وكل نبات فيه مرارة فهو خمط ، فكلاهما لا يشتهى ، وإلى هذين القولين أميل لسببين :

١ - إن العقوة متحققة بذلك ، فبعد أن كانت هذه الأشجار مليئة بالثمار الطازجة صارت خمطاً حامضة لا تؤكل .

---

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الأصفهاني ١٥٩ .
(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٣/ ٥٣٩) .
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي (١٤/ ٢٨٥) ، انظر التفسير الكبير ، الرازي (٢٥/ ٢٥١) .
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي (١٤/ ٢٨٥) .

٢- إن الماء إذا جاء على زروع فترة طويلة وبكمية كبيرة أفسدها بعد حين حتى تصبح حامضة، وذلك بفعل الرطوبة خاصة وأن بلادهم ـ كما يقول ياقوت الحموي ـ حارة ـ على أحد اشتقاقي سبأ ـ[1]. والحرارة مع الماء الزائد تشكل رطوبة عالية تسبب حموضة الزروع وغيرها من المأكولات، والله تعالى أعلم.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وأثل﴾ هذا شيء ثان أبدلهما الله بجنان العز الذي كانوا فيه، وأثل من أَثَلَ تأثل أي: تأصل.

والأثل شجر واحدته أَثْلَة[2]. وقال الراغب أثل: شجر ثابت الأصل[3].

أما المفسرون فقالوا فيه وجوهاً هي:

١- الأثل شبيه بالطرفاء إلاّ أنه أطول[4].

٢- وقيل: الأثل الخشب. وهذا مروي عن قتادة[5].

٣- وقيل الأثل: السَّمُرُ[6].

والترجيح بين هذه الأقوال مشكل، لأنها مسميات لنوع معين من الشجر، وإن كانت أكثر الأقوال على أنه شجر يشبه الطرفاء.

---

(١) انظر هامش صفحة ١٥١ من هذا البحث.
(٢) القاموس المحيط، الفيروز ابادي ١٢٤٠.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ١٠.
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٤/ ٢٨٥ وما بعدها)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (٢٥/ ٢٥١)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٥٤٠).
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٤/ ٢٨٥).
(٦) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٥٣٩).

قال صاحب معجم الألفاظ والأعلام القرآنية: والأثل: شجر يشبه الطرفاء إلاّ أنه أكبر، وثمره حب أحمر لا يؤكل، وخشبه صلب تصنع منه القصاع والجفان[1].

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿**سدر**﴾ وثالث أمر أبدلهم سبحانه إياه ﴿**وشيء من سدر قليل**﴾. والسدر شجر لا فائدة فيه، وله ثمر لا يؤكل يسمى الضال[2].

وقال صاحب معجم الألفاظ: السدر شجر النبق، وهو شجر شائك له ثمر حلو ومفرده سدرة[3].

والقول بأن السدر شجر شائك له ثمر حلو أرجح، وذلك أنه سبحانه قال: ﴿**من سدر قليل**﴾ وهذا القليل يدل على أن فيه فائدة، ولكنها فائدة محدودة قلة. أما قول القرطبي رحمه الله بأنه شجر له ثمر لا يؤكل فهو ينافي هذا والله أعلم[4].

يقول الطبري رحمه الله في معنى الآية: فأعرضت سبأ عن طاعة ربها فثقبنا عليهم سدهم لما أعرضوا عن تصديق رسلنا، وجعلنا لهم مكان بساتينهم من الفواكه والثمار بساتين من خمط وشيء من سدر قليل[5].

وبعد كل هذا لنطلع على حال القوم بعد هذا العقاب. يقول سبحانه في

---

(١) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم ٣٠.
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٤/ ٢٨٥ وما بعدها).
(٣) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم ٢٣٧.
(٤) سألت بعض أهل اليمن عن السدر فقال: السدر عندنا ثمر حلو بحجم الكرز ولونه يميل إلى الاحمرار.
(٥) انظر جامع البيان، الطبري (٢٢/ ٧٨ - ٨٣).

وصفهم : **﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلاّ الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأيام آمنين . وقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾**[1] . فتفرق بنو سبأ في الديار ، فكان منهم : غسان في الشام ، وبنو قيلة (الأنصار) في المدينة ، وخزاعة بمكة ، والأزد بالسراة بين الطائف وصنعاء ، وأزد عُمان بعمان ، وغيرهم ممن تشتت[2] .

الثامنة عشرة : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم[3] :

هذه العقوبات وردت في آية واحدة وهي قوله تعالى : **﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾**[4] .

هذه العقوبات جاءت لقوم فرعون ، علّهم يؤوبون إلى الله سبحانه ، ولكنهم استكبروا وكانوا قوماً مجرمين .

أما الطوفان لغة فيطلق على الماء الذي يغشى كل شيء ، وكذا على المطر الغالب ، ويطلق على الموت الذريع ، والسيل المغرق[5] .

---

(١) سورة سبأ ، الآيات : ١٦ - ١٩ .

(٢) معجم المعالم الجغرافية ، المقدم/ عاتق بن غيث البلادري ١٥٤ ، طبع دار مكة ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .

(٣) جعلت هذه العقوبات الخمس في رقم واحد لأنها وردت في آية واحدة وفي مناسبة واحدة .

(٤) سورة الأعراف ، الآية : ١٣ .

(٥) انظر القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ١٠٧٧ .

وقال السيوطي: والطوفان المبعوث على بني إسرائيل كان مطراً شديداً دائماً مع فيض النيل حتى هدم بيوتهم، وكادوا يهلكون وامتنعوا من الزراعة[1].

وجاء في تفسيره أقوال كثيرة منها:

- وقيل: الأمطار المغرقة. وقيل: الموت. وقيل: الطوفات بالماء، وقيل: الطاعون[2].

قال القرطبي: قال النحاس: الطوفان في اللغة ما كان مهلكاً من موت أو سيل. وقيل هو الموت. أهـ[3].

قال الإمام الطبري: والصواب من القول في ذلك عندي ما قاله ابن عباس على ما رواه عنه أبو ظبيان أنه أمرٌ من الله طاف بهم. وأنه مصدر من قول القائل:

طاف بهم أمر الله يطوف طوفاناً، كما يقال ينقص هذا الشيء ينقص نقاصاً، وإن كان ذلك كذلك، جاز أن يكون الذي طاف بهم المطر الشديد، وجاز أن يكون الموت الذريع. أهـ[4].

أما الجراد فهو المعروف[5]. واسم الجراد من الجَرَد وهو فضاء لا بناء فيه، وذلك أن الجراد يجعل الأرض جرداء لا نبات فيها.

---

(١) معترك الأقران، السيوطي (٢/ ١٥٤).
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧/ ٢٦٧، ٢٦٨)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٢٥٠).
(٣) الجامع لأحكا م القرآن، القرطبي (٧/ ٢٦٧، ٢٦٨).
(٤) جامع البيان، الطبري (٩/ ٣١، ٣٢).
(٥) انظر القاموس المحيط، الفيروز آبادي ٣٤٧، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧/ ٢٦٧، ٢٦٨).

قال صاحب معجم الألفاظ: جَرَدَ العود: قشره. وجرد القحطُ الأرضَ: صيرها جرداء. والجراد اسم جنس، والواحدة جرادة، وهي حشرة ذات أجنحة، تجرد الأرض وتأكل ما عليها من النبات ولا تبقي منه شيئاً. أهـ[1] .

وقام الجراد بأكل زروع قوم فرعون فضاقت عليهم حياتهم، ومع ذلك أصروا على كفرهم[2] .

القمل لغة: دويبة من جنس القردان إلاّ أنها أصغر منها تركب البعير عند الهزال[3] .

أما المفسرون فقد اختلفوا فيه، فقيل: هو السوس الذي يخرج من القمح.

وقيل: هو الجراد الصغير الذي لا جناح له. وقيل: هي دواب سود صغيرة.

وقيل: هو القمْل المعروف[4] .

قال القرطبي: القمل عند أهل اللغة ضرب من القردان. ثم ذكر قول النحاس: وليس هذا بناقض لما قاله أهل التفسير، لأنه يجوز أن تكون هذه الأشياء كلها أرسلت عليهم. أهـ[5] .

---

(١) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم ٩٩ .
(٢) تفسير المنار، رشيد رضا (٩/ ٩١).
(٣) مختار الصحاح، الرازي ٥٥١ .
(٤) انظر جامع البيان، الطبري (٩/ ٣٢، ٣٣)، وانظر تفسير القرآن لعظيم، ابن كثير (٢/ ٢٥١)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧، ٢٦٧، ٢٦٨).
(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧/ ٢٦٧، ٢٦٨).

أما الراغب فقدجزم بأن القمل هو صغار الذباب. وقوله موافق لما جاء في التوراة التي ذكرت أن البعوض والذبان كان من الضربات العشر التي ضرب الرب بها فرعون وقومه ليرسلوا بني إسرائيل مع موسى[1].

أما قول التوراة أن الضربات كانت عشر فهذا زيادة عما ورد في القرآن ففي سورة الإسراء قال تعالى: ﴿**ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات**...﴾[2]. وكذلك في سورة النمل قال تعالى: ﴿... **في تسع آيات إلى فرعون وقومه**﴾[3].

وقد ذكر منها تعالى هنا خمساً.

أما الضفادع: فهي المعروفة ولا خلاف فيها[4].

والذي يفصل كيف كان العقاب بالضفادع التوراة، فهي تصف حالة قوم فرعون مع هذا العقاب، فتقول: إن الأنهار فاضت بالضفادع ثم انتشرت في البيوت حتى كانت تقفز على سرير أحدهم وفي تنانيرهم ومعاجنهم التي يعجنون فيها الخبز[5].

وبصرف النظر عن صحة التوراة فإن ما ذُكر فيه شيء من الصحة إن لم يكن كله. فإن العقاب بالضفادع يتبادر إلى الذهن أن يكون بهذه الطرق من التعذيب.

---

(١) انظر الكتاب المقدس عند النصارى، سفر الخروج، الإصحاح الثامن صفحة ٩٧ - ٩٩. دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ١٩٨٧م.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠١.
(٣) سورة النمل، الآية: ١٢.
(٤) انظر تفسير المنار، رشيد رضا (٩/ ٩٢).
(٥) انظر الكتاب المقدس، سفر الخروج، الإصحاح الثامن، صفحة ٩٧، - ٩٩.

والعقوبة الخامسة والأخيرة في هذه الآية هي الدم:

قال صاحب المنار: وأكثر أهل التفسير المأثور أنه دم كان في مياه المصريين، وهو موافق لما جاء في التوراة، وهو فيها من الضربات العشر. أهـ[1].

ذكر ابن كثير أن آبارهم وأنهارهم تحولت كلها إلى دم[2].

وذكر القرطبي أن النيل سال دماً[3]. ويروي القرطبي أن الإسرائيلي كان يخرج له الماء، والفرعوني يخرج له دماء[4].

التاسعة عشر: الحجارة بواسطة الطيور:

قال تعالى: ﴿**وأرسل عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول**﴾[5].

هذه الآيات تتحدث عن عذاب أنزله الله تعالى على جيش أبرهة الحبشي.

أما ملخص قصته فقد كان ملك الحبشة في اليمن اسمه أرياط، نازع يوماً على ملكه أبرهة الحبشي، فاجتمع لكل منهما جيش وتقابلا، فأرسل أبرهة إلى أرياط ينصحه فيها بعدم القتال بين الحبشة خوفاً على إبادتهم، واقترح عليه لقاءهما فقط، فمن قتل الآخر تسلّم السلطان، فتقدما، فضرب

---

(١) تفسير المنار، رشيد رضا (٩/ ٩٢).
(٢) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثر (٢/ ٢٥١).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧/ ٢٦٧، ٢٦٨).
(٤) انظر المصدر السابق.
(٥) سورة الفيل، الآيات: ٣ - ٥.

أرياط أبرهة فجرح وجهه وشرمه فسمي أبرهة الأشرم.

وكان خلف أبرهة غلام حمل على أرياط فقتله، فصار أبرهة زعيماً للحبشة، ثم بنى كنيسة لم يُر مثلها في زمانها، ثم كتب إلى النجاشي أني بنيت لك كنيسة لم يبن لملك مثلها، ولستُ بمنته حتى أصرف إليها حج العرب. فغضب رجل من العرب من قبيلة كنانة، فخرج حتى وصل القُلَّيْس ـ وهو مكان الكنيسة التي بناها أبرهة ـ فأحدث فيها، ثم لحق بأرضه، فسمع بذلك أبرهة وعرف أن الذي فعل هذا رجل من العرب ومن أهل البيت الذي تحج العرب إليه بمكة انتقاماً من قوله ـ أي قول أبرهة ـ وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه، فجهز جيشاً وأخرج معه الفيلة، فسمع العرب بذلك، فقام من أراد الجهاد دفاعاً عن بيت الله الحرام ـ كذا يقول ابن إسحاق ـ فهزمهم أبرهة ـ وكانوا عدة جيوش على الطريق من قبائل العرب هزمهم جميعاً ـ، وعندما وصل أبرهة قُبيل مكة همَّ عبد المطلب ـ وكان زعيم مكة يومها ـ بقتاله، لكنه رأى أن لا فائدة في ذلك لقوة أبرهة.

وبعد مباحثات بين عبد المطلب وأبرهة، أمر عبد المطلب قريشاً بالخروج إلى الشعاب وشعف الجبال خوفاً من الجيش، وقام معه نفر يدعون الله لينصر بيته الحرام، ثم أصبح أبرهة فجهز جيشه وفيلته، وعند حدود مكة دفعوا الفيل ليدخل، فبرك، وضربوه فلم يقم، ثم وجهوه إلى اليمن فقام يهرول، وفي هذه الأثناء أرسل سبحانه على أبرهة وجيشه طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان ـ قيل البلسان: الزرازير ـ. وكانت هذه الطيور معها حجارة، فرمت الجيش فقتلت من قتلت، وأفلت الباقون وجاؤوا يسألون عمن يدلهم على الطريق فأنشد أحدهم:

أيــن المفــر والإلـــه الطــالب   والأشرم المغلوب ليس الغالب

وأصيب أبرهة في جسمه، وحملوه إلى اليمن، حتى صار يخرج من جسمه القيح[1].

نعود إلى تفسير الآيات الثلاث:

يقول تعالى: ﴿**وأرسل عليهم طيراً أبابيل**﴾ أبابيل أي مجتمعة وقيل متتابعة وقيل متفرقة. قال الزجاج: وكلها أقوال متفقة، وحقيقة المعنى أنها جماعات عظام. أهـ[2].

قال السيوطي: أبابيل: جماعات متفرقة، شيئاً بعد شيء، وقال ابن عباس: أدركتْ أم هانيء نحو قَفيز من هذه الحجارة، وأنها كانت مخططة مجمرة. أهـ[3].

ثم قال سبحانه: ﴿**ترميهم بحجارة من سجيل**﴾. سبق بيان السجيل[4].

أما قوله تعالى: ﴿**فجعلهم كعصف مأكول**﴾. الكاف في ﴿**كعصف**﴾ للتشبيه. والعصف جمع عصفة، وهو ـ العصف ـ الذي يعصف من الزرع، ويقال لحطام النبات المتكسر عصف، وريح عاصف تكسر الشيء فتجعله كعصف[5].

---

(١) انظر سيرة النبي ﷺ، أبو محمد عبد الملك بن هشام (١/ ٤٢ - ٥٥)، طبع دار الفكر، دون مكان، سنة ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢٠/ ١٩٥ - ٢٠٠).

(٣) معترك الأقران، السيوطي (١/ ٥٥٣).

(٤) ارجع إلى صفحة ١٣٧ من هذا البحث.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ٣٣٦.

وقال القرطبي: العصف قشر البر - أي غلافه -، وتأويله أن الحجارة دخلت بهم فجعلتهم خواء كقشر القمح بعد أن يؤخذ لبه[1] .

وبعد:

هذا ما وفقني الله تعالى من استقراء أشكال العقاب الرباني في القرآن الكريم، وقد قسمت هذا الفصل إلى ثلاثة فصول:

الأول منه: العقاب بلفظ عام.

الثاني: أشكال العقاب المعنوي في القرآن الكريم.

الثالث: أشكال العقاب الحسي في القرآن الكريم.

والمبحث الثالث بينت في بدايته المراد بالحسي لغة واصطلاحاً. ثم شرعت ببيان أشكال العقاب الحسي، والذي استخرجته من كتاب الله تعالى الأشكال الآتية:

الصاعقة، الرجز، الرجس، المسخ، الطمس، تحريم الطيبات، التفرق، الاستبدال بقوم آخرين، الغرق، الرجفة، إمطار الحجارة، الصيحة، الريح، الأخذ بالسنين، الحاصب، القاصف، السيل، الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، الحجارة بواسطة الطيور.

** ** **

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢٠/ ٢٩٥ - ٢٠٠).

الفصل الثالث

أسباب العقاب الرباني في القرآن الكريم

تحدثت في الفصل السابق عن أشكال العقاب الرباني في القرآن الكريم، وسأتناول بالتفصيل في هذا الفصل أسباب العقاب الإلهي في القرآن الكريم.

وأسباب العقاب من أهم فصول هذا البحث؛ لأن معرفة الأسباب التي تجلب غضب الرحمن وتنزل عقابه من أهم الأمور التي ينبغي أن يدركها المسلم. فالعلم بالأسباب سبب قوي في تجنب ما يغضب الله سبحانه وتعالى، وإذا عرف كل فرد في الأمة هذه الأسباب وتجنبها كانت هذه الأمة خير الأمم، وقد كان من هدي السلف البعد عن مساخط الله تعالى والعمل بما يرضيه، ولذلك وصف سبحانه هذه الأمة بأعظم الأوصاف فقال عز وجل: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾ (آل عمران: ١١٠).

ومنهجي في كتابة هذا الفصل استقراء الأسباب المباشرة الواردة في القرآن الكريم، والتي عذِّبت من أجلها الأمم. ولن يكون لتلكم الأسباب تقسيم ـ كما كان في الفصل السابق ـ وإنما سأذكر الأسباب متتالية، والسبب في هذا أن أسباب العقاب ليست منفصلة عن بعضها البعض. ثم إن العقاب ينزل على الأمة وقد ارتكبت عدة أسباب توجب عذاب الله لها، وهناك أسباب مشتركة بين كل الأمم، وأسباب خاصة بكل أمة، والله وحده المستعان.

الذنوب :

قال تعالى : ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾[1] .

يخاطب سبحانه نبيه فيقول : ألم ير هؤلاء الجاحدون لنبوتك كم من الأمم قبلهم مكناهم في الأرض وآتيناهم من خيرات الأرض والسماء حتى كانوا أقوى منهم ، ولكنهم عندما أذنبوا واستحقوا العقاب أهلكناهم وأتينا بأمم أخرى[2] .

تبين الآية أن الذنوب هي سبب الإهلاك المذكور . والذنوب جمع ذنب ويجمع على ذنوبات ، ومعناه الإثم والجرم والمعصية[3] .

وقال الراغب : الذنب في الأصل الأخذ بذنب ، يقال ذَنَبْتُهُ أصبت ذَنَبَه ، ويستعمل في كل فعل يُستوخم عقباه اعتباراً يذَنَب الشيء ، ولهذا يسمى الذَنْب تبعة ، اعتباراً لما يحصل من عاقبته . أهـ[4] .

فالذنوب : الآثام والمعاصي ، وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم سبباً من أسباب العقاب . ولكنها وردت في القرآن الكريم في مواضع لا تخص أمة بعينها ، ووردت في مواضع أخرى في معرض الحديث عن ذنوب أمة بعينها . والآية التي نحن بصددها عامة لا تخص أمة معينة .

---

(١) سورة الأنعام، الآية : ٦ .
(٢) انظر جامع البيان، الطبري (٧/ ١٤٩).
(٣) لسان العرب ، ابن منظور (١/ ٣٨٩).
(٤) مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الأصفهاني .

ويذهب صاحب البحر المحيط إلى أن ﴿يروا﴾ هنا بمعنى يعلموا؛ لأنهم لم يشاهدوا مهلك الأقوام السابقة، وإنما علموا بها[1].

أما قوله تعالى: ﴿مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم﴾ فهو انتقال من صيغة الغائب ﴿ألم يروا﴾ إلى صيغة المخاطب، وهذا مستعمل في لغة العرب، وهذا الأسلوب يعطي المو ضوع حيوية بحيث يشعر القارئ كأنه يعيش بين أفراد الموضوع.

ومعنى مكناهم ما لم نمكن لكم" أي أعطيناهم ما لم نعطكم[2].

أما قوله تعالى: ﴿وأرسلنا السماء عليهم مدراراً﴾. أي المطر الذي ينبت الزرع، والمراد من ذلك كله: أنهم عاشوا في رغد من كثرة الزروع والمياه فصارت لهم بساتين وجنان. وهذه الأوصاف لهؤلاء لبيان ما جمعوه من أسباب الأمن والركون إلى الدنيا، ولكن ذلك كله لم ينفعهم لما كفروا[3]. قال تعالى: ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ أي فأهلكناهم بكفرهم[4].

يقول القرطبي: فالذنوب سبب الانتقام وزوال النعم[5].

والذنوب نوعان: قسم مشترك ارتكبته جميع الأمم المعاقبة، ومن هذه تكذيب الرسل، قال تعالى: ﴿وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير﴾[6].

---

(١) انظر البحر المحيط، أبو حيان (٤/ ٧٥).
(٢) انظر جامع البيان، الطبري (٧/ ١٤٨).
(٣) انظر روح المعاني، الآلوسي (٧/ ٩٥).
(٤) انظر المصدر السابق، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٣٩٢).
(٥) انظر المصدرين السابقين.
(٦) سورة فاطر، الآية: ٢٥.

وتكذيب الرسل يعني الإعراض عن الرسالة التي جاؤوا بها. وسيأتي - إن شاء الله - بحث خاص في تكذيب الرسل[1].

ومن الذنوب العامة الاستهزاء بالرسل. قال تعالى: **﴿وما يأتيهم من رسول إلاّ كانوا به يستهزؤون﴾**[2].

أما النوع الثاني من الذنوب وهو الخاص بأمة معينة، فمثال ذلك اللواط[3] فهي معصية اشتهر بها قوم لوط وحدهم، والتطفيف في الميزان اشتهر به قوم شعيب وهم أهل مدين. وقوم صالح قتلوا ناقة الله تعالى التي أرسلها آية لهم.

يقول صاحب المنار: والذنوب التي يهلك الله بها القرون ويعذب بها الأمم قسمان: أحدهما: معاندة الرسل والكفر بما جاؤوا به (وهذه ذنوب مشتركة بين الأمم)[4].

ثانيهما: كفر النعم بالبطر والأشر، وغمط الحق، واحتقار الناس، وظلم الضعفاء، ومحاباة الأقوياء، والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة. أهـ[5].

ومن ذلك قوله تعالى: **﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾**[6].

---

(١) انظر ص (٢٢٢) من هذا البحث.
(٢) سورة الحجر، الآية: ١١.
(٣) الأصح أن يقال إتيان الذكران أو فعلة قوم لوط، محمد الشريف.
(٤) ما بين قوسين من كلامي.
(٥) تفسير المنار، رشيد رضا (٧/ ٣٠٨).
(٦) سورة العنكبوت، الآية: ٤٠.

وهذه الآية تبين أن الله تعالى أخذ الأمم وأهلكها بسبب ذنوبها فبعضها، هلك بالحاصب، وبعضها بالصيحة، وبعضها بالخسف، وبعضها بالغرق، وكل هذا متناسب مع الذنوب التي اجترحتها الأمة[1] .

قلت آنفاً أن الذنوب ذُكرت في مواضع عامة وفي مواضع خاصة بأمة بعينها، ومن النوع الثاني: **﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾**[2] .

ذكر الإمام ابن كثير سبباً لهذه الآية، ملخصه أن نفراً من اليهود جاؤوا رسول الله ﷺ فكلمهم ودعاهم إلى الإسلام وحذرهم من انتقام الله تعالى، فقالوا: ما تخوفنا ونحن أبناء الله وأحباؤه، فنزلت هذه الآية[3] .

وورد عن السدي أنه قال: إن اليهود زعمت أن الله أوحى إلى يعقوب عليه السلام: أن ولدي بكري من الولد، وزعم النصارى أنهم أبناء الله، لما ورد في الإنجيل عن عيسى عليه السلام أنه قال: «أذهبُ إلى أبي وأبيكم». وهذان القولان وغيرهما في كتب التوراة والإنجيل دفعت اليهود والنصارى إلى قولهم نحن أبناء الله وأحباؤه[4] .

وقد ردّ على هذه الأقوال والموجودة في كتبهم المقدسة رغم تحريفها -

---

(١) انظر جامع البيان، الطبري (٧/ ١٤٩)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٤٢٣، ٤٢٤).
(٢) سورة المائدة، الآية: ١٨.
(٣) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٣٦).
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ١٢٠، ١٢١)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٣٦).

التي توهم بنوة عيسى عليه السلام ـ الإمام «الغزالي» رحمه الله في كتيب[1] . وبين أن هذه الأقوال تستعمل لديهم للتشريف والتعظيم وليست على سبيل البنوة[2] .

وأما قوله تعالى: ﴿فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ فقد ورد في العذاب المذكور وجهان:

١- عذاب الآخرة[3] .

٢- عذاب الدنيا، ولكن بما مضى ـ كما عذبهم سبحانه بالمسخ لما اعتدوا في السبت ـ[4] .

والذي أميل إليه الثاني هو أن العذاب في الدنيا؛ ولسبب وهو أن الله تعالى قدم دليلاً على بطلان دعواهم بحب الله لهم، فمن قال إن العذاب في الآخرة فهذا دليل غير مرئي وغيب لم يلمسوه وهذا يكون أبعد عن الاعتبار، ثم إن كل الناس يتساوون في هذا فلا أحد يعرف نفسه هل يدخل الجنة أم النار.

أما قولنا إنه عذاب الدنيا فقد عرفوه جيداً، فمن لم يعاين منهم عقاباً كالمسخ ـ فقد عاين غيره، أو تواترت إليه عن طريق الكتب المقدسة ـ في زعمهم ـ أو مشافهة.

---

(١) اسم الكتاب: الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل، أبو حامد الغزالي، تحقيق محمد عبد الله الشرقاوي، دار الهداية، مصر، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
(٢) انظر الرد الجميل، أبو حامد الغزالي، ص ٩١ - ١٦٤ .
(٣) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٣٦) .
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ١٢٠، ١٢١) .

الثاني : الظلم :

الظلم لغة وعند كثير من العلمآء وضع الشيء في غير موضعه المختص به . إما زيادة أو نقصاناً أو بعدول عن وقته أو مكانه ، ومنه قالوا : ظلمتَ الأرضَ ، إذا حفرتها في غير الموضع ، ويطلق الظلم على مجاوزة الحق سواء كانت المجاوزة قليلة أم كثيرة ، ولهذا يستعمل الظلم في الذنب صغيراً وكبيراً ، ولهذا أطلق على آدم عليه السلام ظالم لأكله من الشجرة ، وأطلق على إبليس ظالم ، رغم البَوْن الذي بين ذنبيهما .

وقال بعض الحكماء : الظلم أنواع ثلاثة :

١ - ظلم بين الإنسان وربه ، وأعظم هذا النوع الشرك والكفر والنفاق .

قال تعالى : ﴿**إن الشرك لظلم عظيم**﴾[١] . ومنه كذلك قوله تعالى : ﴿**ألا لعنة الله على الظالمين**﴾[٢] .

٢ - ظلم بين الإنسان والإنسان ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿**إنما السبيل على الذين يظلمون الناس**﴾[٣] .

- ظلم الإنسان لنفسه ، ومنه قوله تعالى : ﴿**فمنهم ظالم لنفسه**﴾[٤] .

والحق أن كل هذه الأقسام ظلم لنفس فاعلها ، فكل من بدأ بظلم - أي نوع منه - فإنه يبدأ بظلم نفسه ، لذلك قال سبحانه : ﴿**وما ظلمهم الله ولكن كانوا**

---

(١) سورة لقمان ، الآية : ١٣ .
(٢) سورة هود ، الآية : ١٨ .
(٣) سورة الشورى ، الآية : ٤٢ .
(٤) سورة فاطر ، الآية : ٣٢ .

أنفسهم يظلمون﴾[١] . وكذلك قوله تعالى : **﴿ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به . . .﴾**[٢] .

فالظلم المذكور في الآيتين يشمل الأنواع الثلاثة[٣] .

وأول أنواع الظلم تأثيراً في حياة الأمم في هذه الدنيا ، هو ظلم الناس بعضهم بعضاً . قال تعالى : **﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾**[٤] . قال الإمام الطبري : **﴿بظلم﴾** أي بشرك . **﴿وأهلها مصلحون﴾** فيما بينهم لا يتظالمون . ولكنهم يتعاطون الحق بينهم ، وإن كانوا مشركين ، وإنما يهلكهم إذا تظالموا . أهـ[٥] . وهذا أحد وجهين في تفسير الآية عند الإمام الطبري رحمه الله .

وقال الإمام الرازي : إن المراد من الظلم هنا الشرك . والمعنى أنه تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا صلحين في المعاملات فيما بينهم . والحاصل أن عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر ، بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا أساؤوا في المعاملات وسعوا في الإيذاء والظلم .

ولهذا قال الفقهاء : إن حقوق الله تعالى مبناها على المسامحة والمساهلة ، وحقوق العباد مبناها على الضيق والشح . فمعنى الآية : أي لا يهلكهم

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٣٣ .

(٢) سورة الزمر ، الآية : ٤٧ .

(٣) انظر بصائر ذوي التمييز ، الفيروز آبادي (٣/ ٥٤٢ ، ٥٤٣) ، وانظر مفردات ألفاظ القرآن الراغب الأصفهاني (٣١٥ ، ٣١٦) وانظر لسان العرب ، ابن منظور (١٢/ ٣٧٣) ، وانظر مختار الصحاح ، الرازي ٤٠٥ .

(٤) سورة هود ، الآية : ١١٧ .

(٥) جامع البيان ، الطبري (١٢/ ١٤٠) .

بمجرد شركهم إذا كانوا مصلحين يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح والسداد.

وهذا تأويل أهل السنة لهذه الآية، قالوا: والدليل عليه أن قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب إنما نزل عليهم عذاب الاستئصال، لما حكى الله تعالى عنهم إيذاء الناس وظلم الخلق. أهـ[1].

وقال بعض الحكماء: الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم.

وقال الشاعر:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً ... فالظلم آخره يأتيك بالندم

نامت عيونك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

ومن الآيات التي ذكرت الظلم على أنه سبب من أسباب العقاب قوله تعالى: ﴿**فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً**﴾[2]. يقول تعالى: فبسبب ظلم الذين هادوا حرمنا عليهم...[3].

والآية دليل على أن الظلم لفظ يشمل جميع أنواع الذنوب، فقد ذكر سبحانه أن هؤلاء قاموا بارتكاب ثلاث معاصي سماها ظلماً وهي:

١- الصد عن سبيل الله.

٢- أخذ الربا.

---

(١) التفسير الكبير، الرازي (١٨/ ٧٦).

(٢) سورة النساء، الآتان: ١٦٠، ١٦١.

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٩٧)، وانظر الكشاف، الزمخشري (١/ ٥٨١).

٣- أكل أموال الناس بالباطل .

وقد سبق تفصيل هذا في موضعه ولا حاجة للإعادة[١] .

ومن ذلك قوله تعالى : **﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين﴾**[٢] .

يقول تعالى لقدأهلكنا الأمم التي قبلكم أيها المشركون بربهم ـ مشركو مكة ـ لما أشركوا به سبحانه ، وبينت لهم رسلهم الدلائل والحجج على صدق رسالاتهم ، ومع ذلك لم يؤمنوا **﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾** أي وكما أهلكنا السابقين نهلككم بتكذيبكم محمداً عليه الصلاة والسلام[٣] .

ومن الذين فصلوا القول في هذه الآية من المحدَثين صاحب المنار ، فقال ما ملخصه : إن هلاك الله للأمم بسبب ظلمها نوعان :

١- هو مقتضى سنن الاجتماع البشري ، فالظلم سبب لفساد السير الطبعي للحياة في أي مجتمع ، والظلم يسبب فساداً وتخبطاً في الاستقرار والنمو بشكل متوازن . وهذا أثر طبعي للظلم . وهو ـ أي الظلم ـ قسمان :

الأول : ظلم الأفراد لأنفسهم وذلك بالفسق والانخراط في الشهوات ، مما يسبب ضعفاً في الأبدان واضطراباً في التفكير ، فتنحل الأمة وتنتشر فيها الموبقات والأمراض الجنسية ، فتضعف شيئاً فشيئاً كما يهزل المريض الذي لا يجد لمرضه دواء .

---

(١) انظر ص (١٢٤) من هذا البحث وما بعدها .
(٢) سورة يونس ، الآية : ١٣ .
(٣) انظر جامع البيان ، الطبري (١١/ ٩٣) .

الثاني: ظلم الحكام. هذا يسبب ذهاب بأس الأمة في جملتها، ولهذا مواقيت وحدود تختلف باختلاف أحوال كل أمة وشدة جور حكامها. وكذلك بحسب قوة أعدائها الذين يتربصون بها.

قال تعالى: ﴿**وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً**﴾[1].

٢- النوع الثاني من الهلاك بسبب الظلم: عذاب الاستئصال للأقوام التي جاءتها رسل الله، فكذبوهم، وجحدوا آيات الله أو أصروا على الكفر والتكذيب بعد مجيء الآيات. وهذا النوع يكون خارقاً للعادة، فينزل عذاب الله سبحانه بغتة فيذهب بالأمة عن بكرة أبيها[2].

ومن الآيات التي ذكرت هلاك الأمم بسبب الظلم قوله تعالى: ﴿**وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد**﴾[3] وغيرها من الآيات.

الثالث: الكفر:

قال تعالى: ﴿**إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون**﴾[4].

الكفر من الأسباب التي يعاقب عليها سبحانه، وفي هذا الموضع عاقب الله الكفار بالختم على قلوبهم، فقال: ﴿**ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم**﴾[5].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٦٠.
(٢) انظر تفسير المنار، رشيد رضا (١١/ ٣١٤، ٣١٦).
(٣) سورة هود، الآية: ١٠٢.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٦.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٧.

الكفر لغة: ستر الشيء وتغطيته. ولذلك أطلق على الليل كافر لستره الناس وكذا الزارع لتغطيته الحب بالتراب. قال تعالى: ﴿كمثل غيث أعجب الكفار نباته﴾[1] أي الزراع[2].

أما الكفر اصطلاحاً:

قال النسفي: ستر الحق بالجحود[3]. وقال السيوطي: هو الجحود بوجود الله المضاد لمعرفته[4] وقيل: هو عدم التصديق بما جاء به الكتاب[5]. وكلها معان متقاربة. وأعظم الكفر جحود الوحدانية أو النبوة أو الشريعة.

والكفر يستعمل في الدين. والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالاً. والكفور فيهما[6].

وجُعِلَ كل محمود من الإيمان، وكل مذموم من الكفر. قال تعالى في السحر: ﴿وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾[7].

ويطلق الكافر على من اعتقد الكفر، وعلى من لم يعتقده ولكن أظهره.

والكفارة: ما يغطي الإثم. ومنها كفارة اليمين، والقتال، والظهار.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

(٢) انظر مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ٤٣٣، وانظر بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٤/ ٣٦١).

(٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي (١/ ١٣).

(٤) معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي (٢/ ١٦٣).

(٥) تفسير المنار، رشيد رضا (١/ ١٤٠).

(٦) انظر مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ٤٣٣، وانظر بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٤/ ٣٦١).

(٧) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

والتكفير ستر الذنب وتغطيته. قال تعالى: ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم﴾[1] أي سترناهم أو نذهبها ونزيلها[2].

أما الآية التي نحد بصددها فقد ورد في سبب نزولها أقوال:

١- نزلت في رؤوس اليهود الذين عاندوا رسول الله ﷺ.

وهذا القول أيده الطبري رحمه الله، مستدلاً بأن سورة الفاتحة ذكرت اليهود والنصارى في قوله تعالى: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾[3]. وهذا يناسب السياق. ونَقَلَ هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما[4].

وقال القرطبي: وهذا القول أصح[5].

وقال النيسابوري في أسباب النزول: قال الكلبي: يعني اليهود - أي الذين كفروا -[6].

٢- السبب الثاني: نزلت في قادة الأحزاب[7].

٣- نزلت في رؤوساء المشركين كأبي لهب وأبي جهل[8].

---

(١) سورة المئدة، آية: ٦٥.
(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٤/ ٣٦٤، ٣٦٥).
(٣) سورة الفاتحة، الآية: ٧.
(٤) انظر جامع البيان، الطبري (١/ ٨).
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ١٨٤).
(٦) أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ١٣، طبع دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ.
(٧) انظر جامع البيان، الطبري (١/ ٨٤)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ١٨٤).
(٨) انظر جامع البيان، الطبري (١/ ٨٤)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (٢/ ٤٠).

قال النيسابوري: قال الضحاك: نزلت في أبي جهل وخمسة من أهل بيته[1].

٤- إن النبي ﷺ كان حريصاً على إيمان الناس جميعاً، فأعلمه الله تعالى أن هناك أقواماً لن يؤمنوا ولذلك ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾[2].

وأولى الأقوال بالصواب القول الأول ـ كما قال الطبري ـ وهو أن الآية نزلت في رؤوس اليهود الذين وقفوا في وجه رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ـ ومن ذلك قوله تعالى: **﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين . أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾**[3].

تبين هذه الآية أن الكفر بعد الإيمان أمر عظيم.

وهذا يدل على أن الكفر يطلق على أي ذنب، ويكون مرتكبه خارجاً عن الإسلام أحياناً، فيطلق عليه الكفر مطلقاً كالمرتدين في هذه الآية. وكذلك يطلق على الذنب الذي لا يخرج عن الملة كفعل المعاصي من زنا وسرقة وغيرها.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أقوال ثلاثة:

١- قيل نزلت في رهط آمنوا ثم ارتدوا وكانوا يكيدون للإسلام، ولكن بعضهم تاب فاستثنى من اللعن في قوله تعالى: **﴿إلا الذين تابوا...﴾**.

---

(١) أسباب النزول، النيسابوري ١٣.
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ١٨٤).
(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ٨٦، ٨٧.

٢- نزلت في بني قريظة والنضير وتفصيل ذلك أنهم كانوا مؤمنين ببعثته عليه الصلاة والسلام قبل مجيئه ولكنهم كفروا به بعد إرساله.

٣- نزلت في الحرث ـ أو الحارث ـ بن سويد الذي ارتد عن الإسلام في عهد رسول الله ﷺ، ثم أرسلَ إلى قومه يريد العودة إلى الإسلام فرجع وحسن إسلامه.

أخرج الحاكم في المستدرك عن ابن عباس قال كان رجل من الأنصار أسلم، ثم ارتد، فلحق بالمشركين، ثم ندم، فأرسل إلى قومه أن سلوا رسول الله ﷺ هل لي من توبة قال: فنزلت: **﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم﴾** إلى قوله: **﴿إلاّ الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾**. قال فأرسل إليه قومه، فأسلم.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتابعه الذهبي[(١)].

والملاحظ أن الحاكم لم يصرح باسم الصحابي الذي ارتد ثم أسلم. ولكن ابن كثير قال عن مجاهد: الحارث بن سويد، فأسلم... الحديث[(٢)].

وقد رجح الإمام الرازي أنها نزلت في اليهود وهم بنو قريظة والنضير[(٣)].

والذي أميل إليه هو الأخير، وهو أنها نزلت في الحارث بن سويد، وذلك لورود أثر صحيح يبين أنها نزلت فيه.

---

(١) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، وتابعه الذهبي في التلخيص وهو مطبوع بذيل المستدرل (٢/ ١٤٢)، طبع دار امعرفة، لبنان، دون تاريخ.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٣٨٧، ٣٨٨).
(٣)انظر التفسير الكبير، الرازي (٨/ ١٢٨).

وفي هذا الموضع ذكر الرازي ملاحظة، وهي أن الآيتين تبينان عظم الكفر إذا اقترن بثلاثة أمور ذكرتها الآية، وهي:

١- الإيمان: أي أنه كفر بعد إيمان.

٢- شهادة أن الرسول حق. أي كفر بعد أن شهد أن الرسول حق.

٣- رؤية البينات، أي كفر مع رؤية الرسول عليه الصلاة والسلام، وما أتى به من معجزات[١].

وهذا يدل على أن حصول الكفر مع هذه الثلاثة والاستمرار عليه، يُعدّ من قبيل الجحود والعناد، وينبئ عن فساد قلب صاحبه، لذلك جعل الله اللعنة عليه، منه سبحانه ومن الملائكة والناس أجمعين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**إن الذيم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً**﴾[٢].

الكفر المذكور في هذه الآية جاء متكرراً بعد إيمان.

وللعلماء في تعيين من نزلت فيه الآية وجوه:

١- الآية عامة فيمن تكرر إيمانه وكفره، وازداد كفراً في النهاية، لأن تكرار مثل هذا يدل على فساد قلب صاحبه، وفي قوله تعالى: ﴿**لم يكن الله ليغفر لهم**﴾ دليل على أنهم لا يؤمنون إيماناً صحيحاً، إذ لو آمنوا بحق لغفر لهم، وهذا من علمه سبحانه بأحوال هؤلاء[٣].

---

(١) انظر المصدر السابق.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٧.
(٣) انظر التفسير الكبير، الرازي (١١/ ٧٨).

٢- هي في اليهود، فإنهم آمنوا بموسى عليه السلام، ثم كفروا بالتوراة، ثم آمنوا بداود، ثم كفروا بعيسى، وعند مجيء محمد عليه الصلاة والسلام ازدادوا كفراً به[(١)].

٣- هي في المنافقين، فقد آمنوا أولاً، ثم كفروا عندما لاقوا شياطينهم، وازدادوا كفراً عندما كادوا للمؤمنين[(٢)].

٤- هي في طائفة من أهل الكتاب كانوا يشككون المؤمنين، فيؤمنون تارة ويكفرون أخرى[(٣)].

والذي أميل إليه أنها في المنافقين، قال القفال رحمه الله: وليس المراد بيان هذا العدد بل المراد ترددهم، كما قال سبحانه: ﴿**مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء**﴾ أهـ. والذي يدل على أنها في المنافقين قوله تعالى بعدها مباشرة: ﴿**بشر المنفقين بأن لهم عذاباً أليماً**﴾[(٤)]. ورجح الإمام الطبري أنها في أهل الكتاب، لقوله تعالى قبلها: ﴿**يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا...**﴾ وأهل الكتاب هم الذين آمنوا أولاً ثم كفروا[(٥)].

وأما قوله تعالى: ﴿**ثم ازدادوا كفراً**﴾ ففي الزيادة المذكورة أقوال:

١- قيل زيادة الكفر هنا: الموت على الكفر[(٦)].

٢- وقيل ازدادوا كفراً بسبب ذنوب ارتكبوها[(٧)].

---

(١) انظر المصدر السابق، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٤١٥).
(٢) انظر التفسير الكبير، الرازي (١١/ ٧٨).
(٣) انظر المصدر السابق.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) انظر جامع البيان، الطبري (٥/ ٣٢٨).
(٦) انظر لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين بن محمد بن إبراهيم البغدادي المعروف بالخازن (١١/ ٤١٣)، طبع دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ، وانظر التفسير الكبير، الرازي (١١/ ٧٨).
(٧) انظر التفسير الكبير، الرازي (١١/ ٧٨).

٣- ازدادوا كفراً عندما قالوا: ﴿إنما نحن مستهزؤون﴾، والاستهزاء بالدين أعلى مراتب الكفر[١].

وفي الآية مسألة فقهية، وهي استتابة المرتد:

قال بعض العلماء: يستتاب المرتد ثلاثاً، وذلك اتباعاً للعدد الذي تكرر في الكفر والإيمان في الآية. وقال آخرون بل يستتاب في كل مرة يرتد فيها. واختار الثاني الإمام الطبري بحجة أن الذي حقن دم المرتد في المرة الأولى هو إعلانه التوبة، فهذا الحكم يبقى قائماً في كل مرة ما لم يأت نص يحدد عدد مرات قبول التوبة[٢].

يبقى أن نذكر ما قاله العلماء في الحديث الذي أخرجه الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال أناس لرسول الله ﷺ: يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية، قال أما من أحسن منكم في الإسلام فلا يؤاخذ بها، ومن أساء أخذ بعمله في الجاهلية والإسلام. وفي رواية: ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر[٣].

قال النووي في شرحه لصحيح مسلم: وأما معنى الحديث: فالصحيح فيه ما قاله جماعة من المحققين أن المراد بالإحسان هنا الدخول في الإسلام بالظاهر والباطل جميعاً، وأن يكون مسلماً حقيقياً، فهذا يغفر له ما سلف في الكفر بنص القرآن العزيز، والحديث الصحيح: الإسلام يهدم ما قبله[٤].

---

(١) انظر المصدر نفسه.
(٢) انظر جامع البيان، الطبري (٥/ ٣٢٨).
(٣) هذه رواية مسلم، انظر صحيح مسلم، كتاب الإيمان (١/ ١١١).
(٤) هذا جزء من حديث طويل أخرجه مسلم في صحيحه عن عمرو بن العاص رضي الله عنه. وانظر صحيح مسلم، كتاب الإيمان (١/ ١١٢).

وبإجماع المسلمين، والمراد بالإساءة عدم الدخول في الإسلام بقلبه، بل يكون منقاداً في الظاهر مظهراً للشهادتين، غير معتقد للإسلام بقلبه، فهذا منافق باق على كفره بإجماع المسلمين، فيؤاخذ بما عمل في الجاهلية قبل إظهار صورة الإسلام، وبما عمل بعد إظهارها؛ لأنه مستمر على كفره[1].

الرابع: النفـــاق:

قال تعالى: ﴿**ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون**﴾[2].

أجمع المفسرون على أن هذه الآيات في المنافقين[3].

النفاق لغة من النافقاء. والنافقاء:

قيل: هو جحر الضب واليربوع

وقيل: هو موضع يُرَقِّقه اليربوع من جحره، فإذا أتى من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فخرج.

قال أبو عبيد: سمي المنافق منافقاً للنفق، وهو السَّرَب في الأرض. وقيل: إنما سمى منافقاً لأنه منافق كاليربوع وهو دخوله نافقاءه.

وقال الجوهري: والنافقاء إحدى جحَرة اليربوع، يكتمها ويظهر غيرها، وهو موضع يرققه، فإذا أتى من قبلَ القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق ـ أي خرج ـ، والنفاق: الدخول في الإسلام من وجه، والخروج عنه

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، باب هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية؟ (٢/ ١٣٦).
(٢) سورة البقرة، الآيتان: ١٠، ١١.
(٣) انظر التفسير الكبير، الرازي (٢/ ٥٨).

من آخر. مشتق من نافقاء اليربوع. وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه[1].

وقال الإمام القرطبي: النفاق: إظهار الإسلام وإبطان الكفر[2].

وهذه الآية توضح هذا فإنه سبحانه وصفهم أنهم يظهرون بألسنتهم الإيمان بالله واليوم الآخر، ثم عقب بنفي الإيمان عنهم ـ حقيقة ـ، وبالغ في نفيه فقال: ﴿**وما هم بمؤمنين**﴾. ثم وصف حال المنافقين فقال: ﴿**يخادعون الله والذين آمنوا**﴾، والمخادعة من الخدع، وأصله إيهام الآخرين أنك تريد أمراً، وفي الحقيقة تريد غيره. ووجه التشبيه بالمنافقين أنهم أوهموا الناس بإرادتهم الإيمان وهم في الحقيقة يريدون الكفر ويوالون أهله[3].

- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له نصراً**﴾[4].

هذه الآية تتحدث عن المنافقين أو المرتدين، وهما قولان في المراد بالمذكورين في الآية[5].

وفي سبب نزولها وجوه:

١- قيل: نزلت في قوم جاؤوا رسول الله ﷺ وهم مسلمون، ثم طلبوا

---

(٤) لسان العرب، ابن منظور (١٠/٣٥٨ - ٣٦٠)، وانظر بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٥/ ١٠٥)، وانظر معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم ٥٣٧، وانظر التفسير الكبير، الرازي (٢/ ٥٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ١٩٥).

(٣) انظر تفسير المنار، رشيد رضا (١/ ١٤٩).

(٤) سورة النساء، الآية: ٨٨.

(٥) انظر التفسير الكبير، الرازي (١٠/ ٢١٨).

الخروج إلى الصحراء، فأذن لهم، وكانوا يبتعدون شيئاً فشيئاً حتى لحقوا بالمشركين، فاختلف المسلمون في الحكم عليهم كفراً أو إسلاماً. فأظهر اللّه كفرهم في هذه الآية[1].

٢- وقيل: نزلت في قوم أسلموا، وكانوا يعيشون في مكة، ويظاهرون المشركين. فاختلف المسلمون في شأنهم وهذا منسوب لابن عباس وقتادة[2].

٣- وقيل: نزلت في الذين تخلفوا يوم أحد من المنافقين. وهذا مروي عن زيد بن ثابت[3]. وضعّف الرازي هذا القول مستدلاً بأن سياق الآيات يدل على أن المقصودين من أهل مكة، وهو قوله تعالى بعد الآية هنا: **﴿فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله﴾**. ووافقه ابن عطية.

٤- وعن عكرمة سبب الآية خلاف المسلمين في قوم ضلوا، فأخذوا أموال المسلمين وانطلقوا بها إلى اليمامة[4].

٥- هم العرنيون الذين قتلوا يساراً مولى رسول الله ﷺ[5].

٦- هم أصحاب الإفك. وهذا مروي عن ابن زيد[6].

أما الذي أميل إليه فهو القول الثالث، ويشهد لها ما أخرجه البخاري في

---

(١) انظر المصدر السابق.
(٢) انظر المصدر السابق، وانظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (٤/ ١٩٨)، طبع مطابع فضالة، المغرب، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م. وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٤٥).
(٣) انظر المصادر السابقة.
(٤) انظر التفسير الكبير، الرازي (١٠/ ٢١٨).
(٥) انظر المصدر السابق.
(٦) انظر المصدر السابق، وانظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (٤/ ١٩٩).

صحيحه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه: رجع ناس من أصحاب النبي ﷺ من أحد، وكان الناس فيهم فرقتين: فريق يقول اقتُلْهم، وفريق يقول لا. فنزلت: ﴿**فما لكم في المنافقين فئتين**﴾[1].

وهذا الأثر الثابت يدل على أن سبب نزلوا الآية المنافقون الذين تخلوا عن رسول الله ﷺ في معركة أحد. وقد يقول قائل ولكن هذا قول صحابي. والجواب: قول الصحابي نزلت آية كذا بعد وقعة كذا بحكم المسند، ولكن الخلاف حصل إذا قال الصحابي: نزلت هذه لآية في كذا. فهذا القول قد يعتبر بحكم المسند، وعلى هذا البخاري رحمه اللّه، وغيره لا يُدخله فيه[2].

أما ما استدل به الرازي وابن عطية رحمهما الله من أن الآية التي بعدها تدل على أن المراد قوم في مكة، فيمكن الرد عليه بما أورده ابن عطية نفسه حيث قال: لكنهم يخرجون ـ القائلون بأن الآية في قوم المدينة كمنافقي أحد ـ المهاجرة إلى هجر ما نهى الله عنه، وترك الخلاف والنفاق. كما قال رسول الله ﷺ: «والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه». أهـ[3]. وعلى هذا القول يمكن تعضيد الأثر؛ لأنه أولى بالاعتبار، والله تعالى أعلم.

---

(١) الأثر أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة النساء، باب ﴿فما لكم في المنافقين..﴾ (٩/ ٥٩).

(٢) يقول ابن تيمية رحمه الله: وقد تنازع العلماء في قول الصاحب نزلت هذه الآية في كذا، هل يجري مجرى المسند، كما يذكر السبب الذي نزلت من أجله، أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند. فالبخاري يدخله في المسند، وغيره لا يدخله في المسند... بخلاف ما إذا كر سبباً نزلت عقبه، فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند. أهـ. مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣/ ٣٤٠)، وانظر الاتقان في علوم القرآن، السيوطي (١/ ٣١)، طبع مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية سنة ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م. وانظر مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني (١/ ١١٤، ١١٥)، طبع عيسى البابي الحلبي، مصر، دون تاريخ.

(٣) هذا جزء من حديث أخرجه الخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (١/ ٩)، وانظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (٤/ ١٩٩).

الخامس : الشرك :

قال تعالى : **﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين﴾**(١) .

الشرك في هذا الموضع سبب للعقاب، وعقوبته في الآية إلقاء الرعب في قلوب الكفرة(٢) .

الشرك من الشَّركة والمشاركة، ومعناهما خلط الملكين. وقيل الشرك أن يوجد شيء لاثنين فَصاعداً، عيناً كان ذلك أو معنى، كمشاركة الإنسان والفرس في الحيوانية(٣) .

وقال ابن مظور: الشِّرْكة والشَّركة سواء: مخالطة الشريكين. والشريك: المشارك. وجمعه أشراك وشَركاء.

وأشرك بالله: جعل له شريكاً في ملكه. قال تعالى حكاية عن عبده لقمان: **﴿يا بني لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾**(٤) . والشرك: أن يجعل لله شريكاً في ربوبيته، والشرك بالله أن تعدل بالله غيره(٥) .

* فائدة: وشرك الإنسان في الدين ضربان:

١ – الشرك العظيم، وهو إثبات شريك لله ـ تعالى الله عن ذلك ـ يقال أشرك فلان بالله، وذلك أعظم الكفر. قال تعالى: **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به**

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥١ .

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٤/ ٢٣٣).

(٣) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٣/ ٣١٣).

(٤) سورة لقمان، الآية: ١٣ .

(٥) انظر لسان العرب، ابن منظور (١٠/ ٤٤٨، ٤٤٩) تصرف.

ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[1] .

– الشرك الصغير: هو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور، وذلك كالرياء.

ومنه قوله تعالى: **﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون﴾**[2] .

قال صاحب معجم الألفاظ: وأشرك بالله جعله له شريكاً في ملكه وربوبيته.

والإشراك بالله: هو الاعتقاد بأن لغير الله أثراً في تصريف الأقدار وتدبير الكون. أهـ[3] .

وقال القرطبي: والشرك جعل الشريك أو العدل، تقول أشرك به إذا عدل به غيره[4] .

إذاً إن الله يعاقب الذين يجعلون له نداً وشريكاً بإلقاء الرعب. أما قوله تعالى: **﴿بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾** فالسلطان من القوة لأنه يُقْهر بالقوة كما يقهر بالسلطان، والسلطان في الآية الحجة والبرهان والدليل[5] .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن حداً من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً،

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

(٣) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم ٢٦٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٤/ ٢٣٣).

(٥) انظر المصدر السابق.

وأحلت لي الغنائم، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[1].

وفي رواية أبي أمامة: «نصرت بالرعب يقذف في قلوب أعدائي»[2].

وهذه خاصية من خصوصيات رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام حتى وإن كان وحده في غزوة. وأما هل هي حاصلة لأمته من بعده؟ قال ابن حجر: فيه احتمال[3].

والذي أميل إليه: أن الرعب المذكور في الآية يحصل لكل من حمل لواءهذا الدين بصدق وإخلاص. والدليل على ذلك: إن المعارك التي دارت وتدور بين المؤمنين وأعداء حملة هذا الدين، وهي معركة بين مبدأ وما يقابله من مبادئ أو نزوات وهوى، فهو صراع بين حق وباطل، وهذا الأمر موطنه القلب أولاً ولا يختص بأشخاص معينين - مع اعتقادنا لرسول الله ﷺ بأنه خير من طلعت عليه الشمس - لذلك فكل من صدق مع الله فإن الله معه، يوقع في قلوب أعداءه المهابة والرعب، وهذا لتأييد الله المؤمنين، ولما في مبدأ الإسلام من عظمة ولما في الحق من رهبة في قلوب باغضيه.

والشيء الثاني مما يستدل به على أن هذا للمسلمين بعد رسول الله ﷺ تاريخ معارك الإسلام بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، فإن جيوش المسلمين كانت ترتعد منها فرائص الكافرين قبل وصولها، ومعظم معارك المسلمين

---

(١) الحديث متفق عليه، واللفظ للبخاري رحمه الله أخرجه في صحيحه، كتاب التيمم (١/ ٩١)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة عن أبي هريرة (١/ ٣٧١، ٣٧٢).

(٢) انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (١/ ٤٣٧)، طبع دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ.

(٣) انظر المصدر السابق.

التي انتصروا فيها كان العدد والعدة الكَثيرَيْن من نصيب أعداء الله، ومع ذلك كان النصر حليف القلة الضعيفة عدة وعدداً، ولكنها المؤيدة من الله عز وجل.

وفي المراد في الآية المذكورة قال ابن كثير والقرطبي: إن المراد أبو سفيان ألقى الله في قلبه الرعب بعد انتهاء معركة أحد عندما حاول الرجوع إلى المدينة لاستئصال المسلمين ـ حسب زعمه ـ بعد هزيمتهم، وذلك كي لا تقوم لهم قائمة فيما بعد[1].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم﴾[2].

يقول تعالى: واذكروا إذ قال موسى لقومه بعد عودته من الموعد مع ربه إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل إلهاً[3].

إن بني إسرائيل عبدوا عجلاً مصنوعاً من حليهم، فاتخذوه شريكاً لله تعالى، فعاقبهم الله سبحانه بأن أوجب عليهم قتل أنفسهم، وهذا كان بمثابة فعل مقابل التوبة عليهم. وفي كيفية قتلهم أنفسهم.

ـ قيل إن القول اصطفوا على نسقين متقابلين، وحمل كل واحد منهم سكيناً وطعن قبيله. وذكرت هيئات أخرى لا أريد الإطالة بها[4]. المهم أن القوم قتلوا أنفسهم.

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٢٠)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٤/ ٢٣٣).
(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٤.
(٣) انظر التفسير الكبير، الرازي (٣/ ٧٩).
(٤) انظر جامع البيان، الطبري (١/ ٢٨٥ ـ ٢٨٨).

السادس : الإيمان بالجبت والطاغوت :

قال تعالى : ﴿**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين امنوا سبيلاً أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً**﴾[١] .

هاتان الآيتان تذكران نوعين من أسباب العقاب التي ارتكبها اليهود، وهما :

١- الإيمان بالجبت والطاغوت .

٢- قولهم للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً .

الجبت : قال الجوهري : ليس من محض العربية[٢] .

قال الرازي : زعم الأكثرون أن الجبت ليس له تصريف في اللغة . أهـ[٣] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الجبت اسم الشيطان في الحبشية . وعن سعيد بن جبير قال : الجبت : الساحر بلسان الحبشية[٤] .

قال ابن منظور : الجبت : كل ما عبد من دون الله . وقيل هي كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك[٥] . وقال الرازي : أهل اللغة يقولون إن كل معبود سوى الله فهو جبت وطاغوت[٦] .

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ٥١ ، ٥٢ .
(٢) انظر لسان العرب، ابن منظور (٢/ ٢١).
(٣) التفسير الكبير، الرازي (١٠/ ١٢٨ ، ١٢٩).
(٤) معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي (٢/ ٦٠).
(٥) لسان العرب، ابن منظور (٢/ ٢١).
(٦) التفسير الكبير، الرازي (١٠/ ١٢٨ ، ١٢٩).

وقال السيوطي: فيه أقوال: والصحيح أنه كل ما عبد من دون الله ـ فهو الجبت ـ، يقال الجبت السحر[1]. وقيل: الجبت اسم صنم، ثم استعمل في كل ما خضع له الناس وعبدوه من دون الله من شيطان أو ساحر أو كاهن، والجبت السحر أيضاً[2]. وقيل: الجبت والجبْس: الفَسْل الذي لا خير فيه، وقيل التاء بدل ـ أي بدل السين ـ تنبيهاً على مبالغته في الفسولة[3].

الفَسْل: الرديء الرذل من كل شيء[4]. ويقال لكل ما عُبد من دون الله: جبت. وقد يسمى الساحر والكاهن جبتاً[5]. وقال ابن المبارك اليزيدي: الجبت: قالوا السحر وقالوا الكاهن[6].

أما الطاغوت: فهو من طغى طغياناً إذا جاوز القدر وارتفع وغلا في الكفر، وكل مجاوز حده في العصيان طاغ. تقول: طغى البحر: هاجت أمواجه. وقال أبو إسحاق كل معبود من دون الله عز وجل جبت وطاغوت، ويقال للشيطان طاغوت وللصنم. وعن الليث: الطاغية الجبار العنيد. وقيل الأحمق المستكبر الظالم.

وقيل: الطاغية الذي لا يبالي ما أتي، يأكل الناس ويقهرهم[7].

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي (٢/ ٦٠).
(٢) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعل إبراهيم ٩٥.
(٣) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٢/ ٣٥٩).
(٤) لسان العرب، ابن منظور (١١/ ٥١٩).
(٥) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٢/ ٣٥٩).
(٦) غريب القرآن وتفسيره، أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن المبارك اليزيدي، ص١٢٠، طبع عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
(٧) لسان العرب، ابن منظور (١٥/ ٧ - ١٠).

وقيل: الطاغوت: اللات والعزى، والكهن، والشيطان، وكل رأس ضلال، والأصنام، وكل ما عبد من دون الله، ومردة أهل الكتاب[١].

قال الإمام مالك: الطاغوت كل ما يعبد من دون الله عز وجل[٢].

أما في كتب التفسير فقد اختلفت أقوال العلماء في تحديد معني الجبت والطاغوت.

- فقيل: الجبت الأصنام وكل ما عبد من دون الله، والطاغوت الشيطان.
- وعن عمر رضي الله عنه الجبت السحر. والطاغوت الشيطان.
- وقيل الجبت الأصنام والطاغوت سدنتها الذين يضلون الناس بها.
- وقيل الجبت الكاهن، والطاغوت الساحر.
- وعن الكلبي: الجبت حيي بن أخطب، والطاغوت كعب بن الأشرف.
- وقيل: الجبت والطاغوت صنمان لقريش.
- وعن ابن عباس: الجبت: الشرك[٣].

روى الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله بسنده عن ابن عباس قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة، قالت له قريش: أنت خير أهل المدينة وسيدهم؟ قال: نعم. قالوا: ألا ترى إلى هذا الصنبور[٤] المنبتر من قومه، يزعم أنه خير

---

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٣/ ٥٠٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٤).
(٣) انظر هذه الأقوال في جامع البيان، الطبري (٥/ ١٣٠ - ١٣٣)، وانظر التفسير الكبر، الرازي (١٠/ ١٢٨، ١٢٩)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٤)، وانظر تفسير المنار، رشيد رضا (٥/ ١٥٦، ١٥٧)، وانظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (٤/ ١٤٨، ١٤٩).
(٤) قال في لسان العرب: الصنبور: فرد ضعيف ذليل لا أهل له ولا عقب ولا ناصر. أهـ (٤/ ٤٦٩).

منا، ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية؟ قال أنتم خير منه. قال: فأنزلت: ﴿**إن شانئك هو الأبتر**﴾[1]. وأنزلت: ﴿**ألم تر إلى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت..**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**لن تجد له نصيراً**﴾[2].

وروى الطبري بسنده عن عكرمة: أن كعب بن الأشرف انطلق إلى المشركين من كفار قريش فاستجاشهم على النبي ﷺ وأمرهم أن يغزوه، وقال إنا معكم نقاتله، فقالوا: إنكم أهل كتاب، وهو صاحب كتاب، ولا نأمن أن يكون هذا مكراً منكم، فإن أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما ففعل، ثم قالوا: نحن أهدى أم محمد؟ فنحن ننحر الكوماء، ونسقي اللبن على الماء، ونصل الرحم، ونقري الضيف، ونطوف بهذا البيت، ومحمد قطع رحمه، وخرج من بلده قال: بل أنتم خير وأهدى، فنزلت فيه: ﴿**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً**﴾[3].

وهناك روايات أخرى أوردها الطبري وابن كثير وغيرهما رحمهم الله جميعاً.

أما الرواية الأولى ففيها إشكال رغم أن رجال إسنادها رجال الصحيح، حيث إن سورة الكوثر - كما تقول كتب أسباب التنزيل - نزلت في مكة[4].

---

(١) سورة الكوثر، الآية: ٣.

(٢) جامع البيان، الطبري (٥/ ١٣٣)، قال صاحب الصحيح المسند من أسباب النزول، ورجاله رجال الصحيح، وانظر الصحيح المسند من أسباب النزول، مقبل بن هادي الوادعي ٤٧، ٤٨، طبع دار الأرقم، الكويت، دون تاريخ.

(٣) جامع البيان، الطبري (٥/ ١٣٤).

(٤) أنظر أسباب النزول، الواحدي النيسابوري ٥٤٣، ٥٤٤، طبع دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، الطبعة الثالثة، سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

وسياق الآيات التي في سورة النساء والتي نحن بصددها سياق واحد، فقبلها ببعض آيات يقول تعالى: **﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل﴾**[1]، ثم يقول عز وجل بعد آية: **﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم...﴾**[2] الآية. وهكذا نجد أن الحديث عن اليهود. بل إن الآيات التي قبلها لم يختلف المفسرون في أنها في اليهود[3].
أما الآية نفسها فقال ابن عطية: ظاهرها يعم اليهود والنصارى، ولكن أجمع المتأولون على المراد بها طائفة من اليهود. أهـ[4].

مما سبق يظهر الإشكال في القول بأن آية الكوثر وآية النساء نزلتا لهذا السبب.

قال صاحب المنار: أقول: الرواية الأولى عند البزار وغيره في سبب نزول سورة الكوثر، وهي مكية، ووقائع هذه السورة مدنية كما بيناه، ومحاجة اليهود وبيان أحوالهم لم يفصل إلاَّ في السور المدنية بعد ابتلاء المؤمنين بكيدهم فيها وفي جوارها، ففي الرواية خلط سببه اشتباه بعض الرواة في الأسباب المتشابهة.. والآيات متصلة ما قبلها ولا يبعد أن يكون السياق كله قد نزل بعد غزوة الأحزاب أو في أثنائها، إذ نقض اليهود عهد النبي ﷺ واتحدوا مع المشركين على استئصال المسلمين، وذلك هو تفضيلهم للمشركين على المؤمنين بالفعل، ولابد أن يكونوا صرحوا بالتفضيل بالقول عند النداء بالنفير لحرب المؤمنين. أهـ[5].

(١) سورة النساء، الآية: ٤٤.
(٢) سورة النساء، الآية: ٤٧.
(٣) انظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٤/١٤٦).
(٤) المصدر السابق (٤/ ١٨٤).
(٥) تفسير المنار، رشيد رضا (٥/ ١٥٦).

وبعد: فقد وقفت عند هذه النقطة قليلاً لأستعين بها على فهم المراد بالآية، والذي أميل إليه ما قاله أبو جعفر الطبري رحمه الله: والصواب من القول في تأويل ﴿يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ أن يقال: يصدقون بمعبودَيْن من دون الله يعبدونهما من دون الله، ويتخذونهما إلهين، وذلك أن الجبت والطاغوت اسمان لكل معظم بعبادة من دون الله أو طاعة أو خضوع له، كائناً ما كان ذلك المعظم، من حجر أو إنسان أو شيطان، وإذا كان ذلك كذلك وكانت الأصنام التي كانت في الجاهلية تعبدها وكانت معظمة بالعبادة من دون الله، فقد كانت جبوتاً وطواغيت، وكذلك الشياطين التي كانت الكفار تطيعها في معصية الله، وكذلك الساحر والكاهن اللذان كان مقبولاً منهما ما قالا في أهل الشرك بالله، وكذلك حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف، لأنهما كانا مطاعين في أهل ملتهما من اليهود في معصية الله والكفر به وبرسوله، فكانا جبتين وطاغوتين. أهـ[1].

والذي يدل على ما قاله الإمام الطبري رحمه الله قوله تعالى في الآيات بعدها: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾[2].

ليس المراد هنا تحديد الذين يزعمون أنهم آمنوا ويتحاكمون إلى الطاغوت، ولكن المراد أن نستدل للطبري رحمه الله بتفسيره للطاغوت، فهؤلاء الذين يزعمون الإيمان بما أنزل إليك يا محمد وبما أنزل من قبلك، يريدون أن يتحاكموا في خصومتهم إلى الطاغوت، يعني إلى من يعظمونه ويصدرون عن قوله، ويرضون بحكمه، من دون حكم الله[3].

(١) جامع البيان، الطبري (٥/ ١٣٣).
(٢) سورة النساء، الآية: ٦٠.
(٣) جامع البيان، الطبري (٥/ ١٥٢) بتصرف.

وروايات مناسبة الآية ذكرت أن خصومة وقعت بين طرفين، فطرف منهما طلب التحاكم إلى كاهن أو سيد فيهم دون التحاكم إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية.

والخلاصة: إن الرضى بالعبودية، والرضى بحكم غير حكم الله هو ما يسميه القرآن بالطاغوت، سواء كان هذا المعبود حجراً أو شجراً أو كاهناً أو زعيماً دينياً أو سياسياً، أو شرعاً يحتكم الناس إليه طوعاً ورضى، كل هذا طاغوت يحجب المرء عن دين الإسلام[1].

أما السبب الثاني الذي لعنهم الله من أجله وهو ما بينه قوله تعالى: ﴿**ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً**﴾، فمناسبة الآية تبين أن كعب بن الأشرف ومن معه فضلوا المشركين عبدة الأوثان على المسلمين عندما قالوا: بل أنتم خير.

السابع: ادعاء الألوهية والربوبية:

قال تعالى: ﴿**وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين**﴾[2].

وقال تعالى: ﴿**فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى**﴾[3].

هاتان الآيتان تذكران ادعاء فرعون الألوهية والربوبية. عن ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد: إن فرعون قال أنا ربكم الأعلى بعد أربعين سنة من ادعائه الألوهية[4].

---

(١) انظر في ظلال القرآن، سيد قطب (٢/ ٦٩٤، ٦٩٥).
(٢) سورة القصص، الآية: ٣٨.
(٣) سورة المنازعات، الآيتان: ٢٤، ٢٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٤٠١).

أما الألوهية فهي من الإله: وعرفه العلماء اصطلاحاً بأنه كل معبود بحق أو بباطل، ولفظة الله مختصة بالمعبود بحق[1]. فكل ما ادُّعي أنه يستحق العبادة فهذا ادعاء الألوهية. وادعاء الألوهية لا ينحصر مفهوم الصلاة أو السجود أو غير ذلك من أنواع العبادات الخاصة. بل إن كل إنسان نصّب نفسه آمراً وناهياً، وأوجب على الناس طاعته بتشريع يخالف شريعة الله، فقد نصب نفسه إلهاً من دونه عز وجل، وهذا هو ادعاء الألوهية. والذي ادعاه فرعون أحقيته بالسجود له وبالتشريع للناس.

أما الربوبية فهو من الرب، وأصل الرب من التربية وهي إنشاء حالاً فحالاً إلى حد التمام. والرب: المالك والصاحب والمستحق[2].

ثم قال تعالى: ﴿**فأوقدلي ياهامان على الطين فاجعل لي صرحاً**﴾ طلب فرعون - ذكر أن اسمه الوليد بن مصعب -[3] من وزيره هامان أن يطبخ له الأجر ويبني له قصراً عالياً ليطلع إلى إله موسى[4].

ثم قال تعالى: ﴿**فأخذه الله نكال الآخرة والأولى**﴾. والنكال من النكل وهو اسم لما جعلته نكالاً لغيره، إذا رآه خاف أن يعمله عمله[5].

والمعنى انتقم الله منه حتى صار عبرة ونكالاً لغيره في الدنيا، ﴿**ويوم القيامة بئس الرفد المرفود**﴾[6]. قال ابن كثير رحمه الله: وهذا هو الصحيح الذي لا شك فيه في المراد بقوله تعالى: ﴿**فأخذه الله نكال الآخرة والأولى**﴾.

(١) انظر بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٢/ ١٦، ١٧).
(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٣/ ٢٩)، وانظر مختار الصحاح، الرازي ٢٢٨.
(٣) انظر الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير (١/ ١٣٠)، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٣/ ٢٨٨).
(٥) لسان العرب، ابن منظور (١١/ ٦٧٧).
(٦) سورة هود، الآية: ٩٩. انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٤٠١).

وقيل الآخرة والأولى: كلمتان أي قوله: ﴿**ما علمت لكم من إله غيري**﴾ هذه الأولى، والثانية قوله: ﴿**أنا ربكم الأعلى**﴾[1]. وما قاله ابن كثير هو الصحيح إن شاء الله.

الثامن: الاستكبار:

قال تعالى: ﴿**وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين . فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا . . .**﴾[2].

وقال تعالى في فرعون: ﴿**واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين**﴾[3].

وقال تعالى: ﴿**فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً . . .**﴾[4].

سبب عقاب المذكورين في هذه الآيات هو الاستكبار.

الاستكبار: الامتناع عن قبول الحق معاندة وتكبراً[5].

والكبر والتكبر والاستكبار متقاربة.

الكبر: حالة يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وأن يرى نفسه

---

(١) انظر المصدر السابق، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٩/ ٢٠٢).
(٢) سورة العنكبوت، الآيتان: ٣٩، ٤٠.
(٣) سورة القصص، الآيتان: ٣٩، ٤٠.
(٤) سورة فصلت: الآيتان: ١٥، ١٦.
(٥) لسان العرب، ابن منظور (٥/ ١٢٥، ١٢٦).

أكبر من غيره، وأعظم الكبر التكبر على الله عز وجل بالامتناع عن قبول الحق.

والاستكبار على وجهين:

الأول: أن يتحرى الإنسان ويطلب أن يكون كبيراً، وذلك متى كان على ما يجب، وفي المكان الذي يجب، وفي الوقت الذي يجب، فهذا محمود.

الثاني: أن يتشبع فيظهر من نفسه ما ليس له، وهذا مذموم وعلى هذا المعنى استكبار المعاقبين الذين ذكرت الآيات الخاصة هم كفرعون وغيره.

أما التكبر فهو على وجهين كذلك:

الأول: أن تكون الأفعال الحسنة كبيرة في الحقيقة وزائدة على محاسن غيره. ومن هذا قوله تعالى: ﴿**العزيز الجبار المتكبر**﴾[1].

الثاني: أن يكون متكلفاً لذلك متشبعاً، وذلك في عامة الناس، وكل من وصف بالنوع الأول من التكبر فمحمود، وكل من وصف بالثاني فمذموم. ويدل عى صحة وصف الإنسان به قوله تعالى: ﴿**سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق**﴾[2].

والكبرياء: الترفع عن الانقياد، ولا يستحقه إلاّ الله تعالى[3]. جاء في الحديث القدسي الذي أخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة وابن عباس - روايتان

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٢٣.

(٢) سورة أعراف، الآية: ١٤٦.

(٣) انظر بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٤/ ٣٢٥، ٣٢٦)، وانظر معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم ص٤٤٥.

ـ قال رسول الله ﷺ : «يقول الله تعالى سبحانه : الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، من نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم»[١] . والحديث صحيح[٢] .

والمتكبر ضد المتواضع[٣] .

قال ابن الأثير : الكبرياء : العظمة والملك ، وقيل هي عبارة عن كمال الذات ، وكمال الوجود ، ولا يوصف بهما إلاّ الله تعالى . أهـ[٤] .

ففرعون وغيره من المستكبرين تكبروا وعتوا عن أمر الله ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

التاسع : العتو عن أمر الله :

قال تعالى : ﴿**وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً**﴾[٥] .

وقال تعالى : ﴿**فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين**﴾[٦] .

وقال تعالى في أصحاب السبت : ﴿**فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين**﴾[٧] .

---

(١) سنن الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ابن ماجه) كتاب الزهد ، باب البراءة من الكبر والتواضع (٢/ ١٣٩٧) ، طبع دار إحياء التراث العربي ، سنة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م .

(٢) صحيح سنن ابن ماجه ، محمد ناصر الدين الألباني ، نفس الكتاب والباب (٢/ ٤٠٥) طبع المكتب الإسلامي ، بيروت الطبعة الثالثة ، سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن ، السيوطي (٢/ ٥٣١ ، ٥٣٢) .

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ١٤٠) ، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير ، توزيع دار الباز ، مكة المكرمة .

(٥) سورة الطلاق ، الآية : ٨ .

(٦) سورة الأعراف ، الآيتان : ٧٧ ، ٧٨ .

(٧) سورة الأعراف ، الآية : ١٦٦ .

سب العقاب في هذه الآيات : العتو عن أمر الله .

والعتو : الاستكبار ومجاوزة الحد[1] وقيل : العتو : النبو عن الطاعة[2] .

تقول : عتا الشيخ : كبر وولى .

وبلغ من الكبر عتياً : أي صار شيخاً هرماً يصعب علاجه . وأشد عتياً : أشد تمرداً وعصياناً . وريح عاتية : شديدة[3] .

إذن فالعتوّ : التمرد عن الطاعة والعصيان استكباراً[4] .

ومن القرى التي عتت قوم صالح فقد أمرهم نبيهم أن يتركوا الناقة التي أرسلها الله تعالى لهم آية ، فقال : ﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾[5] . وفي عتوهم وجهان :

١- أنهم عصوا أمر نبيهم فعقروها[6] .

٢- أن أمر نبيهم لهم ترك الناقة جعلهم يستكبرون ، وذلك من باب : الممنوع مرغوب[7] .

والذي أميل إليه الأول : لأن فعلهم يدل على فساد قلوبهم واستعدادهم للعتو عن أمر الله . وليس مجرد أن كل ممنوع مرغوب ، فهذا يتساوى به كل البشر ، والله أعلم .

---

(١) القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ١٦٨٨ .
(٢) بصائر ذوي التمييز ، الفيروز آبادي (٤/ ١٩) .
(٣) انظر معجم الألفاظ والأعلام القرآنية ، محمد إسماعيل إبراهيم ٣٢٩ .
(٤) انظر التفسير الكبير ، الرازي (١٤/ ١٦٥) ، وانظر الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي (٧/ ٢٤١) .
(٥) سورة الأعراف ، الآية : ٧٣ .
(٦) انظر التفسير الكبير ، الرازي (١٤ . ١٦٥) .
(٧) انظر المصدر السابق .

العاشر : طلب رؤية الله :

قال تعالى : ﴿**وإذ قلتم يا موسى أرنا الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون**﴾[1]
أما زمن طلب بني إسرائيل رؤية اللّه تعالى ففيه وجهان :

١ - كان طلب رؤية بعد حادثة عبادة العجل ، حيث انتقى موسى عليه السلام منهم سبعين رجلاً ، وذهب بهم إلى الطور ، ليتوبوا إلى الله من عبادتهم العجل ، وهناك ـ على الطور ـ طلبوا رؤية الله سبحانه .

٢ -حصل طلب الرؤية بعد إحضار موسى عليه السلام الألواح . فقالوا لا نؤمن بما جئت به حتى نرى الله جهرة ، ثم يخبرنا أن هذا الكتاب من عنده ، ولماذا ـ أصلاً ـ يكلمك ولا يكلمنا؟ ![2] .

وهؤلاء طلبوا رؤية الله تعالى : ﴿**جهرة**﴾ ، وهي لغة من جهر الأمرُ ، إذا ظهر[3] . والمادة موضوعة لظهور الشيء بإفراط لحاسة البصر أو لحاسة السمع . أما للبصر فنحو قولك : رأيته جهاراً ، وأما السمع فنحو قولك : جهر بالكلام . تقول : كلام جهوري وجهير[4] .

وفي تفسير ﴿**جهرة**﴾ : عن ابن عباس : جهرة أي علانية . وعن قتادة والربيع بن أنس : عياناً[5] . وقيل : يمكن أن يكون جهرة جمع جاهر ، والمعنى : حتى نرى الله كاشفين هذا الأمر[6] . وفي موقع ﴿**جهرة**﴾ قولان :

---

(١) سورةالبقرة، الآية : ٥٥ .
(٢) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٩٧ ، ٩٨).
(٣) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية ، محمد إسماعيل إبراهيم ١٠٩ .
(٤) بصائر ذوي التمييز ، الفيروز آبادي (٢/ ٤٠٤).
(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ٤٠٤).
(٦) انظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ابن عطية (١/ ٢٢٥).

الأول : صفة لخطابهم موسى عليه السلام. والتقدير : وإذ قلتم جهرة أرنا الله[1].

الثاني : صفة للرؤية، والتقدير : أرنا الله عياناً[2].

الحادي عشر : تبديل أمر الله :

قال تعالى : ﴿**وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون**﴾[3].

أمر سبحانه بني إسرائيل بدخول القرية وقتال العماليق الذين فيها، فأبوا ذلك، فعاقبهم الله بالتيه أربعين سنة، ثم أمرهم مرة أخرى بدخول القرية نفسها كما تذكر هذه الآية.

أما القرية المذكورة ففيها أقوال : قيل بيت المقدس. وقيل أريحاء. وقيل مصر[4]. وقد رجح ابن كثير أنها بيت المقدس، وضعّف ما سواها من الأقوال والإمام الرازي استبعد كونها بيت المقدس. وقال ابن عطية : والإشارة إلى بيت المقدس في قول الجمهور[5]. وهذا ما أميل إليه.

وقد أمرهم سبحانه أن يدخلوا القرية في حالة معينة وهي قوله تعالى : ﴿**وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة**﴾، ففي معنى ﴿**سجداً**﴾ قيل شكراً، وقيل

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ٤٠٤)، وانظر روح المعاني، للآلوسي (١/ ٢٦٢).
(٢) انظر المصدرين السابقين.
(٣) سورة البقرة، الآيتان : ٥٨، ٥٩.
(٤) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ١٠٢)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (٣/ ٨٨).
(٥) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (١/ ٢٣٠).

ركعاً، وقيل في حالة خضوع، وقيل غير ذلك[1]. وأنا أستبعد سجداً بمعنى شكراً لما سيأتي من الحديث الذي أخرجه البخاري. قال ابن عطية: والسجود يعم هذا كله لأنه التواضع[2].

وأما قوله تعالى: ﴿وقولوا حطة﴾ ففيها وجوه:

- قيل حطة أي: مغفرة بمعنى استغفروا لله. وهذا مروي عن ابن عباس.

- وقيل حطة أي: قولوا هذا الأمر حق كما قيل لكم.

- وعن عكرمة: قولوا لا إله إلا الله.

- وعن الحسن وقتادة: احطط عنا خطايانا. وهذا شبيه بالأول[3]. وهذان القولان: «مغفرة» و«احطط عنا خطايانا» هما ما أميل إليه لقوله تعالى في آخر الآية: ﴿نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم﴾، وهذه العبارة من الآية هي التي تبين سبب العقاب مجملاً، وما سبق شرحه من الآية هو السبب تفصيلاً. وخير من يفسر القرآن رسول الله ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة، فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا، وقالوا حبة في شعرة[4].

وهذا الحديث يبين أن التبديل الحاصل هو تبديل للفعل بأن دخلوا على

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ١٠٢).
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (١/ ٢٣٠، ٢٣١).
(٣) انظر المصدر السابق، وانظر تفسير لقرآن العظيم، ابن كثير (١/ ١٠٢).
(٤) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، تفسير سورة البقرة، باب ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية...﴾ (٦/ ٢٢، ٢٣).

أستاههم، وكذلك تبديل قول، فقد أمروا أن يقولوا حطة فقالوا حبة في شعرة. فعاقبهم الله بالرجز.

وذكرت هذه القصة في موضع آخر. قال تعالى: ﴿**وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء ما كانوا يظلمون**﴾[(١)] .

وقد سبق تفصيل القصة فلا حاجة للإعادة[(٢)] .

الثاني عشر: قتل الأنبياء:

قال تعالى: ﴿**وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون**﴾[(٣)] .

ذكر سبحانه أن كفر بني إسرائل بآيات الله وقتلهم الأنبياء كان سبباً لبوئهم بغضب الله، وكذلك لضرب الذلة والمسكنة عليهم. أما الكفر فقد تحدثت عنه سابقاً[(٤)] . وأما قتل الأنبياء فهو أعظم الذنوب عند الله؛ لأن المرء قد يكفر برسول الله وما حمل معه من شريعة ولكن أن يصل به الأمر إلى قتل ذلك الرسول، فهذا دليل على نفور قلبه كلية من الإيمان، وتمكن الغيظ في قلبه من دعوة الحق وندائه. أما بنو إسرائيل فقد اشتهروا بهذه المعصية ـ

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان ١٦١، ١٦٢.
(٢) انظر ص(٢٠٦) من هذا البحث.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٦١.
(٤) انظر ص (١٧٧)من هذا البحث ومابعدها .

قاتلهم الله ـ فقد قتلوا من الأنبياء الكثير. كزكريا ويحيى[1]. وهموا بقتل عيسى لولا أن رفعه الله إليه، ومع هذا فهم يزعمون أنهم قتلوه ويتباهون بهذا[2].

أخرج أحمد في مسنده: حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا عبد الصمد ثنا أبان ثنا عاصم عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتله نبي أو قتل نبياً وإمام ضلالة وممثل من الممثلين»[3]. والحديث حسن[4].

وروى ابن كثير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي ثم يقيمون سوق بقلهم من آخر النهار»[5]. وأما قوله تعالى: ﴿بغير الحق﴾ فمعلوم أن قتل الأنبياء غير حق قطعاً. وللعلماء في تأويل هذا القيد وجوه:

١ - قد يكون الباطل حقاً في نظر فاعله لشبهة وقعت له. وقد يفعله مع اعتقاده ببطلان فعله، والثاني أقبح، وعلى هذا يكون المعنى إنهم قتلوا الأنبياء مع علمهم بأنه عمل قبيح[6].

٢ - التكرير لأجل التأكيد فقتل الأنبياء غير حق فكرر لهذا[1].

(١) انظر الجمل على الجلالين والمسمى (الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين لدقائق الخفية) (١/ ٥٩)، سليمان بن عمر العجيلي الشهير بالجمل، وبها مشه تفسير الجلالين (جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي)، طبع دار قهرمان، استانبول، تركيا، دون تاريخ.
(٢) انظر المصدر السابق.
(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل (١/ ٤٠٧)، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، توزيع دار الباز، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
(٤) انظر صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني (١/ ٣٣٥)، طبع المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ١٠٦).
(٦) انظر التفسير الكبير، الرازي (٣/ ١٠٣).

٣- لو لم يذكر سبحانه قوله ﴿بغير حق﴾ لادَّعَو أن الله يقتلهم فلماذا يذمون على هذا؟ فبيّن سبحانه أن قتلهم بغير حق وقتله بحق[٢].

٤- قال الإمام الطبري: إنهم كانوا يقتلون رسل الله بغير إذن الله لهم بقتلهم، منكرين رسالتهم جاحدين نبوتهم. أهـ[٣].

والذي أميل إليه أن التقييد هنا لإظهار معايبهم فقد بينت العبارة القرآنية الكريمة ثلاثة أمور مع هذا التقييد وهي: قتل النبي ـ وهذا جرم عظيم أن يقتل رسول الله، ثم إنهم لم يقتلوا واحداً بل قتلوا عدداً منهم، وهذه أشد من سابقتها، ثم بين سبحانه أن كل ذلك بغير حق[٤].

الثالث عشر: الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض:

قال تعالى: ﴿**ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون**﴾[٥].

هذه الآية تخاطب اليهود المعاصرين للرسول محمد عليه الصلاة والسلام[٦].

فاليهود الذين كانوا في المدينة هم: بنو قريظة حلفاء الأوس، وبنو

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) جامع البيان، الطبري (١/٣١٧).
(٤) انظر روح المعاني، الآلوسي (١/٢٧٦).
(٥) سورة البقرة، الآية: ٨٥.
(٦) انظر الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٠)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ١٢٥).

قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج. وكانوا إذا نشبت الحرب بين الأوس والخزرج اقتتلوا، حتى كانوا ينهبون البيوت ويأخذون الأموال والممتلكات ويخرجون أصحابها من بيوتهم، هذا ما كان يفعله اليهودي باليهودي باعتبار الحلف من الطرفين المتصارعين. وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿**ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان**﴾ ومعنى تظاهرون أي تتعاونون، وهو مشتق من الظهر، لأن تعاونهم يقوي بعضهم بعضاً فيكونون كالظهر لبعضهم البعض[١].

والإثم: الذنب[٢]. أو الفعل الذي يستحق فاعله عليه الذم[٣].

والعدوان: الظلم الصُّراح[٤]. وقيل: العدوان: الإفراط في الظلم[٥].

ثم قال تعالى: ﴿**وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم**﴾. وكان اليهود بعد انتهاء المعركة يفدون أسراهم امتثالاً منهم لما جاء في التوراة بفداء الأسير. وأسارى جمع أسير، وهو مشتق من الإسرار وهو الحبل الذي يشد به الرحل الصغير على ظهر البعير، ثم سمي أقرباء الرجل أسرته، لأنه يتقوى بهم ويشد بعضهم بعضاً كما يشد الإسرار الرحل على ظهر البعير[٦].
والفداء: فك الأسير بمال[٧].

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢/ ٢٠)، وانظر جامع البيان، الطبري (١/ ٣٩٦).
(٢) انظر معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم ٣١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢/ ٢٠).
(٤) مختار الصحاح، الرازي ص٤١٩.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢/ ٢٠).
(٦) المصدر السابق (٢/ ٢١).
(٧) معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي (٣/ ٢٧).

وبالجملة، فمعصيتهم تتمثل في: إطاعة الله تعالى بفداء الأسير، وعصيانه سبحانه عندما أمرهم بعدم سفك دماء بعضهم بعضاً، وإخراج بعضهم بعضاً. فصاروا كما قال تعالى فيهم: ﴿**أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض**﴾. والكتاب هنا التوراة، فإن التوراة أمرتهم بواجبات ونهتهم عن أمور، امتثلوا بعضها وتركوا بعضها الآخر. قال الإمام القرطبي رحمه الله: أخذ الله عليهم - أي اليهود - أربعة عهود: ترك القتل، وعدم الإخراج، وترك المظاهرة، وفداء الأسرى، فأعرضوا عنها جميعاً إلاّ فداء الأسارى[1].

الرابع عشر: عدم الإيمان باليوم الآخر:

قال تعالى: ﴿**وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً**﴾[2]. يقول تعالى ذكره: وإذا قرأت القرآن يا محمد على هؤلاء المشركين الذين يكذبون بالبعث، جعلنا بينك وبينهم حجاباً[3]. وفي المراد بالحجاب قولان:

الأول: ﴿**حجاباً**﴾ أي مانعاً يمنع المشركين من الوصول إلى الرسول ﷺ ليؤذوه[4].

الثاني: هو مانع فهم وإدراك آيات الله عز وجل وفي هذا المانع وجهان:

١ - الحجاب هو أكنة على قلوب المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة[5].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢/ ٢١).
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٥.
(٣) جامع البيان، الطبري (١٥/ ٩٣)، بتصرف يسير.
(٤) انظر التفسير الكبير، الرازي (٢٠/ ٢٢٣)، وانظر معالم التنزيل، البغوي (٣/ ١١٧).
(٥) انظر المصدرين السابقين، وانظر جامع البيان، الطبري (١٥/ ٩٣).

٢- الحجاب بمعنى ساتر، بمعنى أن مستوراً فاعل بلفظ المفعول كقولك أنت مشئووم علينا أي أنت شائم. والمراد أنه حجاب مستور عن العباد فلا يرونه[١].

والذي أميل إليه الوجه الأول من القول الثاني أي أن الحجاب هنا أكنّة على القلوب تمنعهم من فقه آيات الله. والسبب:

١- قوله سبحانه بعد الآية هذه: **﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً﴾**. وهذا مروى عن قتادة رحمه الله وكذلك أبيّ وابن زيد[٢].

٢- إن القول الأول وهو أن الحجاب مانع يمنع المشركين من إيذاء رسول الله ﷺ هذا القول لا أرجحه؛ لأن الله تعالى إذا أراد منع المشركين من الوصول إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام منعهم من ذلك في حالة قراءته القرآن وفي غيرها من الأوقات، قال تعالى: **﴿.. والله يعصمك من الناس﴾**[٣].

والخلاصة: إن الله سبحانه عاقب الذين لا يؤمنون بالآخرة ـ وهو كفر ـ بأن حرمهم من نعمة فهم كتاب الله عز وجل، وبالتالي حجب عنهم الإيمان بسبب ما فعلوه. قال القرطبي رحمه الله: **﴿لا يؤمنون بالآخرة﴾**. أي لا يصدقون بالبعث. أهـ[٤].

ـ ومن ذلك قوله تعالى: **﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم**

---

(١) انظر جامع البيان، الطبري (١٥/ ٩٣، ٩٤).
(٢) انظر جامع البيان، الطبري (١٥/ ٩٣).
(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٧.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٣/ ١٥٥).

يعمهون﴾[1]. في هذه الآية عـقـوبة أخـرى لمن أنكر البـعث: وهي تزيين الأعمال، وفيه وجهان:

١- قيل: زينا لهم أعمالهم السيئة حتى بدت لهم حسنة[2].

٢- وقيل: زينا لهم أعمالهم الحسنة فلم يعملوها[3].

والذي أميل إليه الأول: قال الإمام الطبري رحمه الله: حببنا إليهم قبيح أعمالهم، وسهلنا ذلك عليهم. أهـ[4].

وقال الزجاج: جعلنا جزاء كفرهم أن زينا لهم ما هم فيه[5].

أما قوله تعالى: **﴿يعمهون﴾** فهو من عمه، ومعناه التحير والتردد[6].

والعمه: التحير في منازعة أو طريق أو ألا يعرف الحجة[7].

وفي تفسير **﴿يعمهون﴾** أقوال هي:

- عن الحسن: يترددون ويتحيرون.

- وعن قتادة يلعبون. وعن أبي العالية: يتمادون. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يترددون في أعمالهم الخبيثة وفي ضلالتهم[8].

---

(١) سورة النمل، الآية: ٤.
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٣/ ١٥٥).
(٣) انظر المصدر السابق.
(٤) جامع البيان، الطبري (١٩/ ١٣٢).
(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٣/ ١٥٥).
(٦) مختار الصحاح، الرازي ص٤٥٦.
(٧) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٤/ ١٠٢).
(٨) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٣/ ١٥٥).

والذي أميل إليه قول قتادة وهو: ﴿يعمهون﴾ أى يلعبون، وذلك لأننا قلنا إن تزيين الأعمال كان ببدوِّها لهم حسنة، ولما كان الأمر كذلك فهم عند اقترافهم هذه الأعمال يشعرون بحسنها ومتعتها، فهم في أعمالهم يلعبون. وقريب منه قول أبي العالية وهو أنهم يتمادون، لأن الشعور بالرضى سبب التمادي بالفعل. أما من قال أن معناها يترددون ويتحيرون فهو عودة للمعنى اللغوي لكلمة عمه ـ كما ذكرت آنفاً ـ، ومع هذا فلاشك أن من حرم نفسه من نعمة الإيمان بالله تعالى وبالبعث فهو في حيرة وشك. قال تعالى: ﴿**إنما يستئذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون**﴾[1].

نعم الأولى تفسير العمه بالتردد والحيرة لهذه الآية التي بينت نفس سبب العقاب وهو عدم الإيمان باليوم الآخر، ولكن ـ كما قلت ـ إن تزيين الأعمال لهم جعلهم في حالة من حب تلك الأعمال، ولذلك ناسب أن يوصفوا بالتمادي واللعب والسرور بما يفعلون. والله تعالى أعلم بالصواب.

ـ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية**﴾[2].

مرادنا من هذه الآيات بيان أن من أسباب العقاب في الدنيا التكذيب بيوم القيامة كما فعلت ثمود وعاد.

وقد سمى سبحانه يوم القيامة هنا بالقارعة[3]. وهي من قرع الشيء

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٥ . وانظر جامع البيان، الطبري (١٠/ ١٤٣).

(٢) سورة الحاقة، الآيات: ٤ - ٦ .

(٣) انظر العمدة في غريب القرآن، أبو محمد مكي بن طلاب القيسي ص٣١٢، طبع مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ٤٤٠).

قرعاً: ضربه أو دفعه بقوة. والقارعة: الداهية والمصيبة التي تقرع الناس بأهوالها[١]. وهي من قولهم أصابته قوارع الدهر أي شدائده[٢].

الخامس عشر: نقض الميثاق:

قال تعالى: **﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلاّ قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين﴾**[٣].

تحدثت عن هذه الآية في مبحث العقوبات المعنوية عند عقوبة اللعن[٤].

وسبب اللعن الوارد في الآية كما قال تعالى: **﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾**، والمعنى فبنقضهم ميثاقهم لعنّاهم[٥] فاللعن كان سببه نقض الميثاق. أما الميثاق الذي نقضوه ففيه ثلاثة وجوه:

١- تكذب الرسل وقتل الأنبياء[٦].

٢- إخفاء صفات محمد عليه الصلاة والسلام التي يعرفونها في كتبهم وعن علمائهم[٧].

٣- الأمران معاً[٨]. وهذا ما أميل إليه، إذ كلاهما فعله اليهود بعد أن أنقذهم الله تعالى من فرعون وقومه.

---

(١) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم ٤٢٢، ٤٢٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٨/ ٢٥٧).
(٣) سورة المائدة، الآية: ١٣.
(٤) انظر ص (٦٤) من هذا البحث.
(٥) انظر جامع البيان، الطبري (٦/ ١٥٤)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ١١٤).
(٦) انظر التفسير الكبير، الرازي (١١/ ١٨٦).
(٧) انظر المصدر السابق.
(٨) المصدر نفسه.

السادس عشر : المكر :

قال تعالى : ﴿**قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون**﴾[1] .

يقول تعالى : قد مكر الذين كانوا قبل هؤلاء المشركين ـ مشركي مكة ـ، فدمر الله بنيانهم من أصولها ، وجاءهم العذاب من مأمنهم[2] .

سبب عقاب هؤلاء : المكر . والمكر لغة : احتيال في خفية[3] . وقيل المكر : الخديعة والاحتيال[4] .

وقيل المكر : صرف الغير عما يقصده بنوع من الحيلة . والمكر ضربان : محمود ، وهو ما يُتحرى به أمر جميل . وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿**ومكر الله والله خير الماكرين**﴾[5] .

والثاني مذموم وهو ما يُتحرى به فعل ذميم ، نحو قوله تعالى : ﴿**ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله**﴾[6] .

وقالوا : من مكر الله تعالى بالعبد إمهاله وتمكينه من أعراض الدنيا ، ومنه قول علي رضي الله عنه : من وسّع عليه في دنياه ولم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع عن عقله[7] .

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٢٦ .
(٢) انظر جامع البيان ، الطبري (١٤/٩٦) .
(٣) لسان العرب ، ابن منظور (٥/١٨٣) .
(٤) المصدر السابق .
(٥) سورة آل عمران ، الآية : ٥٤ .
(٦) سورة فاطر ، الآية : ٤٣ .
(٧) بصائر ذوي التمييز ، الفيروز آبادي (٤/٥١٦) .

وقال بعض العلماء: إن المكر المنسوب إليه تعالى هو جزاء، سمي باسم مكر المجازى. ومثله قوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة بمثلها﴾[1]. فالسيئة الثانية ليست سيئة في الحقيقة. ومثله قوله تعالى: ﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾[2].

ومثله كذلك: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾[3]. فالأول اعتداء، والثاني ليس بذلك[4].

وقال الشوكاني: المكر: الكيد والتدبير الذي لا يطابق الحق[5].

أما المراد بقوله تعالى: ﴿الذين من قبلهم﴾، فأكثر المفسرين[6] على أن المراد هو النمرود بن كنعان عندما بنى بناء عظيماً في بابل أراد به الصعود إلى السماء ومحاربة أهلها، فدمر الله بنيانه من القواعد[7].

وقيل المراد: بختنصر[8].

- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾[9].

يقول تعالى: أفأمن الذين يمكرون بالمؤمنين من هؤلاء المشركين - مشركي مكة - أن يخسف الله بهم الأرض[10].

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٠.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.
(٤) انظر لسان العرب، ابن منظور (٥/ ١٨٣).
(٥) فتح القدير، الشوكاني (٣/ ١٥٧).
(٦) انظر المصدر السابق.
(٧) المصدر نفسه.
(٨) انظر جامع البيان، الطبري (١٤/ ٩٦).
(٩) سورة النحل: الآية: ٢٦.
(١٠) انظر جامع البيان، الطبري (١٤/ ٩٦).

أما قوله تعالى: ﴿مكروا السيئات﴾، فالسيئات جمع سيئة: وهي الفعلة القبيحة، وهي ضد الحسنة. والحسنة والسيئة ضربان:

الأول: ما كان اعتبار الشرع والعقل، ومنه قوله تعالى: **﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلاّ مثلها﴾**[1].

الثاني: ما كان باعتبار الطبع، ومنه قوله تعالى: **﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾**[2] وكذلك قوله تعالى: **﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾**[3] أي بدلنا مكان الجدب والقحط الخصوبة[4].

وفي المراد بالسيئات أقوال للعلماء هي:

- قيل: السيئات في هذا الموضع الشرك. وهذا مروي عن قتادة[5].

- وقيل: مكر السيئات، أي عمل السيئات والدعوة إليها والتحايل على الناس في دعوتهم إليها[6].

- وقيل: مكر السيئات: سعيهم إلى إيذاء النبي محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه على وجه الخفية، واحتيالهم في إبطال الإسلام والكيد بأهله[7].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣١.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٩٥.
(٤) انظر بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٣/ ٢٨٨، ٢٨٩).
(٥) انظر جامع البيان، الطبري (١٤/ ١١١، ١١٢).
(٦) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣٠/ ٥٩٢).
(٧) انظر فتح القدير، الشوكاني (٣/ ١٦٥).

قال الطبري رحمه الله: أفأمن الذين ظلموا المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ، فراموا أن يفتنوهم عن دينهم، من مشركي قريش.. أن يخسف الله بهم الأرض على كفرهم وشركهم. أهـ[1].

السابع عشر: شقاق الله ورسوله ومحادتهما:

قال تعالى: ﴿**ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب**﴾[2].

الشقاق من شق الشيء: فلقه وصدعه وفرقه. والشقاق: المخالفة والمجانبة وذلك بأن كل فريق يتخذ شقاً (أي جانباً) بعيداً عن الآخر.

وشاقوا الله: خالفوه[3].

وقال الرازي: الشقاق من الشق وهو الجانب، ومعناها المجانبة، والوقوف في الطرف المقابل لطرف المؤمنين[4].

وعن زيد بن أسلم الشقاق المنازعة. وقيل: الشقاق المجادلة والمخالفة.

وقيل: الشقاق مأخوذ مما يعصب ويشق. فكان كل فريق حريص على إحداث ما يشق على الطرف الآخر[5].

وقيل: شقاق الله مجاز، والمقصود شقاق أوليائه سبحانه[6].

---

(١) انظر جامع البيان، الطبري (١٤/ ١١١، ١١٢)
(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٣.
(٣) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم ص٢٧٢.
(٤) التفسير الكبير، الرازي (١٥/ ١٣٦).
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢/ ١٤٣).
(٦) انظر المصدر السابق (٧/ ٣٧٩)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (١٥/ ١٣٦).

وقال السيوطي: ﴿**شاقوا الله ورسوله**﴾ أي حاربوهما وصاروا في شق غير شق المؤمنين[1].

والذي أميل إليه ما ذكره ابن جرير رحمه الله من أن ما حدث لهؤلاء المشركين في الآية السابقة حيث قال تعالى: ﴿**سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان**﴾ من إلقاء الرعب في قلوبهم وضرب أعناقهم وضرب كل بنان منهم، كل هذا جزاء لهم لما فارقوا أمر الله ورسوله، وأطاعوا الشيطان وحزبه[2].

إن ما قاله الطبري رحمه الله شامل للأقوال المذكورة، فإن مخالفة حزب الله وإطاعة حزب الشيطان، تشمل المنازعة والمجادلة، وهي تعني الوقوف في طرف غير طرف المؤمنين.

أما ما قيل من أن شقاق الله مجاز، فلا أرى حمله على المجاز ما دام الشقاق يعني مخالفة أوامره سبحانه.

- وقال تعالى: ﴿**إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين**﴾[3].

سبب العقاب في هذه الآية المحادة لله ورسوله، وهي معنى الشقاق اصطلاحاً[4]. قال الزجاج: المحادة من الحد، وهي الوقوف على حد يخالف حد الآخر. وأصلها الممانعة. ومنه الحديد لممانعته وصلابته[5].

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي (٣/ ٢٨٤).
(٢) انظر جامع البيان، الطبري (٩/ ٢٠٠).
(٣) سورة المجادلة، الآية: ٥.
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٧/ ٢٨٨)، وانظر فتح القدير، الشوكاني (٥/ ١٨٥).
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٧/ ٢٨٨).

وفي تفسيرها قيل: المحادة: المحاربة[1]. وقال صاحب البحر المحيط: ﴿إن الذين يحادون الله ورسوله﴾ نزلت في مشركي قريش، أُخزوا يوم الخندق بالهزيمة... والمحادة: المخالفة والمعاداة في الحدود[2].

وقيل: المحادة الممانعة[3]. وهذه الأقوال لا تضارب بينها، فالمحادة شاملة للمخالفة والممانعة والوقوف في حد غير حد حزب الله.

وقد ذكرت المحادة في موضع آخر من القرآن قال تعالى: ﴿**إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين**﴾[4]. وفي هذا الموضع عاقبهم الله الذل لما حادوا الله ورسوله.

الثامن عشر: تكذيب الرسل:

قال تعالى: ﴿**وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير**﴾[5].

أكثر أسباب العقاب وروداً في القرآن تكذيب الرسل. وتكذيب الرسل أمر عام يشمل التكذيب بالآيات، سواء آيات الكتاب أو المعجزات التي جاء بها الرسل، وفي الآية المذكورة تسلية لرسول الله محمد عليه الصلاة والسلام يقول تعالى: يا محمد إن يكذبك هؤلاء ـ مشركوا مكة ـ فاعلم أن الرسل قبلك كُذّبوا كما كُذّبت[6].

---

(١) العمدة في غريب القرآن، القيسي ص٣٠١.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان (٨/ ٢٣١).
(٣) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٢/ ٤٣٨).
(٤) سورة المجادلة، الآية: ٢٠.
(٥) سورة فاطر، الآية: ٢٥.
(٦) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٥٦٠)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٤/ ٣٤١).

وقوله تعالى: ﴿بالبينات﴾ أي المعجزات الواضحات[1].

و﴿بالزبر﴾ الزُّبُر جمع زَبُور وهو الكتاب المسطور. وسمي كتاب داود عليه السلام زبوراً، لأنه نزل من السماء مسطوراً. وقيل: الزبور كل كتاب يصعب الوقوف عليه من الكتب الإلهية. وقيل الزبور: اسم الكتاب المقصور على الحكمة العقلية دون الأحكام الشرعية[2].

و﴿بالكتاب المنير﴾ أي الكتاب الواضح[3].

ومجمل هذا أن الله سبحانه أنزل مع رسله معجزات واضحات، وكتباً في آيات بينات، ومع ذلك فقد كُذبوا من قبل أممهم.

ـ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير**﴾[4].

يقول تعالى: لقد كذب قبل مشركي مكة أقوام، وبلغوا من القوة ما لم يبلغها قومك يا محمد، بل ما بلغ قومك عشر ما آتيناهم. فلما كذَّبوا رسلنا فانظر يا محمد كيف عاقبناهم[5].

وعن ابن عباس وغيره: ﴿**وما بلغوا معشار ما أتيناهم**﴾ أي من القوة في الدنيا[6].

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٤/ ٣٤١).
(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٣/ ١٢٢، ١٢٣).
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٤/ ٣٤١).
(٤) سورة سبأ، الآية: ٤٥.
(٥) انظر جامع البيان، الطبري (٢٢/ ١٠٣، ١٠٤)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (٢٥، ٢٦٨).
(٦) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٥٥٠).

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿**ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون**﴾(١) .

ثم قال تعالى: ﴿**فكذبوا رسلي فكيف كان نكير**﴾. والنكير لغة تغيير المنكر وهو نفس الإنكار(٢). والنكير هنا العقاب(٣).

التاسع عشر: الاستهزاء بالرسل:

قال تعالى: ﴿**لقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون**﴾(٤) . وقال تعالى: ﴿**وما يأتيهم من رسول إلاّ كانوا به يستهزؤون**﴾(٥) . هاتان الآيتان وغيرهما في عدة مواضع من القرآن تبين سبباً من أسباب العقاب، ألا وهو الاستهزاء بالرسل. والإستهزاء لغة السخرية، وأصلها من قولهم هزأ الرجل إذا مات(٦) .

في الآية الأولى تسلية لرسول الله ﷺ . والمعنى لا تحزن يا محمد لاستهزائهم بك، فقد استهزئ بإخوانك الرسل من قبل، ثم أخذ الله المستهزئين(٧) .

وذكر صاحب البحر المحيط: أنه كان أقوام يقولون إنه يجب أن يكون الرسول ملكاً (على سبيل السخرية) فيضيق قلب النبي عليه الصلاة والسلام.

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢٦.
(٢) مختار الصحاح، الرازي ص٤٧٩.
(٣) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٥٥٠).
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٠.
(٥) سورة الحجر، الآية: ١١.
(٦) لسان العرب، ابن منظور (١/ ١٨٣)، ومختار الصحاح، الرازي ص٦٩٥ بتصرف.
(٧) انظر جامع البيان، الطبري (٧/ ١٥٣).

والاستهزاء بالرسل وبما جاؤوا به من الشرائع من أعظم الذنوب عند الله عز وجل، لأن المرء قد يكفر، ولكنه إن كفر واستهزأ فهذا دليل على فساد قلبه كلية[1].

العشرون: إخراج الرسل:

قال تعالى: ﴿**وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها إذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً . سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً**﴾[2].

هاتان الآيتان تبينان سنة ثابتة من سننه تعالى، وهي: ما من قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم إلاّ عذبوا.

أما قوله تعالى: ﴿**وإن كادوا ليستفزونك**﴾. الفزُّ: الإزعاج[3]. والمعنى وإن كاد هؤلاء (مشركو مكة) يزعجونك ليخرجوك من الأرض التي أنت بها ﴿**وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً**﴾ يقول تعالى: لو أخرجوك لم يبقوا بعدك في تلك الأرض إلاّ قليلاً، حتى يهلكهم الله تعالى بعذاب من عنده[4].

وفي المراد بالذين أرادوا استفزاز الرسول عليه الصلاة والسلام أقوال هي:

١ - قيل: هم مشركو مكة، إذ هموا بإخراج الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة[5].

---

(١) انظر التفسير الكبير، الرازي (١١/ ٧٩).
(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ٧٦، ٧٧.
(٣) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٤/ ١٩٠)، وانظر مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي (٢/ ٢٦٢).
(٤) انظر جامع البيان، الطبري (١٥/ ١٣٢)، وانظر معالم التنزيل، البغوي (٣/ ١٢٧).
(٥) انظر المصدرين السابقين، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٠/ ٣٠١)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (٢١/ ٢٣)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٥٧).

٢- وقيل: هم اليهود جاؤوا رسول الله ﷺ، وراودوه ليخرج من المدينة حسداً منهم له، فقالوا: إن الشام مهبط الرسل والأنبياء، فإذا خرجت إليها آمنا بك. فطمع النبي ﷺ بإيمانهم فخرج منها. وبعد خروجه بقليل أمره الله سبحانه بالعودة إلى المدينة[١].

٣-وقيل: الخطاب للكفار جميعاً إذ هموا بإخراجه من الجزيرة العربية[٢].

والذي أميلا إليه ما رجحه الطبري وابن كثير والقرطبي وهو أن المراد كفار قريش، ودليل ذلك سياق الآيات التي تتحدث عن مشركي مكة[٣].

والسبب الثاني: إن الرواية التي تقول: إن اليهود أرادوا إخراج رسول الله ﷺ من المدينة، في سندها نظر[٤].

أما قوله تعالى: ﴿خلافك﴾ فمعناه بعدك[٥]. وفي قوله تعالى: ﴿إلاّ قليلاً﴾ وجوه:

١- المراد بالقليل: المدة بين الإخراج وبين قتلهم يوم بدر[٦].

٢- القليل: المدة بين إخراجه عليه الصلاة والسلام وجلاء بني النضير وقتل بني قريظة[٧].

---

(١) انظر المصادر السابقة.
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ٣٠١)، وانظر تفسير القرآن العيم، ابن كثير (٣/ ٥٧).
(٣) انظر المصدرين السابقين، وانظر جامع البيان، الطبري (١٥/ ١٣٣).
(٤) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٥٧).
(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٠/ ٣٠٢)، وانظر مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي (٢/ ٢٦٢).
(٦) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٠/ ٣٠٢).
(٧) انظر المصدر السابق.

٣- يعني أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم فسنة الله تعالى إهلاكهم[١] .

والراجح الأخير لأن الآية تبين سنة من سنن الله تعالى في الأمم، وهي: ما من أمة أرسل إليها رسول، فأخرج القوم رسولهم من أرضهم إلاّ أهلكهم الله تعالى، يقول تعالى في الآية التالية: **﴿سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً﴾**. يقول الإمام الطبري رحمه الله: لو أخرجوك لم يلبثوا خلافك إلاّ قليلاً، ولأهلكناهم بعذاب من عندنا، سنتنا فيمن قد أرسلنا قبلك من رسلنا، فإنا كذلك كنا نفعل بالأمم إذا أخرجت رسلها من بين أظهرهم. أهـ[٢]

ثم إن أهل مكة لم يخرجوا رسول الله ﷺ بل هموا بإخراجه، وأمره الله بالخروج. ومن قال إن الذين أخرجوا رسول الله ﷺ قتلوا يوم بدر، يردّ عليه بأن من قتل يوم بدر أفراد، ولو أنهم أخرجوه لأهلك القوم كلهم. ثم إن هذا لم يحدث. ورب معترض يقول: إذاً فما المراد بقوله تعالى **﴿وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك﴾**[٣] ؟ فيجاب عليه بأن المراد بالإخراج أنهم هموا بإخراجه ولم يخرجوه[٤] .

قال القرطبي رحمه الله: المعنى همَّ أهلها بإخراجك. أهـ[٥]. وقال القرطبي في موضع آخر[٦]: **﴿أخرجتك﴾** أي أخرجكَ أهلها، ثم ذكر حديث

---

(١) انظر التفسير الكبير، الرازي (٢١/ ٢٤).
(٢) جامع البيان، الطبري (١٥/ ١٣٣).
(٣) سورة محمد، الآية: ١٣.
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٠/ ٣٠٢)، وانظر التفسير الكبير، الرازي (٢١/ ٢٤).
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٠/ ٣٠٢).
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ٢٣٥).

رسول الله ﷺ الذي أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري قال: رأيت رسول الله ﷺ واقفاً على الحَزْوَرَة فقال: والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خَرجت[1]. وهذا الحديث صحيح[2]. ولكي لا يُتوهم التعارض، فإن بيان المراد بالحديث يرفع التعارض الظاهر.

قال شارح الترمذي المباركفوري: «ولولا أن قومي أخرجوني» أي صاروا سبباً خروجي. أهـ[3].

والمقصود إن أهل مكة لم يخرجوا رسول الله ﷺ بل كانوا سبباً لهجرته، أو هموا بإخراجه ولم يخرجوه. ولو تم إخراجه على أيديهم لمضت سنة الله تعالىٰ فيهم، ولكنها حكمة الله في خلقه.

الحادي والعشرون: استمرار الجحود بعد نزول الآيات المطلوبة:

قال تعالى: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون﴾[4].

طلب بعض المشركين ملكاً ينزل من السماء ليشهد بصحة دعوى محمد عليه الصلاة والسلام[5].

وذكر صاحب البحر المحيط أن النضر بن الحرث وعبد الله بن أمية طلبوا كتاباً معه أربعة ملائكة تصديقاً لدعوى النبوة[6].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب فضل مكة (٥/ ٦٧٩). وكذلك أخرجه ابن ماجه.
(٢) صحيح الترمذي، الألباني (٣/ ٢٥٠)، وصحيح ابن ماجه، الألباني (٢/ ١٩٧).
(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، الحافظ أبو العلا محمد عبد الرحمن المباركفوري (١٠/ ٤٢٨)، طبع دار الفكر، دون مكان وتاريخ.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٨.
(٥) انظر جامع البيان، الطبري (٧/ ١٥١).
(٦) البحر المحيط، أبو حيان (٤/ ٧٨)، وانظر أسباب النزول، الواحدي النيسابوري ص٢٤٦.

وفي قوله تعالى: ﴿ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون﴾ وجوه:

١- إن أي أمة طلبت آية من عند الله تعالى، فنزلت هذه الآية، واستمروا على جحودهم أهلكهم الله، وهذا مروي عن ابن عباس وقتادة والسدي[١].

٢- المراد بقوله تعالى: ﴿ثم لا ينظرون﴾ أي لقامت الساعة. وهذا منسوب لعكرمة وقتادة[٢].

٣- المعنى ولو نزل ملك لا يطيقون رؤيته فيموتون جميعاً. وهذا مروي عن ابن عباس كذلك[٣].

أما القول الثاني وهو أن المراد يوم القيامة فهذا بعيد، قال ابن عطية: وهذا ضعيف. أهـ[٤].

أما القول الثالث: وهو أنهم لا يطيقون رؤية الملك على صورته الحقيقية فقد قال صاحب المحرر الوجيز: فإن أهل التأويل مجمعون على ذلك، لأنهم لم يكونوا يطيقون رؤية الملك في صورته. فالأولى قوله تعالى: ﴿لقضي الأمر﴾ أي لما توا من[٥] هول رؤيته. أهـ[٦].

أما القول الأول وهو أن سنة الله في الأمم التي طلبت آية فإنه يهلكها سبحانه في حال عدم إيمانها بعد نزول الآية. قال ابن عطية: وهذا قول حسن. أهـ[٧].

---

(١) انظر جامع البيان، الطبري (٧/ ١٥١)، وانظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٦/ ٩)، وانظر البحر المحيط، أبو حيان (٤/ ٧٨).

(٢) انظر جامع البيان، الطبري (٧/ ١٥١)، وانظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٦/ ٩).

(٣) انظر المصدر السابق.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٦/ ٩)

(٥) لعله من.

(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية (٦/ ٩).

(٧) المصدر السابق (٦/ ١٠).

والذي أميل إليه هو : أن القولين الأول والثالث كلاهما صحيح ، إذ أن العلماء أجمعوا على أن رؤية الملك على صورته الحقيقية غير مطاق لبني الإنسان ، وكذلك يمكن جمع هذا مع كون أن الإهلاك سنة بعد نزول الآية ، فالإهلاك حاصل في كلتا الحالتين . وقد أوردت ما يقوي القول بأن رؤية الملك لا تطاق من خلال الإجماع الذي نقله ابن عطية رحمه الله .

أما بالنسبة للقول بأنها سنة فقد قال تعالى بعدها بآيتين : ﴿**قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين**﴾[1] . وهذه الآية تشير إلى أن هذا كان سنة فيمن مضى من الأمم .

قال صاحب المنار : وأول هذه الأقوال (أي سنة الله فيمن كذب بعد نزول الآيات أنهم يهلكون عقاباً) أقواها وهو المختار . أهـ[2] .

ويؤيده كذلك قوله تعالى : ﴿**وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾[3] .

هذه الآية لم تخصص نوع الآية المطلوبة بل هي مطلقة ، ثم قال تعالى : ﴿**ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾ قال ابن جرير رحمه الله : . . . لا يعلمون ما عليهم في الآية إنْ نزَّلها من البلاء . أهـ[4] .

وقال صاحب المحرر الوجيز : ولكن أكثرهم لايعلمون أنها لو نزلت ولم يؤمنوا لعوجلوا بالعذاب . أهـ[5] .

---

(١) سورة الأنعام، الآية : ١١ .
(٢) تفسير المنار، رشيد رضا (٧/ ٣١٤) .
(٣) سورة الأنعام، الآية : ٣٧ .
(٤) جامع البيان، الطبري (٧/ ١٨٧) .
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية (٦/ ٤٦) .

الثاني والعشرون: الصد عن المساجد:

قال تعالى: ﴿**ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلاّ خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم**﴾[1].

في هذه الآية يبين سبحانه للناس سبباً من أسباب نزول عقابه، ألا وهو الصد عن مساجد الله تعالى بمنع ذكره فيها والسعي في خرابها، فيذكر تعالى أن عقوبة فاعليها في الدنيا ألاّ يدخلوها إلاّ خائفين، ولهم في الدنيا خزي[2].

و﴿**مساجد**﴾ جمع مسجد وهو المكان الذي يسجد فيه، كقولهم منزل وهو الموضع الذي ينزل فيه، وكذا مجلس ومرقد[3].

وفي المراد بالذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه .. أقوال:

١- قيل هم النصارى، كانوا يرمون القاذورات في بيت المقدس، ويمنعون الناس من الصلاة فيه، ورجح هذا الطبري[4].

٢- وقيل هو بختنصر البابلي، والمسجد هو بيت المقدس. فقد قام بتخريبه لما دخله[5].

٣- وقيل المراد الروم وبختنصر حيث تعاونوا على تخريب بيت المقدس[6].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٤.
(٢) انظر جامع البيان، الطبري (١/ ٤٩٧، ...).
(٣) المصدر السابق (١/ ٤٩٨، ٤٩٩).
(٤) انظر المصدر السابق، وانظر الكشاف، الزمخشري (١/ ٣٠٦).
(٥) انظر جامع البيان، الطبري (١/ ٤٩٨، ٤٩٩).
(٦) انظر المصدر السابق.

٤- وقيل بل عني مشركي مكة عندما منعوا رسول الله ﷺ من دخول المسجد الحرام[1] .

والذي أميل إليه ما رجحه ابن جرير رحمه الله لأسباب :

١- سياق الآيات : قال تعالى قبل هذه الآية : ﴿**وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء...**﴾ إذن فالسياق يدل على أن الحديث عن أهل الكتاب، والروم نصارى وكلهم من أهل الكتاب .

٢- إن حملها على مشركي العرب عندما منعوا رسول الله ﷺ من دخول الكعبة بعيد؛ لأن مشركي مكة لم يخربوا المسجد الحرام، بل كانوا حريصين عليه حرصاً شديداً ويفخرون بذلك بين الأمم .

٣- أما القول بأنه بختنصر فإن النصارى هم الذين ساعدوا بختنصر على دخول بيت المقدس وتخريبه[2] . والنصارى هم الذين كانوا يلقون القاذروات في بيت المقدس . وعلى هذا يكون الأرجح أن المراد هم النصارى . والله تعالى أعلم .

ولكن يبقى أن أشير إلى أن هذه الآية وإن كانت في مسجد معين، فإن العبرة بعموم اللفظ . قال صاحب الكشاف : إن الآية وإن كانت في مسجد معين لكن الحكم عام في كل المساجد[3] .

وقال صاحب المحرر الوجيز : وهذه الآية تتناول كل من منع من مسجد

(١) انظر المصدر السابق، وانظر الكشاف، الزمخشري (١/ ٣٠٦).
(٢) انظر جامع البيان، الطبري (١/ ٤٩٨، ٤٩٩).
(٣) الكشاف، الزمخشري (١/ ٣٠٦).

إلى يوم القيامة أو خرب مدينة إسلام، لأنها مساجد، وإن لم تكن موقوفة، إذ الأرض كلها لهذه الأمة. أهـ[١].

أما قوله تعالى: ﴿وسعى في خرابها﴾ أي بمنع الذكر أوتخريب بنيانها[٢].

ثم قال تعالى: ﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلاّ خائفين﴾ أي أن الواجب في حق هؤلاء نتيجة عتوهم ألاّ يدخلوا المساجد إلاّ في حالة خوف ورعب مما اقترفته أيديهم[٣]. قال الإمام الطبري رحمه الله: إن النصارى حتى يومنا هذا ـ زمن الإمام ابن جرير ـ لا يدخلون المسجد بيت المقدس إلاّ وهم خائفون[٤].

الثالث والعشورن: عدم التناهي عن المنكر:

قال تعالى: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾[٥].

أكثر المفسرين على أن المراد من هاتين الآيتين أصحاب السبت وأصحاب المائدة[٦].

وهؤلاء لعنوا على لسان داود في الزبور وعلى لسان عيسى بن مريم في الإنجيل[٧]. والآية الأولى تبين أن هؤلاء أتوا بكل من العصيان والاعتداء، ثم فسّرت هذا الاعتداء والعصيان الآية الثانية بأنه عدم التناهي عن المنكر[٨].

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (١/ ٣٣٣، ٣٣٤).
(٢) الكشاف، الزمخشري (١/ ٣٠٦).
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر جامع البيان، الطبري (١/ ٥٠٠).
(٥) سورة المائدة، الآيتان: ٧٨، ٧٩.
(٦) انظر التفسير الكبير، الرازي (١٢/ ٦٣).
(٧) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٢٥٢)، وانظر الكشاف، الزمخشري (١/ ٦٣٦).
(٨) انظر التفسير الكبير، الرازي (١٢/ ٦٣).

قال تعالى: ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾، وهذه العبارة تبين أمرين:

الأول: إنهم كانوا يفعلون المنكر.

الثاني: إنهم - مع فعلهم للمنكر - كانوا لا يتناهون عنه[1].

وفي قوله تعالى: ﴿كانوا لا يتناهون...﴾ قولان:

١- كانا يسكتون على معاصي بعضهم، ، فلا ينهى بعضهم بعضاً عن المنكر. وهذا القول عليه جمهور المفسرين[2].

٢- يتناهون معنى الانتهاء أي أنهم لم يكونوا يكفون عن المعاصي[3].

والقول قول الجمهور، ودليل ذلك ما أخرجه الترمذي وحسنه عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك. ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده. فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض. ثم قال: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل...﴾ إلى ﴿فاسقون﴾ ثم قال: كلا والله لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً أو تقصرنه على الحق قصراً»[4].

وأخرج الترمذي وابن ماجه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال:

---

(١) انظر حاشية أبي الحسن الحسيني الجرجاني على الكشاف (١/ ٦٣٦).
(٢) انظر التفسير الكبير، الرازي (١٢/ ٦٣).
(٣) انظر المصدر السابق.
(٤) الجامع الصحيح (سنن الترمذي) كتاب التفسير، باب سورة المائدة (٥/ ٢٣٥، ٢٣٦).

سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»[1] . والحديث صحيح[2] .

الرابع والعشرون: موالاة الكفار:

قال تعالى: بعد الآيتين المذكورتين في المبحث السابق متابعاً ذكر معاصي أهل الكتاب: ﴿ **ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء لكن كثيراً منهم فاسقون**﴾[3] .

للعلماء في المراد بهاتين الآيتين قولان:

١ - المراد اليهود حيث أنهم تولوا المشركين ضد المسلمين. وقالوا إن المراد من اليهود كعب بن الأشرف وأصحابه[4] .

٢ - المراد منافقوا أهل الكتاب، حيث إنهم كانوا يوالون المشركين[5] .

والقول الذي أميل إليه الأول وهو أن المراد بالآيات اليهود، والدليل على هذا سياق الآيات فقد قال سبحانه قبلها: ﴿**لعن الذين كفروا من بني إسرائيل...**﴾ وبنو إسرائيل هم اليهود، ثم قال عز وجل: ﴿**كانوا لا يتناهون...**﴾ والضمير يعود عليهم. ثم قال عز وجل: ﴿**ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا...**﴾ . وهذا السياق يدل على أن المراد اليهود.

---

(١) المصدر السابق، كتاب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر (٤/ ٤٠٦).
(٢) صحيح الترمذي (٢/ ٢٣٢)، وصحيح ابن ماجه، الألباني (٢/ ٣٦٨).
(٣) سورة المائدة، الآيتان: ٨٠، ٨١.
(٤) انظر التفسير الكبير، الرازي (١٢/ ٦٥)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٢٥٤).
(٥) انظر الكشاف، الزمخشري (١/ ٦٣٧).

ثم يبين سبحانه أن سبب موالاتهم للكفار عدم وجود إيمان بالله ورسوله في قلوبهم، فقال تعالى: ﴿**ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء...**﴾[1].

الخامس والعشرون: تقديم حب الدنيا على حب الله ورسوله:

قال تعالى: ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾[2].

الخطاب في هذه الآية للمؤمنين، يأمر فيها سبحانه من آمن بهذا الدين أن يوالوا حزب الله، ويقدموا حب الله ورسوله على كل ما يربطهم بهذه الدنيا من أواصر قربى أو متاع زائل[3].

قال صاحب أسباب النزول: قال الكلبي: لما أمر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة، جعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامرأته: إنا قد أمرنا بالهجرة، فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه، ومنهم من تتعلق به زوجته وعياله وولده فيقولون: ننشدك الله أن تدعنا إلى غير شيء فتضيعنا فنضيع، فيرق فيجلس معهم ويدع الهجرة. فنزل قول الله تعالى يعاتبهم: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم...**﴾[4] الآية. ونزل في الذين تخلفوا بمكة ولم يهاجروا قوله تعالى: ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم... فتربصوا حتى يأتي الله بأمره**﴾ يعني القتال وفتح مكة[5].

---

(١) انظر تفسير القرآن لعظيم، ابن كثير (١/ ٨٨).
(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٤.
(٣) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٣٥٦).
(٤) سورة التوبة، الآية: ٢٣.
(٥) أسباب النزول، الواحدي النيسابوري ص ٢٨٠.

وذكر القرطبي أن المؤمنين عندما أمروا بالهجرة تردد البعض منهم لما تربطه بمكة من روابط تجارية وأملاك وقربى، فأنزل الله هذه الآية: ﴿**قل إن كان آباؤكم...**﴾ الآية[1].

وذكر الرازي أن سورة التوبة هي سورة البراءة من المشركين، فعندما نزلت سأل بعض المؤمنين رسول الله ﷺ بأنه كيف نتبرأ منهم كلية وفيهم أقرباء لنا ولنا بينهم تجارة وأملاك. فأنزل الله هذه الآية[2].

والذي أراه أن السبب الذي أورده النيسابوري ضعيف، وكذلك السبب الذي أورده القرطبي، (وهو نفس ما قاله النيسابوري)، وذلك لأن السبب المذكور يبين أن الآية نزلت في مكة عندما أمر رسول الله ﷺ بالهجرة، وهذا يخالفه ما أخرجه البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب قال: آخر سورة نزلت براءة..»[3].

وقال الرازي بعد تضعيفه للسبب الذي أورده النيسابوري: ... هذا مشكل؛ لأن الصحيح أن هذه السورة إنما نزلت بعد فتح مكة، فكيف يمكن حمل هذه الآية على ما ذكروه؟ والأقرب عندي أن يكون محمولاً على ما ذكرته. أهـ[4].

ذكر سبحانه في هذه الآية أربعة أمور تربط الإنسان بهذه الدنيا ويحتاج فيها إلى المخالطة وهي:

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٨/ ٩٤، ٩٥).
(٢) انظر التفسر الكبير، الرازي (١٦/ ١٩).
(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة النساء (٦/ ٦٣).
(٤) التفسير الكبير، الرازي (١٦/ ١٨، ١٩).

١ – القرابة وذكر منهم سبحانه الآباء والأبناء والإخوان والأزواج، ثم ذكر ما تبقى بلفظ العشيرة.

٢ – المال المكتسب. فإن ﴿اقترفتموها﴾ تعني اكتسبتموها[١].

٣ – ﴿وتجارة تخشون كسادها﴾، فيها قولان:

ـ المراد بالتجارة هنا أنواع المال[٢].

ـ وقيل المراد البنات اللواتي يكسدن فلا يأتيهن خُطّاب[٣].

٤ – المساكن: وهي القصور والدور[٤].

ثم توعد سبحانه من تمسك بهذه الأشياء، وقدمها على أمر الله وأمر رسوله من هجرة أو جهاد أو صدع كلمة حق أو غيرها مما أمر به الدين ـ توعد سبحانه هؤلاء فقال: ﴿فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾ التربص: الانتظار[٥].

أما الذي توعد به سحبانه، فعن الحسن: عقوبة آجلة أو عاجلة[٦].

وعن مجاهد: إشارة إلى فتح مكة[٧].

والذي أرجحه القول الأول أي عقوبة عاجلة أو آجلة، والسبب: ما سبق بيانه من أن الخطاب في الآية للمؤمنين بعد الهجرة، وكانت عاصمة

---

(١) انظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٨/ ١٥٣).
(٢) التفسير الكبير، الرازي (١٦/ ١٨، ١٩).
(٣) انظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٨/ ١٥٣).
(٤) المصدر المسابق.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٨/ ٩٥).
(٦) المصدر السابق.
(٧) المحرر الوجيز، ابن عطية (٨/ ١٥٢).

الإسلام يومها المدينة المنورة، وبالتالي فالعتاب والوعيد فيها لقوم في المدينة، وهذا يبعد أن يكون المراد فتح مكة، لأن فتح مكة كان عقاباً لمن كانوا في مكة.

ثم إن الآية تبين سنة عامة تتعلق بالمؤمنين، وهي أن المؤمنين بهذا الدين إذا قدموا حب الدنيا على حب الله ورسوله عاقبهم الله سبحانه على ذلك لعلهم يرجعون. وسيأتي مزيد تفصيل لهذا الأمر - بحول الله - في الفصل القادم.

السادس والعشرون: ترك الجهاد والتثاقل إلى الأرض:

قال تعالى: ﴿**إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير**﴾[1].

وهذه الآية تبين أن التثاقل إلى الأرض وترك النفور إلى الجهاد سبب للعقاب، والخطاب فيها للمؤمنين[2].

أخرج أبو داود السجستاني في سننه: سئل ابن عباس عن هذه الآية: ﴿**إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً**﴾ قال: فأمسك عنهم المطر، وكان عذابهم[3].

وقد ذكر هذا الأثر صاحب تفسير ابن عباس وقال: إنه ضعيف، لجهالة أحد رواته. واسمه نجدة بن نفيع الحنفي[4].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٩.
(٢) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٣٧٢).
(٣) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب نسخ نفير العامة بالخاصة (٣/ ١١)، طبعة المكتبة الإسلامية، استانبول، دون تاريخ.
(٤) انظر تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير من كتب السنة، د. عبد العزيز بن عبد الله الحميدي (١/ ٤٥٨)، طبع شركة العبيكان، الرياض، دون تارخ، بإشراف جامعة أم القرى.

ذكر القرطبي أنه إن لم يصح قول ابن عباس، فإن عذاب الدنيا يكون باستيلاء العدو عليهم[1].

وقيل: يحتمل أن يكون العذاب في الدنيا، ويحتمل أن يكون في الآخرة[2].

والذي أرجحه القول بأن العذاب المذكور في الآية هو عذاب في الدنيا لما ثبت عنه عليه الصلاة والسلام، إذ روى ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[3]. والحديث صحيح[4].

هذا الحديث يدل على أن ترك الجهاد والتثاقل إلى الأرض من قبل المسلمين يؤدي إلى نزول عقاب دنيوي من عنده عز وجل هو الذل. واستيلاء العدو على المسلمين أمر واقع، وذلهم حاصل.

السابع والعشرون: وصف الله بما لا يليق به:

قال تعالى: ﴿**وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين**﴾[5].

---

(١) أنظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٨/ ١٤٤).
(٢) انظر التفسير الكبير، . الرازي (١٦/ ٦١).
(٣) أخرجه هذا الحديث أبو داود في سننه(٣/ ٢٧٤ برقم ٣٤٦٢) واللفظ له، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٤٢).
(٤) صحيح الجامع الصغير وزيادته، الألباني (١/ ١٧٥)، طبع المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

قال اليهود: إن الله يبخل علينا، وخيره ممسوك عنا ـ قاتلهم الله أنا يؤفكون ـ.

ذكر ابن كثير رحمه الله عن عكرمة أن هذه الآية نزلت في فنحاص اليهودي الذي قال: ﴿إن الله فقير ونحن أغنياء﴾[1]. وكذلك هو القائل: ﴿يد الله مغلولة﴾ وقيل: قائلها شاس بن قيس[2]. وقيل إن اليهود لما رأوا النبي ﷺ فقيراً، وسمعوا قول الله عز وجل: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾[3]. قالوا: إن إله محمد فقير. وربما قالوا بخيل[4].

وفي معنى قولهم: ﴿يد الله مغلولة﴾ ورد عن ابن عباس: مغلولة أي بخيلة[5].

وعن الحسن: معناها أن يد الله مقبوضة عن عذابنا[6]. والصحيح ما قاله ابن عباس رضي الله عنه لأمرين:

١- الغل: لغة البخل وضده البسط والجود[7]. والعرب تقول عن البخيل: جعد الأنامل ومغلول اليد ومقبوض الكف[8].

٢- والأمر الثاني ما أخرجه الترمذي في سننه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يمين الرحمن ملأى سحاً لا يغيضها الليل والنهار، قال:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨١.
(٢) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٧٨).
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٥.
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٢٣٨).
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٧٨).
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٢٣٨).
(٧) الكشاف، الزمخشري (١/ ٦٢٧).
(٨) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٢٣٨).

أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يمينه ﴿**وكان عرشه على الماء**﴾[1] وبيده الأخرى الميزان يرفع ويخفض»[2]. والحديث صحيح[3].

قال أبو عيسى: وهذا الحديث في تفسير هذه الآية ﴿**وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم...**﴾ الآية. وهذا الحديث قال الأئمة: يؤمن به كما جاء من غير أن يفسر أو يتوهم. هكذا قاله غير واحد من الأئمة: منهم سفيان الثوري ومالك بن أنس، وابن عيينه، وابن المبارك: أنه تروى هذه الأشياء ويؤمن بها، ولا يقال كيف. أهـ[4].

قال المباركفوري: وأئمة السنة على وجوب الإيمان بهذا وأشباهه من غير تفسير، بل يجري على ظاهره، ولا يقال كيف. قاله العيني. أهـ[5].

ثم قال عز وجل: ﴿**غلت أيديهم**﴾. فصار حالهم أنهم أشد الناس بخلاً، وترى فيهم صفات الجبن والبخل والحسد لغيرهم ما لا تراه في أمم أخرى[6].

وردّ سبحانه عليهم بقوله: ﴿**بل يداه مبسوطتان**﴾. الحديث الذي أوردته آنفاً يبين أن المعنى أنه سبحانه واسع جواد كريم، فما من شيء في هذا الكون إلاّ من فيض جوده وكرمه.

وللعلماء في معنى اليد في قوله تعالى: ﴿**بل يداه مبسوطتان**﴾ أقوال:

---

(١) سورة هود، الآية: ٧.
(٢) سنن الترمذي، كتاب التفسير، سورة المادة (٥/ ٢٣٤).
(٣) صحيح سنن الترمذي، الألباني (٣/ ٤٥).
(٤) سنن الترمذي، كتاب التفسير، سورة المائدة (٥/ ٢٣٤).
(٥) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري (٨/ ٤١٠).
(٦) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٧٨).

١- قيل اليد هنا النعمة، والمعنى بل نعمتاه مبسوطتان.

٢- وقيل اليد هنا القوة. ودليلهم أنه نظير قوله تعالى: ﴿**واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي**﴾[1] أي أولي القوة.

٣- وقيل: اليد هنا ملكه. ﴿**وقالت اليهود يد الله مغلولة**﴾ أي ملكه وخزائنه.

قالوا: كقول العرب للملوك: هو ملك يمينه، وكقوله تعالى: ﴿**فقدموا بين يدي نجواكم صدقة**﴾[2].

٤- وقال آخرون: اليد هنا صفة من صفات الله سبحانه، هي يد، لكنها ليست كيد أحد من خلقه، بل هي يد تليق بخالق السموات والأرض. ودليل هؤلاء:

أ) لقد خص سبحانه آدم بقوله: ﴿**قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي**﴾[3]. بهذه الخاصية، فكل الخلق خلقوا بقدرته وقوته وكلهم من ملكه.

ب) ثم لو كانت اليد بمعنى القدرة أو القوة أو الملك لكان أحرى أن يقال في العبارة الثانية بل يده مبسوطة؛ لأنه قال في الأولى ﴿**يد الله مغلولة**﴾، لأن قدرته وملكه عز وجل لا تحصى فلا تنحصر في اثنتين.

ولو قال قائل إن النعمتين أو القوتين... هنا ليست على سبيل الحصر، بل تعني الكثرة، فهذا باطل؛ لأن العرب تطلق المفرد وتريد به جنس الشيء كقوله تعالى: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان**﴾[4]، والإنسان هنا مفرد، ولكن يراد كل

---

(١) سورة ص، الآية: ٤٥.
(٢) سورة المجادلة، الآية: ١٢.
(٣) سورة ص، الآية: ٧٥.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٢٦.

إنسان في الأرض. وكذلك كقوله سبحانه: ﴿**وكان الكافر على ربه ظهيراً**﴾[١]، فالمراد كل كافر وليس كافراً بعينه. وكقولهم ما أكثر الدرهم في أيدي الناس، والمراد الأموال والدراهم، والمقصود أن الواحد يقوم عن جنسه. أما الاثنان فلا يقومان عن جنسهما بل يقومان عن نفسهما وهما اثنان فقط[٢].

قال الإمام ابن جرير رحمه الله: ومع ما وصفناه، من أنه غير معقول في كلام العرب أن اثنين يؤديان عن الجميع، ما ينبئ عن خطأ قول من قال: معنى اليد في هذا الموضع: النعمة، وصحة قول من قال إن يد الله هي صفة له. قالوا: وبذلك تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ، وقال به العلماء وأهل التأويل. أهـ[٣].

الثامن والعشرون: انتشار الفواحش:

قال تعالى: ﴿**ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون . أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون . فما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناه وأهله إلاّ امرأته قدرناها من الغابرين**﴾[٤].

هذه الآيات تبين أن انتشار الفواحش حتى تصبح عادة في مجتمع، ثم يتواطؤ المجتمع على رفض من يترفع عنها بتهمة أنه يتطهر ـ هذا الوضع سبب ينزل عقاب الله من أجله ـ، وهذه الآيات تتحدث عن فاحشة قوم لوط. وقوم لوط كانوا يعيشون في منطقة يقال لها سدوم ـ كما بينت في فصل

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٥٥.
(٢) انظر جامع البيان، الطبري (٦/ ٣٠١، ٣٠٢).
(٣) جامع البيان، الطبري (٦/ ٣٠٢).
(٤) سورة النمل، الآيات: ٥٤ - ٥٧.

أشكال العقاب[1] ـ، وهؤلاء كانوا يأتون الرجال، وهذا ما يسمى باللواطة وانتشرت هذه الفاحشة عندهم حتى عمت وطمت أفرادهم، ودليل عمومها أن الله سبحانه أمر لوطاً وأهله إلا امرأته بالخروج من القرية، ثم دمرها سبحانه عليهم، ولا يشترط أن يفعلها جميعهم، بل يكونوا راضين عن ذلك ـ كما هو بالنسبة لزوجة لوط عليه السلام.

يقول صاحب المنار: إن عذاب الاستئصال إنما وقع على الأمم التي عمها الفساد، وأنذرتها الرسل وقوعه فلم يرجعوا، وإنه ما وقع على قوم، وفيهم مؤمن صالح، وإنما كان الله سبحانه يخرج منهم رسوله ومن آمن معه ويهلك الباقين[2]. وفي قوله تعالى: ﴿وأنتم تبصرون﴾ وجوه:

١- تبصرون: أي لا يخفونها، بل يفعلونها أمام بعضهم بعضاً دون حياء.

٢- تبصرون بصر القلب، أي وأنتم تعلمون أنها فاحشة.

٣- تبصرون ما حدث لمن قبلكم من العصاة ولا ترتدعون[3].

والذي أراه أنه لا تعارض بين هذه الأقوال، فمن انتشرت فيهم هذه الفاحشة، ثم يقولون لمن ترفع عنها ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾، فهذا يعني أنهم يعلمون أنها فاحشة، ثم إن المستعرض لقصة قوم لوط عندما جاء الملائكة وهرعوا إلى بيته، هذه الهيئة من الحيوانية البهيمية تدل على أن القوم لم

---

(١) انظر صفحة (١٣٧) من هذا البحث.
(٢) تفسير المنار، رشيد رضا (١٢/ ١٠٩).
(٣) انظر التفسير الكبير، الرازي (٢٤/ ٢٠٤).

يكونوا يفعلونها أمام بعضهم دون حياء فحسب، بل كانوا يتباهون فيها، ثم إن وجود لوط النبي بينهم يدل على أنه حذرهم من مصير الأقوام السابقة، وعلى هذا تكون الأقوال الثلاثة لا تعارض بينها والله تعالى أعلم.

وفي قوله تعالى: ﴿**أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء**﴾. بيان لقبح فعلهم، وأنه يخالف الفطر السليمة، فموضع الشهوة المرأة لا الرجل، وهذه صيغة سؤال استنكاري[١].

وفي قولهم: ﴿**أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون**﴾ وجهان:

١- إنهم قالوا ذلك من باب الهزء والسخرية من لوط[٢].

٢- جعلوا سبب إخراج لوط هو التطهر[٣].

والثاني أبلغ، لأن اعتقاد عدم جواز بقاء طاهر بينهم أبلغ في بيان فساد قلوبهم وفطرهم، حتى صار الأصل عندهم أن يبقى الفرد في تلك القرية نجساً. والله تعالى أعلم.

التاسع والعشرون: انتشار المظالم والتعامل بالربا:

قال تعالى: ﴿**فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً. وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً**﴾[٤].

---

(١) انظر روح المعاني، الآلوسي (١٩/ ٢١٦).
(٢) انظر المصدر السابق، وانظر التفسير الكبير، الرازي (٢٤/ ٢٠٤).
(٣) انظر التفسير الكبير، الرازي (٢٤/ ٢٠٤).
(٤) سورة النساء، الآيتان: ١٦٠، ١٦١.

أكل الربا وانتشار المظالم وضياع الحقوق في أمة، سبب من أسباب العقاب الرباني، والآيتان تبيّنان تفصيل الظلم الذي ارتكبه الذين هادوا، وهو:

التعامل بالربا، وأكل أموال الناس بالباطل، وصدهم عن سبيل الله[1].

قال تعالى: ﴿**فبظلم**﴾ أي بسبب ظلم من الذين هادوا..[2].

وقد سبق بيان تلك المعاصي التي ارتكبوها[3].

وفي قوله تعالى: ﴿**وقد نهوا عنه**﴾، دليل على أن الربا كان محرماً في غير الإسلام كذلك..

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿**وأكلهم أموال الناس بالباطل**﴾ قال العلماء:

كان ذلك بما كانوا يتعاملون به من الرشاوي وما كانوا يأخذونه من أثمان الكتب التي كانوا يكتبونها، ثم يقولون هذا من عند الله[4].

الثلاثون: الترف:

قال تعالى: ﴿**فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلاّ قليلاً ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين**﴾[5].

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ١٢).
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر صفحة (١٧٥) من هذا البحث ومابعدها.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٧٩، وانظر جامع البيان، الطبري (٦/ ٢٤)، وانظر روح المعاني، الآلوسي (٥/ ١٤)، وانظر تفسير المنار، رشيد رضا (٦/ ٦٢).
(٥) سورة هود، الآية: ١١٦.

هذه الآية تبين أن الترف والتنعم إذا أصاب أمة وانغمست في تحقيق لذتها، سبب نزول عقاب الله سبحانه.

الترف لغة: من الرُّفَة وهي النعمة، والطعام الطيب، وأترفته النعمة: أطغته.

والمُترف: المتروك يصنع ما يشاء لا يُمنع، والمتنعم لا يُمنع من تنعمه، والجبار[1].

والمُترف: المتقلب في لين العيش[2].

يقول تعالى في هذه الآية: هلا وجد فيمن سبقكم من الأمم بقية من العقلاء ينهون غيرهم عن الفساد في الأرض، ليحول بينهم وبين هلاك الأمة كلها، ولكن كان هناك بعض ممن أنجينا، وهم قليلون وكانوا منبوذين غير مطاعين[3].

وفي قوله تعالى: ﴿**واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين**﴾ سئل الحسن عن العذر فقال: ﴿**قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم**﴾[4]. قال: بعث الله هوداً إلى عاد، فنجى الله هوداً والذين آمنوا معه وهلك المتمتعون، وبعث الله صالحاً إلى ثمود، فنجى الله صالحاً وهلك المتمتعون. وهكذا ذكر بقية الأمم[5]. وفي تفسير ذلك:

(١) القاموس المحيط، الفيروز آبادي ص١٠٢٦.
(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي (١/ ٥٣٧).
(٣) انظر تفسير المنار، رشيد رضا (١٢/ ١٩٠، ١٩١)، وانظر جامع البيان، الطبري (١٢/ ١٣٨، ١٣٩).
(٤) سورة هود، الآية: ٤٨.
(٥) جامع البيان، الطبري (١٢/ ١٣٨، ١٣٩).

١ - قيل: واتبع الذين ظلموا الشيء الذي أنظرهم فيه ربهم، من نعيم الدنيا ولذاتها، إيثاراً له على عمل الآخرة، وما ينجيهم من عذاب الله[١].

٢ - وقيل: واتبع الذين ظلموا ما تجبروا فيه من الملك وعتوا عن أمر الله[٢]

قال الإمام الطبري: وأولى الأقوال بالصواب: أن يقال: إن الله أخبر ـ تعالى ذكره ـ أن الذين ظلموا أنفسهم من أمة سلفت، فكفروا بالله، اتبعوا ما أنظروا فيه من لذات الدنيا، فاستكبروا وكفروا بالله، واتبعوا ما أنظروا فيه من لذات الدنيا، فاستكبروا عن أمر الله وتجبروا، وصدوا عن سبيله، وذلك أن المترف في كلام العرب: هو المنعم الذي قد غذي باللذات. أهـ[٣].

وفي كلام الطبري رحمه الله لفتة لطيفة، وهي أن الترف يرفع أصحابه ـ في الغالب ـ إلى قيادة الأمم الفاسدة. وهذا واقع حاصل في مجتمعات عصرنا الحاضر. فإن المرشحين إلى قيادة البلاد هم القادرون على دفع أموال أكثر في سبيل الدعاية أو شراء الأصوات، وهذا هو الوضع حتى في الدول التي تسمي نفسها «ديمقراطية» فالمكائد التي تحصل بالرشاوي أكثر من أن تحصى في عالمنا اليوم، وهؤلاء الأغنياء تجدهم على الغالب ـ من أترفوا في هذه الحياة الدنيا؛ ولذلك قال عز من قائل في موضع آخر:

﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلاّ قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾[٤].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) جامع البيان، الطبري (١٢/ ١٤٠).
(٤) سورة سبأ، الآية: ٣٤.

فعن قتادة ﴿مترفوها﴾ هم رؤوسهم وقادتهم في الشر. والله تعالى أعلم.

وبعد:

فهذا ما وفقني الله إليه من استقراء لأسباب العقاب الرباني في القرآن الكريم، والأسباب التي استقرأتها بلغت ثلاثين وهي:

الذنوب، الظلم، الكفر، النفاق، الشرك، الإيمان بالجبت والطاغوت، ادعاء الألوهية والربوبية، الاستكبار، العتو عن أمر الله، طلب رؤية الله سبحانه، تبديل أمر الله تعالى، قتل الأنبياء، الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض، عدم الإيمان باليوم الآخر، نقض الميثاق مع الله سبحانه، المكر، شقاق الله ورسوله ومحادتهما، تكذيب الرسل، الاستهزاء بالرسل، إخراج الرسول، استمرار الجحود بعد نزول الآيات المطلوبة، الصد عن المساجد، عدم التناهي عن المنكر، موالاة الكفار، تقديم حب الدنيا على حب الله ورسوله، ترك الجهاد والتثاقل إلى الأرض، وصف الله بما لا يليق به، انتشار الفواحش، انتشار المظالم والتعامل بالربا، الترف.

** ** **

الفصل الرابع

سنن العقاب وواقع المسلمين المعاصر

مما سبق بيانه من أسباب وأشكال للعقاب الإلهي في القرآن الكريم وجدت أن العقاب في الدنيا يصيب أية أمة ترتكب ما يغضب الله سبحانه، ومن فضل الله وكرمه على أمة الإسلام أنه تكفل ببقائها إلى يوم القيامة ورفع عنها عذاب الاستئصال، واقتصر عقابها على ما دون ذلك. وقد مر معنا في عدة مباحث في فصلي الأشكال والأسباب أن الله سبحانه خاطب المسلمين وحذرهم من الانحراف عن الحق وتوعدهم بالعقاب إن فعلوا ذلك. ودراسة أسباب وأشكال العقاب الحاصلة في مسلمي اليوم أمرٌ حساس وكبير يحتاج أن يُفرد له بحث مستقل، ولكني في هذا الفصل سأذكر تمهيداً أبين فيه بعض الملاحظات المهمة ثم أتحدث وباختصار عن أهم مظاهر الانحراف لدى مسلمي العصر الحاضر.

توطئــة:

إن نهوض الأمم وانحطاطها أو زوالها أمر يحدث ـ عادة ـ بالتدرج ومن غير ملاحظة إلاّ بعد رسوخه[1]. ونهوض الأمة الإسلامية كان سريعاً وملحوظاً مقارنة بالأمم الأخرى. فقد بدأت الدعوة لذلك منذ بعثته عليه الصلاة والسلام، وتم بفتح مكة، ودانت الجزيرة العربية بالإسلام، وكل ذلك خلال أعوام عشرين تقريباً، وهذا زمن قصير جداً في حياة الأمم. ثم جاء بعد وفاته عليه الصلاة والسلام صحبُه الكرام الخلفاء الأربعة، وكان عهداً زاخراً بالعدل، فتحوا فيه نصف المعمورة المعروفة يومئذ، وانتشر الأمن في ديار الإسلام، وكان الناس في خير وبركة، وذلك بصلاح الرعاة والرعية، وبعد هذا يُلاحظ أن الأمة الإسلامية بدأت بالانحراف التدريجي الذي أدى إلى الانحطاط[2] في القرن الرابع والخامس عشر الهجري (من القرن العشرين ميلادي) وقد أخبر عليه الصلاة والسلام ـ وهو الصادق المصدوق ـ أن هذه الأمة ستنحرف، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع. فقيل: يا رسول الله كفارس والروم؟ فقال: ومن الناس إلاّ أولئك؟».

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: لتتبعن سنن من كان قبلكم

---

(١) انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي ١٢٩، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

(٢) انظر المصدر السابق ١٣٣، وانظر واقعنا المعاصر، محمد قطب ص١١٧ - ١١٩، نشر مؤسسة المدينة، جدة، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، وانظر هل نحن مسلمون، محمد قطب ص١٠١، طبع دار الشروق، بيروت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضَبّ تبعتموهم، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن»[1] .

وفي ذكر الفرس والروم في الحديث الأول، واليهود والنصارى في الثاني لفتة:

فالفرس والروم كانتا الدولتين القويتين في ذلك العصر، وكانتا تمثلان الحكم وسياسة الرعية، واتبعهما انحراف في أساليب الحكم وسياسة الأمم، أما اليهود والنصارى فكانوا يمثلون الأديان، واتباعهم انحراف عن أصول الديانات وفروعها[2] .

ومجمل القول إن اتباع المذكورين هو انحراف عن شريعة الله تعالى في كل مجالات الحياة. فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لتركبن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو أن أحدهم دخل ضب لدخلتم، وحتى لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه»[3] . والحديث صحيح[4] .

قال النووي رحمه الله: والمراد بالشبر والذاع وجحر الضب التمثيل بشدة الموافقة لهم، والمراد الموافقة في المعاصي والمخالفات، لا في الكفر. أهـ[5] .

---

(١) الحديث متفق عليه، واللفظ للبخاري رحمه الله، صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لتتبعن سنن من كان قبلكم..» (٩/ ١٢٦، ١٢٧).
(٢) انظر فتح الباري، العسقلاني (١٣/ ٣٠١).
(٣) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٥٥)، توزيع دار الباز، مكة المكرمة، وطبع دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ.
(٤) المصدر السابق. وانظر: التلخيص، الذهبي، وهو بذيل المستدرك (٤/ ٤٥٥). وانظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) الألباني (٥/ ١٣).
(٥) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦، ٢٢٠).

وما قال النووي رحمه الله من أن الموافقة في غير الكفر صحيح إن كان لمجموع الأمة، أما أن بعض الأفراد من الأمة ارتدوا أو كفروا كفراً مخرجاً عن الملة بسبب اتباعهم المذكورين فهذا حاصل، والواقع يؤيده.

والأمر لا يقف عند حد اتباع الأمم السابقة، بل يتعداه فقد بلغ الانحراف في الأمة حتى صار عدد فرقها أكثر من عدد فرق اليهود والنصارى، فإن كثرة الفرق تعني تعدد التصورات وكثرة الأهواء. عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة فواحدة في الجنة وسبعون في النار، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، فإحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة؛ فواحدة في الجنة واثنتان وسبعون في النار. قيل: يا رسول الله، من هم؟ قال: الجماعة»[1] والحديث صحيح[2]. قال محقق سنن ابن ماجه: الجماعة: أي الموافقون لجماعة الصحابة، الآخذون بعقائدهم، المتمسكون برأيهم. أهـ[3].

ولا يظن أحد أن الفرق التي قال عنها رسول الله ﷺ هي في النار، لا يظن أنها كافرة، لا بل هي من المسلمين؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «لتفترقن أمتي» فجعل تلك الفرق من أمته، وهذه الفرق هي التي اتبعت الأهواء وانحرفت عن منهج الصحابة انحرافاً خطيراً أدى بها إلى نار جهنم، نعوذ بالله من ذلك.

---

(١) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم (٢/ ١٣٢٢).
(٢) صحيح ابن ماجه، الألباني (٢/ ٣٦٤).
(٣) هامش المصدر السابق، والمحقق محمد فواد عبد الباقي رحمه الله.

إنّ أي انحراف في هذه الدنيا عن جادة الحق سببه أحد أمرين :

الأول : الهوى . وهذا موضعه النفس وشهواتها .

الثاني : التفكير المنحرف . وهذا موضعه العقل .

أم النفس وشهواتها فهذا مشترك بين بني الإنسان . والتقوى وخشية الله تعالى تردع النفس وتصوبها . أما العقل فهو وإن كان موجوداً لدى أفراد البشر جميعاً إلاّ أن اختلاف وجهات النظر وأساليب التفكير تختلف اختلافاً كبيراً، ولا سبيل لتسوية هذه المعضلة إلاّ بالتزام ما أمر به عز وجل، وأنزله على خلقه بواسطة رسله ، فلحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه الشرع ، من هذا يتبين أن انحراف التفكير هو أخطر على الأمة من انحراف الشهوة والهوى؛ لما يلزمه من رسوخ في القلب حتى يصير مُعتقداً، فالفرق التي تقوم على الفكر تدوم أكثر من الفرق التي تقوم على الأهواء .

وهذان الدافعان خفيان غالباً، وكل الذي يمكن إثباته أن الأمة الإسلامية انحرفت على محورين رئيسين هما :

الأول : انحراف التصور . وهذا متعلق بالمعتقد ومنهج التفكير .

الثاني : انحراف السلوك . وهذا يعرف من خلال سلوك أفراد الأمة ، حكاماً ومحكومين .

والأصل أن التصور والسلوك متلازمان في المرء السويّ . فالمرء العاقل يصح تصوره ويصح تبعاً له سلوكه ، أما صاحب الهوى فقد يكون سليم التصور ، ولكن غلب عليه هواه ففسد سلوكه ، وقد يكون فاسد التصور فلابد حينئذ من فاسد سلوكه .

والحق أن دراسة مظاهر الانحراف على هذين المحورين موضوع خطير وكبير، فقد لا يكفيه المجلد والاثنان، بل يحتاج إلى أن ينبري له عدد من العلماء العاملين؛ لذلك أكتفي في هذا الموضع بذكر بعض مظاهر الانحراف الذي بدأ في العهد الأموي وهو الحد الفاصل بين الذروة التي بلغها الخلفاء الراشدين مع رعيتهم من الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وبين بدء عهد الانحراف، وقبل الحديث عن ذلك لابد من التنوبه إلى أمور مهمة وهي:

١- إن الانحراف بدأ بسيطاً، ثم توسع مع الزمن. فللأمة في بداية العهد الأموي خير من الأمة في عهد العباسيين، وهكذا دواليك.

٢- كانت تتخلل التاريخ ـ بعد بدء الانحراف ـ صفحات مشرقة في الأمة عامة، كما حدث في عهد عمر بن عبد العزيز، أو خاصة في ولاية أو منطقة ما من ديار الإسلام، كما حدث في الأندلس على عهد السمح بن مالك الخولاني، ولاشك أن هناك أشخاصاً أيقظوا الأمة من رقادها في كثير من المواطن كما فعل صلاح الدين الأيوبي، عندما اجتمعت الأمة حوله وفكت أسر بلاد الشام من حكم الصليبيين. وهذا ببركة اتباع الدين فإنه لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق لا يضرهم انحراف الناس عنه[1]. وكذلك بما تكفله تعالى من إرسال مجدد على رأس كل مائة عام يجدد أمر هذا الدين[2]. ويوقظ الأمة من رقدتها.

---

(١) مقتبس من حديث أخرجه البخاري في صحيحه عن المغيرة بن شعبة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون. صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون وهم أهل العلم» (٩/ ١٢٤، ١٢٥).

(٢) مقتبس من حديث أخرجه أبو داود في سننه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها، سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة (٤/ ١٠٩)، قال الألباني في صحيح الجامع الصغير: صحيح (٢/ ١٤٣).

٣- يمكن تقسيم عصر الانحراف إلى ثلاث مراحل عامة :

الأولى : العهود المتقدمة من عهود الانحراف حيث إن الأمة لم تنحرف في كل جوانبها ، بل انحرافها في بعض الجوانب انحرافاً عن القمة المثالية التي كانت في عهد الصحابة ، وكان انحرافاً في جوانب من حياة الأمة ، وهناك جوانب استمرت تتنامى ، كما في الجانب العلمي ـ الديني منه والدنيوي ـ وكذلك جانب الفتوح الإسلامية .

الثانية : والتي يمكن تسميتها مرحلة وجود الأمم المنافسة ، فقد قامت في هذه المرحلة دول أخرى يُحسب لها حساب ، وقبل هذه المرحلة كانت الخلافة الإسلامية هي الدولة التي لا تحسب حساباً لأحد .

الثالثة : وهي مرحلة ركود الأمة عامة وعلى كافة الأصعدة ، وهذه المرحلة تبدأ بانتهاء الخلافة العثمانية آخر خلافة إسلامية ، وهذه المرحلة بدأت مع بداية هذا القرن تقريباً .

٤- إن كل مظاهر الانحراف في عصرنا الحالي لها أصل فيما سبق من عصور ، باستثناء مظهر واحد سأتناوله بالذكر ، ولكن الفارق أن الانحراف في عصرنا الحاضر شمل جميع الجوانب بحيث صار الحق باطلاً في تصور بعض أفراد الأمة . وبعض من عرف الحق منهم أصيب بانحراف السلوك . والطائفة التي على الحق قليلة متناثرة مغمورة . نسأل الله العفو والعافية .

** ** **

سنة العقاب وواقع المسلمين المعاصر

إن ما سأذكره من مظاهر لانحراف المسلمين اليوم لم يأت فجأة بل هو انحراف بدأ صغيراً ثم كبر حتى وصل إلى هذا الحد من حيث الشدة والشمول لمعظم شؤون المسلمين، والتاريخ الإسلامي لم يعرف للمسلمين انحطاطاً عاماً كما عرفه لمسلمي القرن الرابع والخامس عشر الهجري (القرن العشرين ميلادي) وما أريد ذكره في هذا الموضع أهم مظاهر الابتعاد عن شريعة الله في القرن المذكور فأقول:

الشرك[1] :

من الخطأ الاعتقا دأن الشرك لا يصدر إلا من الكفار والمشركين بل إن الأمة الإسلامية يمكن أن يرتكب بعض أفرادها هذا الذنب وبأشكال مختلفة والشرك بالله سبحانه كثر في العهود المتأخرة بين طبقة من الجهلة، وأكثر الفرق التي انتشر فيها الشرك هي الصوفية. والصوفية قامت أصلاً على الزهد رداً على الترف الذي حصل في بعض المجتمعات الإسلامية وأدى إلى ضعف الالتزام بالدين. إلا أن هذا الغرض النبيل لم يقف عند هذا الحد بل اعتزل المتصوفةُ المجتمع الإسلامي وتركوه يسير نحو الأسوأ دون محاولة للإصلاح، ثم إن الصوفية تطورت وتأثرت بالفلسفات الأخرى، وسرى فيها بعض معالم الشرك حتى صار في بعض فرقها منهجاً أصيلاً، ومن

---

(١) ارجع إن شئت إلى ص(١٨٩) من هذا البحث.

هؤلاء: القائلون بالحلول والاتحاد وغيرها من المذاهب المنحرفة. ومن المؤسف أن هذا الفكر انتشر حتى صار سمة للمجتمع في بعض الأزمنة، وابن تيميه رحمه الله وغيره ابتلوا بمثل هذه الفرق وكانت سبباً في محنهم التي تعرضوا لها دفاعاً عن الحق وذباً عن السنة. ومن الطوائف التي كثر فيها الشرك الشيعة وهي أشدهم في هذا الباب انحرافاً. وما يحدث اليوم من مظاهر شركية في بعض قبور الأولياء والصالحين ومشاهدهم ومقاماتهم أظهر دليل على انتشار هذا الفكر في كثير من البلاد الإسلامية اليوم[1].

الاستكبار[2]:

مرض الاستكبار يلاحظ اليوم بين حكام الأمة وأغنيائها، ومع أنه لم يجرؤ أحد ادعاء دعوى فرعون إلا أن منهج التعامل مع المحكومين فيه مرض الاستعباد لخلق الله وتأله الحكام على محكوميهم. فكثير من البلدان الإسلامية يتدخل فيها الحاكم حتى في اعتقاد الفرد، بل لابد من عرض معتقد المواطن على أجهزة الفحص والتمحيص. ويبرز داء الاستكبارفي ذلك الأسلوب من المراسيم التي تبرز الحاكم وكأنه رب العباد الذي بيده أرزاقهم ونواصيهم.

وذكر مظاهر استكبار الحكام في بلاد المسلمين يطول ذكره ويتعذر حصره في هذا المقام.

---

(١) لابد من التنويه هنا إلى أن ما ذكرناه لايشمل كل المتصوفة بل يجب ألا ننكر جهاد الصوفية كالأمير عبدالقادر الجزائري ضد فرنسا، والصوفية في الولايات الإسلامية من روسيا ضد الشيوعية. وكذلك كان لبعض الصوفية فضل في نشر الإسلام في أفريقيا وغيرها.

(٢) ارجع إن شئت إلى ص (٢٠١) من هذا البحث.

تبديل الشريعة :

قلت إن هناك مظهراً من مظاهر الانحراف حدث في عصرنا الحاضر ولم يحدث لم مثيل من قبل[1] ألا وهو تبديل شريعة الله سبحانه ووضع شرائع أرضية مكانه. والحكم بغير ما أنزل الله تعالى بحد ذاته ادعاء للألوهية عند من فعله من الحكام وهو شرك بالله عند من رضي به من المحكومين. وقد تحدثت عن هذه المسألة سابقاً[2] . والذي أود إضافته هنا : إن الجمود الفقهي الذي استفحل أمره في أواخر عهد الخلافة العثمانية دفع البعض للدعوة إلى أخذ القوانين الوضعية من الغرب أو الشرق[3] . وأول دولة استبدلت الأحكام الوضعية بشريعة الإسلام هي مصر، وذلك عندما دخلها (نابليون بونابرت) وفرض فيها القانون الفرنسي باستثناء قانون الأحوال الشخصية[4] ومن المحزن أن معظم الدول الإسلامية اليوم تحكم بغير شريعة الله سبحانه.

النفاق[5] :

النفاق مصيبة قديمة ابتلي بها الإسلام ومازال، والنفاق نوعان :

ـ نفاق اعتقادي يبطن صاحبه الكفر ويظهر الإسلام فيخرج عن الملة.

ـ نفاق عملي يسلك صاحبه مسلك المنافقين في بعض تصرفاته ولكنه لا يبطن الكفر وهذا لا يخرج عن الملة. وكلا النوعين أصيبت به الأمة

---

(١) ذكرت هذا في ص(٢٦٠)من هذا البحث.

(٢) ارجع إن شئت إلى ص(٧٧) منهذا البحث وما بعدها.

(٣) انظر الحركة القومية، خلفياتها وأبعادها، د. أحمد العسال ٣٥ - ٣٧، مخطوط.

(٤) انظر هل نحن مسلمون؟، محمد قطب ١١٧، طبع دار الشروق بيروت، سنة ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

(٥) ارجع إن شئت إلى ص(١٨٥) من هذا البحث.

الإسلامية، ومن مظاهر هذا تلك الزمرة التي تربت على أيدي اليهود والنصارى أو الشيوعيين في الغرب والشرق ثم أخذوا يبثون سمومهم في مجتمعاتهم بدعوى إن الإسلام دين رجعي وأنه لا سبيل إلى نهوض الأمة إلا باتباع دساتير الغرب أو الشرق ـ وهؤلاء هم الذين تزعموا المجتمعات الإسلامية على الغالب ـ ومع هذا فمن خبثهم يظهرون بعض الشعائر الإسلامية كالصلاة ليوهموا الناس أنهم متمسكون بشعائر الإسلام وهذا هو النفاق الاعتقادي، وكذلك النفاق العملي أصيب به المسلمون ومن مظاهره:

الخلف في الوعد، والفجور عند الخصومة، وخيانة الأمانة، والكذب في الحديث. ولقد كان الرجل في الجاهلية يعرف بلسانه فإذا قال قولاً كان ذلك القول دليلاً على باطنه، أما اليوم فإن المرء يحار في الأساليب المعوجة التي يتبعها بعض المسلمين للوصول إى غاياتهم.

التفرق[1]:

التفرق والتحزب داء عضال يخيل لقارئ التارخ الرسلامي أنه مرض مزمن لدى المسلمين والمراد بالتفرق هنا الذي حصل بين أهل الحق أنفسهم. ودافع التحزب هو الشعور بولاء بسبب المماثلة في النسب أو اللغة أو اللون أو الوطن أو غير ذلك. والحق أن التحزب في واقعنا المعاصر حدث على أساس اللغة والوطن (إقليمياً أو دولة أو مدينة أو قرية) وعلى أساس العرق واللون، ويضاف إلى كل ذلك التحزب على أساس المناهج الحركية وكل هذا حدث ليس فقط لدى العوام من المسلمين بل لدى الملتزمين منهم، وليس

---

(١) ارجع إن شئت إلى ص(١١٩) من هذا البحث.

العيب في اعتقاد أسلوب مغاير لأساليب الآخرين فهذا مما قد تختلف فيه وجهات النظر ولكن العيب أن هذه الأساليب تحدد أطراً معينة لجماعات إسلامية فتجعلهم أحزاباً يدينون بالولاء لتلك المسميات حتى ولو خالفت الحق.

ترك الجهاد[1] :

إن انفتاح الدنيا على المسلمين ووفرة الأموال والجواري بعد فتح البلاد الواسعة أدى إلى فشو الترف في أوساط المسلمين مما تسبب في ركونهم إلى الدنيا وترك الجهاد الذي ساد به من قبلهم، والترف من أكبر أسباب الركون إلى الدنيا. ومع تطاول العهد انتشر التثاقل إلى الأرض بين المسلمين اليوم. ومن فضل الله وكرمه أن المسلمين بدأوا يستيقظون من سباتهم ويدركون أنه لا عز لهم ولا سيادة إلا برفع راية الجهاد في سبيل الله. ولعل الجهاد في أفغانستان وفلسطين وغيرها من المناطق اليوم أبرز دليل على إدراك المسلمين لهذه الحقيقة.

انتشار الفواحش[2] :

من الأمور لتي استوردها المسلمون اليوم من دول الكفر ذلك التحرر من الأخلاق، والانحلال في الرذيلة والسائر اليوم في شوارع أي مدينة أو قرية في غالب بلاد المسلمين يرى مظاهر هذا الانحلال في لباس الرجال والنساء من حيث العري والتخنث وغيرها من مظاهر الانحلال والتقليد للغرب. أما

---

(١) ارجع إن شئت إلى ص(٢٣٩) من هذا البحث.
(٢) ارجع إن شئت إلى ص(٢٤٤) من هذا البحث.

شواطئ البحار فقد عجت بالعري الفاضح والتحلل من كل خلق. وأما الفنادق ـ في أكثر بلاد المسلمين ـ وغيرها من الأماكن الخاصة فمظاهر الانحراف فيها فوق ما يتصوره العقل من شرب للخمور ومن حفلات للفجور والرقص ومن الزنا وغير ذلك.

وأما مظاهر الانحراف في بيوت المسلمين ـ إلا من عصم الله ـ فأظهرها أجهزة الإعلام السمعية والبصرية وما تعرضه مما فيه خروج عن الآداب الإسلامية وحث على الرذيلة وتزهيد الناس في التمسك بتعليم الإسلام والالتزام بأحكامه. وقد انتشرت في الآونة الأخيرة الأفلام الهابطة وشجع على انتشارها أجهزة (الفيديو) ولا حول ولا قوة إلا بالله.

انتشار المظالم والتعامل بالربا[1]:

إن انتشار المظالم أمر عم بلاد المسلمين لتركهم لشريعة الإسلام حتى إن حقوق العباد لم يعد لها اعتبار في غالب البلاد. وأماكن رعاية حقوق العباد مثل المحاكم ومراكز الشرطة والأمن وغيرها من المؤسسات صارت بفشو الرشوة وتطبيق قوانين الغرب والشرق أماكن لتضييع حقوق العباد وظلمهم حتى أصبح أشد الناس جرماً وإفساداً في بلاد المسلمين في مأمن من العقاب بفعل الوساطة أو القرابة أو الرشوة بل صار أفجرهم بيده الأمر والنهي والتسلط على العباد بأنواع القهر والإذلال، وانزوى أهل العلم والدين في زوايا المساجد ولم يعد لهم تأثير في غالب الأحوال. وأما مظاهر السلب

---

(١) ارجع إن شئت إلى ص(٢٤٦)من هذا البحث.

والنهب بواسطة كبار القوم الذين لا يرفعون لهذا الدين رأساً فقد انتشرت وعمت في كثير من الحكومات تحت شعارات زائفة.

أما الرشوة التي لُعن فاعلها فصار تسهيل شؤون العباد مرهون بدفع تلك القيمة من المال.

والربا وهو من أكبر الكبائر صار سائداً في مجتمعات المسلمين دون نكير وتمثلت مظاهره في البنوك التجارية وغيرها، وفي شركات التأمين وفي المؤسسات المختلفة حتى صار التعامل بغير الربا في هذه الأزمان متعذراً في كثير من المجتمعات الإسلامية.

وخلاصة القول: إن المسلمين وقعوا في كثير من أسباب العقاب الإلهي وسرت فيهم الفواحش والمعاصي وغيرها من أسباب العقاب التي تستوجب نزول العذاب بهم، وقد حل بالمسلمين في كثير من البلدان أنواع من العقاب ولعل أبرزها ما تتعرض له كثير من بلدان المسلمين من مظاهر الاضطهاد والتعذيب على يد العلمانيين والشيوعيين وعُبّاد البقر واليهود والنصارى.

ومن أنواع العقاب التي حلت بالمسلمين هذه التبعية الذليلة للشرق أو للغرب في الاقتصاد ومناهج التعليم، وفي القوانين، وفي تنصيب الحكام، حتى صارت أمور المسلمين في أيدي الكفار يعبثون بمصالح المسلمين كيف شاؤوا. ولعل وجود اليهود بين أظهر المسلمين وقيامهم بأعمال الاضطهاد والتوسع والقهر والتهديد من أبرز مظاهر العقاب الإلهي الذي أصاب المسلمين بتركهم شريعة الله سبحانه وزهدهم في الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام.

الخـــاتمـة

إن الله سبحانه خلق هذا الكون، ووضع لكل شيء فيه قوانين يسير وفقها، فالماديات بكل أشكالها تسير وفق قوانين معينة، وهذ هي السنن الكونية، وكذلك وضع سبحانه قوانين تحكم الحضارات البشرية من حيث النشوء والزوال، ومن حيث القوة والضعف، وهذه هي السنن الإنسانية.

والسنن الإنسانية لها خصائص ومميزات فهي تُلاحَظ في حياة الأمم، ولا تبدو في حياة الفرد؛ لأن حياة الفرد قصيرة بالنسبة لحياة الأمم.

والسنن الإنسانية تعمل مجتمعة لا متفرقة، فمن أراد فهم حالة آلت إليها أمةٌ ما، لزمه النظر إلى السنن جميعها التي عملت في هذه الأمة.

والسنن الإنسانية ثابتة لا تتبدل ولا تتحول، بل إن السنن الكونية قد تتخلف في حالة ما لإمضاء سنة إنسانية.

والسنن الإنسانية شاملة لا تميز بين أمة وأمة، فالأمم الكافرة والأمم المسلمة أمامها سواء.

وكل هذه السنن هي من عدل الله وحكمته، فلا ظلم فيها ولا جور، بل هي عين العدل وهي حكم الله بين الحق والباطل.

وسنة العقاب الإلهي واحدة من تلك السنن الإنسانية التي تحكم حياة الأمم، فكل أمة تنحرف عن منهج رب العالمين يصيبها عقاب الله تعالى في الدنيا قبل الآخرة.

وقد يكون العقاب استئصالاً بحيث تذهب الأمة برمتها، فتصير أثراً بعد عين، وقد يكون العقاب دون ذلك بأن يُذهب الله سبحانه سلطان تلك الأمة بسيطرة أخرى فيصيب الذل أبناءها، أو تنتشر في الأمة العداوات فتتفرق جماعات وأحزاباً، أو ينزل الله سبحانه فيهم الأمراض والعاهات، أو غير ذلك.

وقد منّ سبحانه على الأمة الإسلامية بأن وعدها بعدم الاستئصال، ولكنها لم تنج مما دون ذلك، والقرآن الكريم أنذر المسلمين بالعقاب في عدة مواضع.

والعقاب الرباني له ضوابط بيّنها سبحانه في كتابه الكريم، فهو سبحانه لا يعاقب حتى يقيم الحجة على الأمة، وهو سبحانه يمهل الأمم فينذرها بطرق عديدة علّها ترتدع وتطلب عفو ربها. ومن عدله سبحانه أنه لا يعاقب حتى ينتشر الظلم، ويعمّ الشر.

وإذا نزل عذاب الاستئصال بأمة لم تقبل توبتها، لما علمه سبحانه من أن من لم يُجْدِ معهم كل الوسائل السابقة لن تصدق توبتهم اللاحقة.

وقد خص سبحانه كتابه الكريم بجزء كبير لبيان هذه السنة، فقد وردت ألفاظ العقاب في القرآن عامة أحياناً تجمع أنواعاً من العقاب، كالإهلاك، والأخذ، والحيق، وغير ذلك.

وعقاب الأمم في القرآن نوعان:

الأول: عقاب معنوي، ومثاله: اللعن، والختم والطبع على القلوب، وضلال الطريق، والخزي، والغضب، والرعب والذل.

الثاني: عقاب حسي، مثاله: الغرق، والخسف، والقاصف، والسيل، والأخذ بالسنين.

وللعقاب أسباب كثيرة منها: الشرك، والكفر، والنفاق، والظلم، والعتو عن أمر الله، وأكل الربا، وانتشار الفواحش، وترك الجهاد في سبيل الله، وموالاة الكفار.

أما الأمة الإسلامية فقد انحرفت عن الطريق التي أرادها رب العالمين، والانحراف بدأ في عهد الخلافة الأموية، ورغم أن الانحراف كان ضئيلاً إلاّ أنه توسع ولأسباب كثيرة منها: ظهور الفكر المنحرف، والعقائد الباطلة التي قامت عليها الفرق المنحرفة عن منهج أهل السنة، وكذلك ترجمة الفلسفات الأخرى وتأثر المسلمين بها مما كان له الأثر الخطير على صفاء العقيدة الإسلامية، وكذلك الترف الذي أصاب المسلمين من كثرة الأموال والجواري. وجملة القول إن الانحراف الذي أصاب الأمة كان انحرافاً في التصور والسلوك ومع ذلك فإن لانحراف الذي بلغه مسلمو العصور المتأخرة أكبر بكثير مما كان عليه السابقون.

ولما كانت ﴿لا تزر وازرة وزر أخرى﴾ فإن الواجب يدعو علماء الأمة وقادتها إلى التزام منهج النبي ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم تصوراً وسلوكاً فإنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلاّ بما صلح به أولها، ولابد لهم من التجرد عن حب الذات، والحزبية الضيقة، فإذا صاروا إلى ذلك فليعلموا أن هؤلاء الشباب كالصفائح البيض يرتسم عليها ما يقولون وما يفعلون. وهذا لا يعفي الشباب من المسؤولية كذلك، فالتزام القوعد العامة للمنهج

الإسلامي هو في حد ذاته أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ونصح لقادة العمل الإسلامي، وهذا المنهج سيجعل الأمة بخير، حتى وإن بقيت بعض المسائل التي تختلف فيها وجهات النظر.

ورغم كل ما سبق، ومع نهاية القرن العشرين، يظهر من بعيد، شعاع فجر جديد تستيقظ على نوره عيون نامت قروناً طويلة، ورغم أن استيقاظها رويداً رويداً، إلا أن زاوية الانحراف بدأت تصغر، وتقترب من الخط السوي، نحو الخلافة الراشدة بإذن الله.

** ** **

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

١- الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن السيوطي، شركة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثالثة ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م.

٢- أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، دار القبلة للثقافة، جدة. ومؤسسة علوم القرآن، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٣- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت، دون تاريخ.

٤- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، ابن تيميه، دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ.

٥- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، أبو محمد عبد الله بن هشام الأنصاري المصري، وبهامشه هداية السالك إلى تحقيق أوضح المسالك، محمد محيي الدين عبد الحميد، طبع دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٦٦م.

٦- البحر المحيط، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي الجياني الشهير بأبي حيان ٦٥٤ـ٧٤٥ ، النصر الحديثة، الرياض، دون تاريخ.

٧- البداية والنهاية (في التاريخ)، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، دار الفكر العربي، القاهرة، دون تاريخ.

٨- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، المكتبة العلمية، بيروت، دون تاريخ.

٩- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، أبو العُلى محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، دار الفكر، دون مكان وتاريخ.

١٠- تفسير ابن عباس ومروياته في كتب التفسير، د. عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، دون تاريخ.

١١- تفسير البغوي المسمى (معالم التنزيل)، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي، دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ/

١٢- تفسير التاريخ علم إسلامي، د. عبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، دون تاريخ.

١٣- تفسير الخازن المسمى (لباب التأويل في معاني التنزيل، علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي المعروف بالخازن، دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ.

١٤- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١٥- تفسير القرآن الجليل المسمى (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.

١٦- تفسير القرآن الحكيم، الشهير بتفسير المنار، السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت ،الطبعة الثانية، دون تاريخ.

١٧- التفسير الكبير، الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، دون تاريخ.

١٨- التفسير القيم للإمام ابن القيم، جمع محمد أويس الندوي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

١٩- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٢٠- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، شركة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبع ةالثانية ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.

٢١- جامع الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، توزيع دار الباز، مكة المكرمة.

٢٢- جاهلية القرن العشرين، محمد قطب، دار الشروق، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٢٣- الحركة القومية، خلفياتها وأبعادها، د. أحمد العسال، مخطوط.

٢٤- حول التفسير الإسلامي للتاريخ، محمد قطب، المجموعة الإعلامية، جدة، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٢٥- دائرة المعارف الإسلامية، عدد من المستشرقين، ترجمة أحمد الشنتناوي وإبراهيم خورشيد وعبد الحميد يونس، طبع دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ.

٢٦- الدر المنثور في التفسير المأثور، عبد الرحمن السيوطي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٢٧- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل محمود الآلوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٢٨- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، المكتبة الإسلامية، استانبول، دون تاريخ.

٢٩- سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمدبن يزيد القزويني (ابن ماجه)، دار إحياء التراث العربي، دون مكان، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٣٠- السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، د. شريف الخطيب، مخطوط.

٣١- سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن سنان بن دينار النسائي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، نشر مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، سوريا.

٣٢- سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، أبو محمد عبد الملك بن هشام، دار الفكر، دون مكان، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٣٣- شرح العقيدة الطحاوية، أبو العز الحنفي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة التاسعة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٣٤- شرح القصيدة النونية، ابن القيم الجوزية، د. محمد خليل هراس، مطبعة الإمام، مصر، دون تاريخ.

٣٥- صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار إحياء التراث العربي، دون تاريخ.

٣٦- صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٣٧- صحيح سنن النسائي، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م. الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج.

٣٨- صحيح سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م. الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج.

٣٩- صحيح سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م. الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج.

٤٠- صحيح مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، دون تاريخ.

٤١- صحيح مسلم بشرح النووي، أبو زكريا يحيى بن أشرف بن مري الحزامي الحوارني الشافعي (النووي)، دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ.

٤٢- الصحيح المسند من أسباب النزول، مقبل بن هادي الوادعي، دار الأرقم، الكويت، الطبعة الثالثة، دون تاريخ.

٤٣- العمدة في غريب القرآن، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ، ١٩٨١م. (نقل محققه أن د. أحمد فرحات يشك في نسبة الكتاب لصاحبه).

٤٤- غريب القرآن وتفسيره، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك اليزيدي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٤٥- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ.

٤٦- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٤٧- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل، دار قهرمان، استانبول، دون تاريخ.

٤٨- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، الطبعة السادسة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٤٩- القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٥٠- الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن عبد الواحد الشيباني (ابن الأثير)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٥١- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، شركة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م.

٥٢- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، دون تاريخ.

٥٣- لما تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟ شكيب أرسلان، نشر دار مكتبة الحياة، بيروت.

٥٤- معجم اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٥٥- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٥٦- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي، طبع دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ، توزيع دار الباز، مكة المكرمة.

٥٧- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميه، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، طبع دار العربية، بيروت، صورة عن الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ.

٥٨- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، دار الدعوة، استانبول ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٥٩- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، مطابع فضالة، المغرب، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م.

٦٠- معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار الفكر العربي، مصر، دون تاريخ.

٦١- معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم، دار الفكر العربي، مصر، دون تاريخ.

٦٢- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، انتشارات طهران، دون تاريخ.

٦٣- مسند الإمام أحمد بن حنبل، توزيع دار الباز، مكة المكرمة، الطبعةالثانية ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٦٤- معجم البلدان، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٦٥- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، جمع وترتيب (A. J. WEN - J. P. MENSING, SINCK)، مطبعة بريل، ليدن ١٩٦٩م.

٦٦- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي، دار الدعوة، استانبول، دون تاريخ.

٦٧- المعجم الوسيط، نخبة من علماء اللغة المحْدَثين، مجمع اللغة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، دون تاريخ.

٦٨- معجم المعالم الجغرافية، المقدم عاتق بن غيث البلادي، دار مكة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٦٩- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، عيسى البابي الحلبي، مصر، دون تاريخ.

٧٠- مدخل إلى اللغة الفارسية، د. أحمد لواساني، طبع بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨١م.

٧١- مفاهيم ينبغي أن تصحح، محمد قطب، دار الشروق، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٧٢- النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السابعة، دون تاريخ.

٧٣- النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (ابن الأثير) توزيع دار الباز، مكة المكرمة.

٧٤- هل نحن مسلمون؟، محمد قطب، دار الشروق، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٧٥- واقعنا المعاصر، محمد قطب، مؤسسة المدينة، جدة، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

** ** **